زياد كاج

الحياة
كما قُدِّمت لهم

دار نلسن

زياد كاج

الحياة كما قُدِمت لهم

(حيّ المُطلّقات نموذجاً)



- حقوق الطبع محفوظة للمؤلف.
- تصميم الكتاب: كارينا وينزاين- السويد.
- تصميم الغلاف: الفنان مالك محفوظ
- الإشراف والإخراج الفني دار نلسن- السويد- لبنان.
- طبع في بيروت — الطبعة الأولى 2011.

دار نلسن

المؤسس يوسف سلامة - (1925-2000)

الإهداء

إلى زوجتي الحبيبة غادة،
لولاها لما كان هذا الكتاب

وأيضاً إلى أهل ضاحية بيروت
الجنوبية

"حسن الجوار الصبر على الأذى"

حديث شريف

قول ما ينبغي قوله

ليست هذه قصة "الشيعة" في هذا البلد، بل هي قصة "شيعة" من المنسيين والمهمَّشين الذين لم تَطَلْهم نعمة التغيير وموائد الزعامات. عاشوا في حي من أحياء الضاحية الجنوبية يلحسون مبرد الحرمان والتخلف، وشظف العيش على أبواب مدينة أدارت لهم ظهرها. إنها قصة ناس قليلي الحظ اجتماعياً ومعيشياً وثقافياً. أتوا من الريـــف إلى "مختبـــر الضاحيـــة"، وعاشوا على فتات فتات الموائد، ولم تُفتح لهـــم أبواب المدينـــة إلا إلى المستشفى أو السجن!

عشت في هذا الحيّ لأربع سنوات أُصبت خلالها بصدمة ثقافية كانت لي "نقمة ونعمة".

النقمة أني أتيت إلى الحيّ من رأس بيروت لأكتشف بيئة ريفية لم تكتسب من ثقافة المدينة شيئاً، بيئة منغلقة، يسودها العنف والبؤس والجهل والحرمان، في ظل غياب كامل للدولة، وأهلها يُستخدمون وقوداً وحطباً في حروب مستوردة.

وكانت النعمة في اكتشاف وأنسنة "الآخر" من خلال العيش معه والإحساس بوجعه وإحباطه، فسقطت الصورة النمطية عنه، وهي

صورة مبالغ فيها ومشغول عليها إلى أبعد الحدود. وكان الاكتشاف المذهل لحقيقة أننا "كشعوب وطوائف" وقبائل لا نزال نعيش بعضنا مع البعض الآخر غرباء متحصنين وراء أسوار عالية من الآراء المسبقة النمطية وأسطورة الطوائف.

بعد مغادرتي للحي شعرت بالذنب تجاه أهله وسكّانه. أنا الذي عشت غريباً بينهم. لماذا لم أتمكن من فهم هؤلاء الناس؟ لماذا مارست عليهم تعجرفي المديني والثقافي؟

قصرت المسافة بيننا، وكان لا بد من مدّ بساط العتب والمصالحة، وجردة حساب. هذا الحيّ ليس حكراً على الضاحية وحدها. فهو موجود على أطراف كل مدينة في كل بلد. كل همي كان نقل وجع هؤلاء الناس وحرمانهم وعيشهم في ظل إهمال الدولة لهم، واستغلالهم من قبل زعامات للسيطرة والنفوذ والوصول إلى المناصب.

تحية من القلب إلى الذين عاشوا الحياة كما قُدِمت لهم.

زيـــاد كـــــاج

بيروت في 2010/08/27

- 1 -

الناس في "حيّ المطلّقات" عراة! لكن هذا لا يعني أنهم عراة فعلاً. هم ناس محافظون جداً. فمعظم النساء والفتيات يرتدين الحجاب والملابس المحتشمة. فكلمة "عراة" تعني أن كل شخص في الحيّ يعرف كل شيء عن الشخص الآخر. لا وجود للخصوصية في ذلك المكان. فشأن أي إنسان هو شأن غيره أيضاً. فإذا أعدّت امرأة طبخة ما، تعرف كل الجيرة نوع الطبخة من الرائحة المنتشرة في المكان. وإذا تقدم أحد التلاميذ إلى امتحان البكالوريا، يبقى الحيّ كله تواقاً لمعرفة النتيجة. وإذا عُقدت خطوبة فتاة في الحي، يتحول العريس الجديد محط اهتمام الحيّ وحديثه، وبإمكان أي شخص إن يُدلي برأيه بحرية حول الموضوع. وعند وفاة أحد سكّان الحي، يغرق الحيّ كله في حدادٍ تام، ويشارك الكبار والصغار في مراسم وواجبات العزاء. فسكّان الحيّ يعيشون كعائلة واحدة في مكانٍ يشبه القرية قرب مطار بيروت، في منطقة برج البراجنة في الضاحية الجنوبية.

معظم سكّان "حيّ المطلّقات" من منطقة بعلبك في البقاع، ومن الجنوب، وبعضهم تهجر من مناطق أخرى مثل النبعة وتل الزعتر

والكرنتينا. أتوا بحثاً عن العمل والاستقرار والحياة الرخيصة، وشكلوا مع مرور الزمن ما بات يُعرف بـــ "حزام البؤس" حول مدينة بيروت. جلبوا معهم عاداتهم وتقاليدهم الريفية التي راحوا يفقدونها ولم يعودوا إليها، لكنهم في الوقت عينه، لم يتحولوا إلى سكّان مدن. فالمهاجر من الريف يشعر "بأمان" عندما يعيش وسط ناس من أبناء جلدته. فهو يعرف كيف يتعامل مع الثقافة التي ينتمي لها. هو يفهم رموزها، وعاداتها، وقيمها، وبسبب ذلك، يشعر بالثقة والأمان في وسطه الاجتماعي. فالعيش مع الطوائف الأخرى، يتطلب المعرفة و"النفاق". معرفة "الإتيكيت"، والعادات، والحساسيات الثقافية للمجتمعات الأخرى؛ و"النفاق" في الادعاء بتقدير عادات وطرق عيش الآخرين، وأحياناً، إدانتها في الخفاء!

الحيّ الشعبي، أو "حيّ المطلّقات" – كما كانوا يسمونه أحياناً – هو بحجم ملعب كرة السلة – يقع على بعد كيلومترات قليلة من مطار بيروت الدولي الذي ترك لدى سكّان الحيّ إحساساً هو مزيج من الخوف والاحترام. لا يذهبون إلى "هناك" إلا نادراً. كانوا يشاهدون الطائرات الضخمة تمر فوق رؤوسهم محدثةً صوتاً مرعباً. بقي المطار في مخيلتهم مكاناً غامضاً وبعيداً في آن.

في "الحيّ" محطة مياه أقامتها الدولة في المنطقة. وتقول الروايات إن الدولة استقدمت يوماً خبيراً أجنبياً لفحص مياه المحطة والتأكد من أنها صالحة للشرب والاستخدام. بعد القيام بالتحليلات المخبرية، صرخ الخبير الأوروبي: "هل الحيوانات التي تشرب من هذه المياه لا تزال على قيد الحياة!!!".

نشأ "حيّ المطلّقات" على زيجات ثلاث شقيقات من برج البراجنة من ثلاثة رجال أتوا حديثاً إلى المنطقة: اثنان من بعلبك وواحد من الجزائر. ورثت الشقيقات قطعة الأرض وعليها عمّر أزواجهن الثلاثة بيوتهم الزوجية من مالهم وعرقهم. النساء قدمن الأرض، والرجال قاموا بالعمار.

بداية، تزوجت رقية، وكانت أكبرهن، من محمد الذي كان يعمل في معمل بلاط ويكسب بعض الليرات في اليوم. ثم جاء دور هدى فتزوجت محمد آخر يعمل ورّاقاً. وأخيراً، جميلة، وكان نصيبها من مراحي – جندي جزائري أتى مع الجيش الفرنسي في الحرب العالمية الثانية.

كانت الزيجات الثلاث مثمرة وأنتجت أطفالاً يتمتعون بصحة جيدة. رقية أنجبت غالية أولاً بعد ثماني سنوات من عدم الإنجاب والترقب وحرب الأعصاب. ثم كرت السبحة: ناصر، عالية، علي، وندوة. فأصبحت تعرف هي وزوجها محمد بأمّ ناصر وأبو ناصر. وهدى بدورها لم تكن أقل نشاطاً، فأنجبت كامل، سناء، فريال وفتاتين. وأصبحت بدورها تُعرف بأم كامل وزوجها أبو كامل. وجميلة أيضاً كان لها: أحمد، علي، حسن، ناديا، سامية، حليمة وناهد. وصار الناس ينادونها أم أحمد وزوجها أبو أحمد.

هكذا كبر مجتمع الحيّ في برج البراجنة وتحول إلى مكان يعجّ بالأولاد النشطين، يملأون المكان بالضجيج، وقلوب آبائهم وأمهاتهم بالفرح والرضى.

المنازل في "حيّ المطلّقات"، والتي تكونت في معظمها من غرف

أرضية مبنية بصورة عشوائية، كانت متلاصقة، وكان لمعظمها جدران مشتركة. وكان بإمكان الناس سماع أحاديث ومجادلات الجيران من النوافذ والأبواب، خاصة في فصل الصيف عندما كانت الشبابيك والأبواب تُترك مشرّعة. على مدخل الحيّ يقع محل البرجاوي للحلويات العربية ومنزله فوق المحل المكون من طبقتين. كان البرجاوي معروفاً جداً في برج البراجنة بحلوياته العربية، المشهورة. وتقصد الناس دكانه من كل المناطق. بقي البرجاوي وحلوياته حالة شاذة في الحي. بضع خطوات نزولاً، تقع بناية الدقماق.

كان سكّان بناية الدقماق يزورون السعودية باستمرار، مما أكسبهم سمعة النوم على ثروة طائلة في مخيلة ناس الحي. أما لماذا أطلقوا عليها اسم "بناية" فلأنها كانت المبنى الوحيد في الحيّ المؤلف من أربعة طوابق، وكان يشرف على الحيّ كله. بالقرب من البناية، يقع منزل أمّ علي بهية وزوجها أبو علي المؤلف من غرفة واحدة. وهذا المنزل هو الأفقر والأكثر بؤساً في الحي. وإذا أراد أهل الحيّ ضرب المثل بالفقر والبؤس، يقولون "مسكينة أمّ علي بهية... ما عندها مطبخ!" وخلف منزل أمّ علي بهية، وعلى بعد أمتار قريبة، هناك منزل أم أحمد وأولادها. وإلى جانب "منزل" أمّ علي بهية، يقع منزل عالية – بنت أبو ناصر – وزوجها العسكري نور. والمسافة بين بوابة منزل عالية وبوابة أمّ علي بهية لا تقل عن مترٍ واحد. وعندما كانت أمّ علي بهية تقلي الباذنجان بعد التاسعة مساءً، كانت الرائحة تفوح في منزل عالية وتفتح شهية زوجها نور. عالية ونور كانا معروفين في الحيّ لكثرة مشاكلهما وخناقاتهما. نور العسكري كان يحب شيئين في الحياة: "هيديك الشغلة"

– وهذه تعني "الجنس" في قاموس مفرداته– والدجاج المشوي على الفحم. وعندما كان نور يشوي الدجاج أمام منزله الأرضي كانت الرائحة تعبق في الحي، فيعرف الجميع أنه ليس في الخدمة.

بضعة أمتار نزولاً، يقع منزل علي "إبن أم أحمد" الذي تركته زوجته وهربت مع "المصري الفرّان"، وبقي هو يرعى أولاده ويعمل في أي عمل كي يؤمن لهم عيشتهم. إلى جانب منزل أمّ علي، يوجد منزل سناء بنت أبو كامل، وزوجها عامر، وهو عسكري في الجيش أيضاً. على اليمين، يقع منزل أبو كامل، وفوقه مباشرة، منزل ابنه كامل، حدّاد السيارات. وأخيراً، بضع خطوات إلى الأمام يقع منزل علي وناصر، أولاد الحاج أبو ناصر.

هذا هو مجتمع الحيّ الصغير، جميعهم أقارب وجيران، يعيشون على قطعة أرض بحجم ملعب كرة السلة. النساء يتواصلن بالصراخ من الشبابيك ومناداة بعضهن البعض وأولادهن. فالتواصل سهل ويسير في الحي: وما عليك سوى أن تطلّ من الشبّاك أو من على الشرفة وتنادي فيسمعك أهل الحيّ كلّه!

الأولاد هم وسيلة أخرى وهامّة للتواصل. فهم يحبّون خدمة الكبار. وما إن تطلب من أحدهم أو إحداهن جلب غرض ما أو إيصال خبر، تجدهم يلبون على الفور. فالأولاد في الحيّ الوسيلة المثلى لنشر الأخبار أو الإعلان عن القادمين الجدد. هم الرابط الذي يبقي الحيّ متماسكاً. فمنذ الصباح حتى المساء، ترى الأولاد يركضون ويلعبون في أزقة الحي، والقاعدة الذهبية: "لا تدعي الأولاد يلعبون في المنزل". فأولاد "حيّ المطلّقات" يتمتعون بصحة جيدة ونادراً ما يصابون بمرض

وذلك لكثرة نشاطهم وركضهم كل اليوم، واكتسابهم مناعة من كثرة التعرض للهواء الملوث والركض حفاة على التراب. والمشاكل كثيرة بين أولاد الحي، وأحياناً، مع أولاد الحيّ المجاور. والولد القوي والذي يعرف كيف يدافع عن نفسه يكافأ من قبل أهله وهو مصدر فخر واعتزاز لهم، أما الضعيف، فيكون مصدر خجل وإحراج. "ما تخلّوا حدن يضربكم"، كانت الأمهات يحذّرن أولادهن، "ويلّي بيجي مضروب، لح ينضرب!". والحقيقة أنّ الكثير من المشاكل في الحيّ كانت تحصل بسبب الأولاد، خاصة في فصل الصيف عندما تكون المدارس مغلقة، والأبواب مشرّعة.

لا يوجد بنية تحتية أو خدمات عامة في "حيّ المطلّقات": لا نظام للصرف الصحي، لا مياه (سواء للشرب أو للاستعمال)، والكهرباء تنقطع لفترات طويلة. ولا عمال بلدية يأتون لجمع النفايات. فالناس كانوا يرمون الزبالة في مكب للنفايات قرب الحيّ والرائحة لا تطاق، خاصة في فصل الصيف. وغالباً ما كان سكّان الحيّ يعمدون إلى إضرام النار في المكب، فيخيم الدخان فوق الحيّ لعدة أيام. إضافةً إلى طوفان المجرور المتكرر في الشارع الرئيسي أمام محل البرجاوي. وفي فصل الشتاء، يضطرّ أهل الحيّ إلى ارتداء الجزمات البلاستيكية لعبور الشارع وجلب الحاجات.

تحوّل سكّان الحيّ مع مرور الزمن إلى خبراء في سرقة الكهرباء والتعليق على خطوط الإمداد. فالذي يعرف كيف يعلّق على الخط، كان يعتبر من "الشطّار" ويحظى باحترام وإعجاب الجميع لإمكاناته المميّزة. وطبعاً، لم تصل المياه إلى حنفيات المنازل في الحي،

وهذه كانت للديكور فقط، والمصدر الوحيد المتوفر للمياه كان البرجاوي. فهو الوحيد الذي حفر بئراً تحت محلّه وكان يؤمّن المياه لسكّان الحيّ صيفاً وشتاءً. ومن حنفية وضعها البرجاوي إلى جانب محله، كانت النرابيج تمتد إلى كافة المنازل في الحي، وغالباً ما وقعت المشاكل والخناقات بين أهل الحيّ على مياه البرجاوي، إذ كلٌّ يريد أن يعبئ خزاناته أولاً. وكان أهل الحيّ يرددون: "لولا البرجاوي لكان الجرب أصابنا من زمان".

لكل هذه الأسباب والظروف الصعبة، لم تعنِ كلمة "دولة" أو "قانون" أي شيء لأهل الحي. فهم لم يعرفوا من الدولة سوى "بذلة الدرك" الرمادية المكروهة وبذلة الجيش الخضراء "المحببة" اللتين يرونهما على أجساد أبنائهم وأقاربهم في الحيّ والمنطقة.

على الرغم من كل هذه المصاعب والحرمان والفقر، تميز سكّان "حيّ المطلّقات" بالصبر والإيمان، ولم يفقدوا أبداً أملهم بحياة أفضل. لسان حالهم كان: "الحمد لله"، "إن شاء الله"، "الله كريم"... وكانوا يثابرون على صلاتهم، ويصومون شهر رمضان، ويحيون ذكرى عاشوراء كل عام بكثير من الحزن والتأثر، فينسون مصائبهم لعشرة أيام.

قَدِمَ والد الحاج أبو ناصر إلى الضاحية الجنوبية في العشرينيات، من قريته البقاعية، تمنين الفوقا، للعمل كنّاساً في سباق الخيل مع عائلة الخنساء. استقر بداية مع عائلته في الشياح ثم انتقل لاحقاً للاستقرار في الحيّ في برج البراجنة. كان الرجل فقير الحال، قاسي الطباع، اكتسب قساوته من قساوة وشظف عيشه، وظالماً في معاملته لزوجته وأولاده الذين كانوا يخافونه كثيراً، ومجرد وجوده في المنزل المؤلف من غرفة واحدة كان يفرض جواً من الصمت والخوف. فكلمته كلمة وهي غير قابلة للمناقشة أو التحدي، وأوامره يجب أن تنفذ من دون أدنى تردد كونه رب المنزل الذي يجلب الطعام والملبس. يذكر الحاج أبو ناصر كيف كان هو وإخوته وشقيقاته يرتعدون خوفاً عندما يلمحونه قادماً من جهة الرمل العالي قرب طريق المطار، ولا ينسى كيف كان والده يمضي قيلولته في ظل عرزاله على شجرة الصنوبر قرب المنزل، وكيف كان يرمي حجراً من نقيفته على باب منزلهم الخشبي طالباً من أمهم إحضار العشاء أو كوب شاي إلى العرزال.

"كان بيي ظالم"، يتذكر الحاج أبو ناصر، "والله ذاتو ما بيحب الظلم... مرّة ضرب أمي على ظهرها بعصا خشب. كانت الضربة

قوية، ومع الوقت، صار عندها ورم تطور إلى جورة في ظهرها. مرضت المسكينة ولازمت الفراش تعدّ أيامها الأخيرة". "سامحيني يا حجة... سامحيني" كان يلحّ عليها طالباً المغفرة، لكنها لم تسامحه. "ماتت من دون ما تسامحو".

"مات بيي بطريقة بشعة"، يقول الحاج أبو ناصر. "تزوج من مرا فلسطينية وعاش معها في مخيم برج البراجنة. وبيوم من الأيام لاقوه ميت ومتصاوب برصاصة ببطنه. بس ما عرفوا مين قتله".

"بيي جن جنونو لما قلتلو إنو بدي أتزوج رقية" يتذكر أبو ناصر بمرارة. "بدك تتزوج غريبة، ليش ما بتتزوج واحدة من بعلبك، من ناسنا. واحدة بتعرف عاداتنا وتقاليدنا. إذا بدك تتزوجها، لا إبني ولا بعرفك وبدك تترك البيت".

أحبَّ محمد رقية ودخلت قلبه وعقله عندما لمحها لأول مرّة في طريقها إلى الفرن. كانت فتاة شاطرة "وبنت حلال" و"ما شمّا إلا إمّا" ومن عائلة آدمية معروفة في برج البراجنة. بعد وفاة أهلها، عاشت رقية مع عمتها التي لم يكن لديها أولاد. كانت رقية معروفة في الحيّ لأخلاقها وتربيتها الصالحة، وسوف تكون زوجة صالحة له. كانت ترعى عمتها المريضة التي لازمت الفراش منذ مدة طويلة. كانت خياراً مثالياً، فعزم محمد على التقدم وطلب يدها. وشاع في الحيّ أن عمة رقية قررت توريثها قطعة أرض كبيرة جزاءً لجميلها ومعاملتها الحسنة.

استمرت الخطوبة بين محمد ورقية لمدة ثلاث سنوات متتالية – وهي فترة تُعتبر طويلة بالنسبة لمعايير ذلك الزمن. خلال فترة الخطوبة

حاول والد محمد إفشال الزواج دون جدوى. حتى أنه لم يحضر حفل الزواج الذي أقيم تحت شجرة الصنوبر في الحيّ واستمر الغناء والرقص والدبكة بمشاركة أهل الحيّ لثلاث ليال متتالية. لم يتسع البيت لكل المدعوين، فتجمع الناس في الباحة في الهواء الطلق، وجلسوا على الكراسي الخشبية التي جُمعت من بيوت الأهل والجيران. جلس "العريس" محمد مرتدياً بذلته الجديدة يوزع ابتساماته على الحضور من وقت إلى آخر، ولبث صامتاً حسب التقاليد والأصول. امتدت حفلة العرس إلى منتصف الليل وسط الأغاني والأهازيج والدبكة، وأطلقت إحدى النسوة زلغوطة لا يزال الحاج أبو ناصر يذكرها حتى اليوم:

"إي ها... يا عريس مين قدّك،
إي ها... الزهر فتّح على خدّك،
إي ها... تهنالك العروس،
إي ها...أم أم اللّي ما بيحبك!"

"مش لح أعطيك أي شي من عندي، ولا حتى قطعة قماش" صرخ به أبوه عندما طرده من بيت العائلة.

"بس أعطيني فرشة نامّ عليها" طلب محمد راجياً.

"ولا شي.. بدك تتزوجها على رأيك... ماشي الحال، بدك تتحمل العواقب".

كان محمد حزيناً ومكتئباً لموقف والده العنيد من زواجه. كان يذهب عند كل غروب إلى الرمل العالي ويراقب طريق المطار والشمس تختفي في الأفق. كان يمضي ساعات باكياً، طالباً رحمة الله، حتى كانت

عيناه تجفان من الدمع.

قدمت رقية كل الدعم لخطيبها، فصنعت له فرشة من قش التبن كي ينامّ عليها. بدوره محمد راح يبني غرفة على قطعة الأرض التي ورثتها رقية من عمتها المريضة. هكذا، قدمت رقية الأرض وقدم محمد بدوره المال والجهد والتعب. وفي كل مرّة كان يبني حائطاً، كان والده يأتي ويخرّب ما بناه ابنه. "بدك تعمّر على أرض غيرك يا حمار"، كان يصرخ به مؤنباً.

لم يتراجع محمد عن إصراره وتصميمه، وبدعم رقية وصبرها، تمكن من بناء غرفة أرضية واحدة كانت نواة منزلهما الزوجي. ثم جاء دور الإنجاب والأولاد كي يملأوا البيت.

"يا بنتي يا رقية!" قال لها كبير العائلة عندما أحضرها إلى منزلها الزوجي بعد انتهاء العرس. "هذا عريسك المقدّر إلك من الله. أوصيكِ بمعاملته بالمليح كي يُعاملك بالمليح. ولا تنسي أن تطلبي دوماً رضى عمّك وامرأة عمّك. والأصل أن تقضي حياتك معهم بالهنا والسعادة، وإن شاء الله يرزقكم الباري تعالى دزينة أولاد!"

الكل كان يتوقع إنجاب الأولاد، خاصة والد محمد الذي اضطر مع الوقت إلى قبول واقع زواج ابنه على مضض. لا شيء سوى الأولاد يجعل الزواج يدوم ويرضى الأهل والغاضبين. الكلّ في الحيّ كان ينتظر أن تحبل رقية. لكنها لم تفعل. شهر، شهران، ثلاثة أشهر، ولم يحصل. بدأ الناس بطرح الأسئلة والقلق!" هل يفعل محمد ورقية الشيء المناسب وفي الوقت المناسب...؟ معقولة تكون رقية ما بتجيب أولاد...؟"

تدخل الكبير والصغير في المسألة وراحت النسوة يسألن أسئلة محرجة، ثم تحولت المسألة إلى قضية عامة في الحي. شعرت رقية بالخوف والقلق. كانت تحلم بالإنجاب لإسعاد زوجها.

وأصبح عمّها أكثر غضباً وأقل صبراً. "ليش ما سمعت كلمتي"، كان يصرخ بابنه مؤنباً، "قلتلك ما تتزوجها."

مرت ثماني سنوات ورقية لم تحبل. ثماني سنوات وأبو محمد يحاول تطليقها منه وتزويجه من فتاة غيرها. كان يأخذه إلى عدة بيوت في المنطقة ويعرفه على عدة فتيات جميلات، دون جدوى.

كانت ثماني سنوات صعبة ومريرة على محمد ورقية خصوصاً، لكنهما صبرا. "ما بدي أتزوج يا بيي"، قال محمد لأبيه مرة. "أنا بحب رقية وما بدي أتركها مهما حصل، حتى لو بدي قضي عمري معها من دون أولاد".

حتى رقية قالت لزوجها يوماً: "اسمع يا محمد. إذا بدك روح وتزوج. مش لح أوقف بطريقك ليكون عندك أولاد. صار لنا ثماني سنوات، وأنا مش عم أحبل. ما بدي كون سبب تعاستك".

قالت له رقية تلك الكلمات بقلبٍ حزين. وكان جواب محمد: "لأ رقية، ما بدي أتزوج واحدة ثانية. أنا بحبك وبدي أقضي عمري معك... إن شاء الله لح تحبلي وبيتنا لح ينملي أولاد".

لم تكن رقية من النوع الذي يستسلم بسهولة، لم تترك شيخاً في المحلة إلا وذهبت إليه سراً. حتى أنها أقنعت زوجها بالذهاب إلى الباطية والتبرك هناك. في أحد الأيام، كانت تجلس أمام باب منزلها، تراقب أولاد شقيقاتها يلعبون، مرت قربها بصارة اعتادت زيارة الحيّ

وسألتها عن سبب وجهها الحزين. "ليش إنتِ حزينة يا حلوة؟" أخبرتها رقية عن قصتها. "عندي حل لمشكلتك، وإن شاء الله، لح تحبلي خلال أيام" قالت البصارة. لم تصدق رقية ما سمعت، وكادت تصرخ من الفرح: "متأكدة إنتِ من ها الشي؟". "أكيد" قالت البصارة. "أعطيني خاتم الذهب يلّي بإيدك وأنا بحطلّك ياه في تحميلة.... وخلال أيام لح تحبلي إنشاء الله". "إنشاء الله" قالت رقية وأعطتها الخاتم.

دخلت البصارة إلى المنزل وأعدت التحميلة ثم غادرت. وفعلت رقية ما طلبت منها البصارة. انتظرت يوماً، اثنين، أسبوعاً، شهراً، ولم يحدث شيء. لم يحصل الحبل وضاع الخاتم الذهبي.

لم تتجرأ رقية على إخبار زوجها بما حدث وقالت له إنها أضاعت الخاتم.

ذات يوم، وبناءً على نصيحة أحد الجيران الذي كان يعمل في بيروت، ذهبت رقية إلى المستوصف في مستشفى الجامعة الأميركية. وبعد إجراء الفحوصات اللازمة، قال لها الأطباء إن عدم حبلها كان بسبب انسداد في أنابيب الرحم. خضعت لجراحة بسيطة وعادت إلى المنزل لتخبر محمد الأخبار السارة. بعد فترة وجيزة حملت رقية.

"رقية حامل... رقية حامل" انتشر الخبر بسرعة في الحيّ على لسان الأولاد والنساء. الكل كان فرحاً للخبر. إنه خبر الساعة في ذلك اليوم. وكان الرجل الأكثر سعادة إلى جانب محمد، والده، الذي جاء وزارهما في غرفتهما لأول مرة، مهنئاً: "مبروك... مبروك".

محمد، بصورة خاصة، كان في غاية الفرح لكون رهانه على رقية كان رهاناً صائباً. "بعد ثماني سنوات، رقية حامل... الحمد لله...

الحمد لله" كان يقول في سرّه. الآن أصبح بإمكانه أن يقف وسط مجتمع الحيّ وأمام والده ويقول إن اختياره لرقية كان صحيحاً، وإن انتظاره لثماني سنوات لم يذهب هدراً. الآن أصبح بإمكانه مواجهة عديليه، أبو كامل وأبو أحمد، وقريباً سيكون له أولاد مثلهما يملأون بيته ويلعبون في أزقة الحي، وسوف يضجون ويتسببون بالمشاكل مثل أولاد الآخرين.

في ذلك اليوم ذهب محمد إلى التلال الرملية في الرمل العالي لمشاهدة غروب الشمس كما كان يفعل في أوقات الشدة والحزن. لكن هذه المرة كانت الدموع التي سقطت على خديه ووجنتيه، دموع فرح ونشوة. نظر نحو الشمس الغاربة مبتسماً. أخيراً، ابتسمت له الحياة بعد طول انتظار.

بعد تسعة أشهر، خلّفت رقية فتاة بصحة جيدة. عادة أن تَلِد امرأةٌ فتاة بعد حملها الأول لم يكن بالخبر السار. كون الرجل بحاجة أن يقال له: "أبو فلان..." مثل أبو كامل، وأبو أحمد، وأبو علي... وهكذا. ومحمد كان بحاجة أن يقال له أبو فلان!!! لكن الوضع كان مقبولاً بعد انتظار ثماني سنوات. وعلى إثر إصرار جدها، سمّيت الفتاة "غالية" وأصبحت مصدر سعادة رقية ومحمد، وتحديداً الجد الذي اشترى لها دراجة عندما أصبحت قادرة على المشي. وكانت غالية أول فتاة في الحيّ تحصل على دراجة.

على أثر الولادة، عانت رقية من مشاكل في القلب. حذّرها الدكتور قائدبيه: "إذا بتحبلي بعد مرة، أكيد رح تموتي". لكن رقية أنجبت

هذه المرة صبياً. أعطاه محمد اسم "ناصر" كونه كان معجباً بالزعيم جمال عبد الناصر. وصار محمد يُعرف في الحيّ باسم "أبو ناصر".

في كل مرّة كان الدكتور قائد بيه يحذر فيها رقية من الإنجاب عندما تزوره في عيادته في بيروت، كانت تدخل إلى عيادته وبطنها منتفخ. "هال المرة رح بتموتي..." لكنها ولدت هذه المرة عالية. "هال المرة..."، ولدت رقية علي. "هال...."، فجاءت ندوة. لم تكن تحذيرات الدكتور قائد بيه مثمرة ولم تستمع رقية لتحذيراته. كانت رقية تمارس الانتقام على طريقتها لحرمانها من الإنجاب لمدة ثماني سنوات، في مجتمع يعتبر الإنجاب أهم وظيفة طبيعية للمرأة. وفي كل مرّة كانت رقية تدخل عيادته وبطنها أمامها، يرفع الدكتور يداه صارخاً: "يا مدام عم تقتلي حالك!!!"

"الله كريم يا حكيم..." كانت تجيبه وهي تضع يدها على فمها خجلاً.

- 3 -

كان أبو ناصر عاملاً نشيطاً مؤمناً باللقمة الحلال، وازداد نشاطه وحماسه للعمل مع تكاثر أولاده والمسؤولية الملقاة على كتفيه. عند ولادة غالية، كان يعمل في معمل لتصنيع البلاط في برج البراجنة. العمل كان شاقاً، وعليه أن يحمل وينقل الأحجار الثقيلة من الصباح حتى المساء. رغم ذلك أحب أبو ناصر عمله الشاق الذي تطلب منه مجهوداً جسدياً كبيراً. "بس الشغل حلو وأفضل من القعدة بالبيت". كان يجد لذّة في العودة إلى بيته عند الغروب متعباً منهكاً، فيستسلم للقمة الطيبة التي أعدتها له رقية، ويأنس لمراقبة أولاده يلعبون في الدار وهو يرتشف كوب الشاي الساخن.

في أحد الأيام سأله أحد الجيران من آل الحسيني إذا كان يرغب في العمل في المطار. لم يصدق أبو ناصر، "في المطار!!!" حيث تحط وتقلع الطائرات الضخمة وحيث عجقة المسافرين إلى كافة أنحاء العالم! كم راقب تلك الطائرات من على تلال الرمل العالي. الآن جاء حظه وسوف يدخل إلى المطار ويشاهد الطائرات عن قرب. ذلك المطار الذي طالما أحس بالرهبة والخوف عندما كان يسمع اسمه على ألسنة أهل المنطقة. وافق على الفور.

كان لمطار بيروت مكانة هامة ومضخمة في خيال أهل الحيّ في برج البراجنة. في المطار – "هناك" – حصلت أمور جدية وهامة. "هناك" كانت تقلع الطائرات الكبيرة لتظهر في السماء فوقهم. طائرات تنقل الناس إلى بلدان بعيدة. كان سكّان الحيّ ينظرون إلى المطار بإحساس يختلط فيه الخوف بالاحترام. وهذا الشعور بالخوف والاحترام انتقل في نظرتهم إلى أولئك الذين كانوا يعملون في المطار. هؤلاء اكتسبوا أهمية ومكانة خاصة في نظر الناس. لهذه الأسباب كانت أمّ ناصر مزهوة بزوجها الذي بدأ عمله الجديد في المطار. وكم كانت تفرح عندما تشاهده عائداً إلى البيت في بذلته الزرقاء الخاصة بموظفي المطار.

"والله الدنيا بلّشت تبتسملك يا رقية" كانت تقول لنفسها، وهي تنشر قميص زوجها الأزرق على حبل الغسيل كي يجف في الشمس. وكم كانت تترك ذلك القميص الأزرق معلقاً على الحبل لعدة أيام كي يراه الناس والهواء يتلاعب به كأنه راية. وكم كانت تفرح وهي تكويه، فتعيد كيّه لعدة مرات. لم يعد أبو ناصر يعمل في معمل البلاط، ولن يعود بعد الآن وثيابه متسخة ومغبَّرة. هو الآن يعمل في المطار، يصعد إلى الطائرات ويشاهد ناساً من كل بلدان العالم. ناس يأتون من أماكن بعيدة. ناس لم يشاهدهم أحد في الحيّ من قبل. كل ليلة، كان أبو ناصر يجلب معه أخبار وتفاصيل عن "كبتنية" الطائرات، عن زملائه وعن مديره المسيحي. أخبار لم تكن تسمع بها قبلاً. أصبح أبو ناصر شخصاً هاماً في الحيّ والناس صاروا يغارون منه. "نيالو أبو ناصر" كانوا يقولون، "ونيال أمّ ناصر كمان". "والله أبو ناصر صبر ولقا".

أمّن العمل الجديد في شركة "الميدل إيست" مدخولاً جيداً لأبو ناصر مكّنه من بناء طابق ثانٍ فوق منزله الأرضي المتواضع. كان يوفر المال ويشتري بالتقسيط مواد البناء – رمل، وحجارة، وبحص – من برج البراجنة. وكم كان أبو ناصر يفرح لرؤية أكوام البحص والحجارة أمام منزله. حتى أنه كان يشارك المعمرجي في عملية البناء ويصر على جلب صينية الشاي له شخصياً. وفي أوقات فراغه، كان يعتدي على الكار، ويحاول صب جبلة باطون هنا، وصفّ بعض الحجارة هناك. "يا أبو ناصر، هيدي الشغلة مش شغلتك" كان المعمرجي يقول له. لكن أبو ناصر كان يكرر فعلته فرحاً بإنجازه المعماري.

انتهت عملية البناء وأصبح المنزل الجديد جاهزاً. فانتقل أبو ناصر مع عائلته إلى الطابق الفوقاني المطل على معمل جلول. يا لها من نقلة نوعية أن تعيش في الطابق العلوي أسوة بجاره البرجاوي بدل الشقة الأرضية!

صار منزله الآن مؤلفاً من غرفتين، وغرفة نوم خاصة به وبأمّ ناصر، ومطبخ، وحمام أيضاً، وبلكون يطلّ على الشارع ومحل البرجاوي المقابل. كان منزلاً "حديثاً" مقارنةً مع منازل الحيّ الصغيرة في ذلك الوقت. زها أبو ناصر فخراً بإنجازه وحلمه الذي تحقق. وكم كان يشعر بالرضى والاطمئنان عندما كان يتذكر الغرفة الأرضية التي عاش فيها مع أهله في الشياح. كان يحمد الله كونه أمّن لعائلته منزلاً أكبر وأشرح من المنزل الذي أمّنه أبوه لعائلته.

كان أبو ناصر يجلب معه إلى البيت أشياء لذيذة كثيرة كان ركّاب الطائرات يتركونها على الطائرات. أشياء أحبها أولاده:

كرواسان، ألواح شوكولاه، زبدة، مربى، بسكوت، وأهم شيء، قطع جبنة La vache qui rit، التي كان أولاده يتخاطفونها. كلها أشياء كانت غير متوفرة في الحي. فكان كل يوم بعد أدائه الصلاة عند المساء، يجلس على كرسيه الخشبي على البلكون، يشرب كوب الشاي الساخن، ويشعر بالسعادة لرؤية أولاده يتنافسون للاستيلاء على تلك المأكولات اللذيذة القادمة مباشرة من المطار. لاحقاً، خرجت أمّ ناصر بفكرة رائعة: "ليش ما منبيع قطع الـــ La vache qui rit الزايدة للجيران بركي بنكفّ عنّا حسدهم – "ومن شر حاسد إذا حسد" – وهيك نكسب مصاري أكثر؟" أعجبت الفكرة أبو ناصر. فراحت أمّ ناصر تبيع عشرة حبات بليرة واحدة لأهل الحي. مع الوقت، ازدهرت تجارة أمّ ناصر، وراح الناس يقرعون باب منزلها طلباً للجبنة اللذيذة. هكذاً، دخلت جبنة الـــLa vache qui rit لأول مرّة إلى "حيّ المطلّقات" في برج البراجنة عبر بوابة أبو ناصر.

مرضت عمة أمّ ناصر ولازمت الفراش. فقامت أمّ ناصر بالاهتمام بها صباحاً ومساءً. كانت حنونة عليها ولم تخجل أو تتذمر من تنظيفها وتحميمها وهي راقدة في الفراش. كل يوم، كانت أمّ ناصر تحمل لعمتها المريضة صينية الأكل إلى فراشها، فتطعمها بهدوء وتأنٍّ. وكانت تكنس لها غرفتها وتسهر على راحتها. كانت أمّ ناصر تقوم بواجباتها مع عمتها بكثيرٍ من الإخلاص والحب. ومن خلال عنايتها بها، كانت أمّ ناصر ترد الجميل. فهي عمتها التي ربّتها واعتنت بها بعد وفاة أهلها. "وما بينسى المنيح إلا إبن الحرام".

في أحد الأيام، شعرت العمة المريضة بدنوّ أجلها وأرادت أن تريح ضميرها تجاه أمّ ناصر. فنادتها قائلة: "يا رقية، أيامي صارت معدودة. إنتِ تعذبتي معي كتير. إنتِ بنت منيحة وزوجك محمد كمان منيح وآدمي..."، "روحي قولي لزوجك يجيب كاتب العدل بسرعة. بدي أكتبلك حصتي من هالأرض باسمك... بسرعة روحي قولي لزوجك".

أخبرت أمّ ناصر زوجها بالموضوع. "أسرع، روح جيب كاتب العدل حالاً" قالت له. "عمتي بعدها واعية وممكن تموت بأية لحظة".

أسرع أبو ناصر راكضاً إلى مكتب كاتب العدل في برج البراجنة. بدأ ماشياً، ثم راح يركض بقدر ما وسعته قدماه. استحوذت فكرة تملك أكبر قطعة أرض في الحيّ على عقله. أخيراً، سوف يملك هو وأمّ ناصر قطعة أرض في الحي. أرض شرعية! أرض مع أوراق شرعية! غير مصادرة أو مسروقة! "وشو الفرق بينه ورقية؟"، "إذا امتلكت رقية الأرض يعني هوي لح يملك كمان". راحت الأفكار تسابق قدميه المسرعتين على الطريق الرملي باتجاه مكتب كاتب العدل الوحيد في المنطقة.

عاد أبو ناصر إلى الحي، نفسه مقطوع، ومعه كاتب العدل. تجمع عدد من الناس ومعهم عديله، أبو كامل. الكل دخل إلى الغرفة حيث كانت العمة المريضة على فراش الموت. راح كاتب العدل يسألها عدة أسئلة كي يتأكد من صحتها العقلية ووعيها. ثم راح يكتب الوصية التي أعطت أمّ ناصر الحصة الأكبر من الأرض في الحي. عند سماعه الخبر، صرخ أبو كامل غاضباً: "هالشغل مش مضبوط... مش مضبوط. المرا مش واعية. هي عم بتموت". راح أبو كامل يصرخ

فاقداً أعصابه.

"خلينا نجيب شهود"، قال الكاتب ببرودة وهو المعتاد على هذه المواقف.

جلب أبو ناصر شاهدين من الحيّ بسرعة فائقة. "يا حجة" سأل الكاتب، "بتعرفي مين هيدول؟" "طبعاً بعرفن. شو أنا مجنونة" قالت العمة. "هيدا حسن، اللحام. وهيدا محمود، الخباز".

أنهى الكاتب كتابة الوصية وجعل العمة تبصم عليها. ثم أعطاها لأمّ ناصر قائلاً: "مبروك". وترك الغرفة على وقع صرخات وسباب أبو كامل وعجقة الناس وتعليقاتهم.

"هالشغلة مش مضبوطة... مش مضبوطة"، ظلّ أبو كامل يصرخ مغادراً الغرفة. "شفتها بعيني... المرا ما كانت واعية... خلّوها تبصم بالقوة". راح يصرخ ويسبّ زوجته "الحمارة" لعدم اهتمامها بصحّة عمّتها كما فعلت رقية!" والله تزوجت من مرا هبلة... والله هبلة" راح يقول للناس الذين تجمعوا خارج الغرفة الأرضية. "والله هالمرا حمارة خلت أختها تاخد كل شي!".

بعد أيام، ماتت العمة. اهتم أبو ناصر وأمّ ناصر بمراسم الدفن. دفنت العمة في جبانة الرمل العالي. وأقيم لها مجلس عزاء لأسبوع كامل. ثم في ذكرى الأربعين، ثم في الذكرى السنوية الأولى. القرّاية كانت شاطرة. "والله بكّت الحجر" قال الناس. إلا أبو كامل، لم يبكِ دمعة واحدة.

مع مرور الزمن نسي أهل الحيّ تلك الحادثة. ما عدا أبو كامل. فمنذ الآن سوف يكون له السبب الكافي كي يكره أبو ناصر وأمّ ناصر

وحتى أولادهما. إعتبر أن حقّه أخذ منه وأنه كان مظلوماً. ومع الوقت أصبحت الهوة كبيرة بين العديلين وبين عائلتيهما أيضاً. ومنذ تلك الحادثة انقسم "حيّ المطلّقات" بين مؤيد لأبو ناصر ومؤيد لأبو كامل. البعض وقف إلى جانب أبو ناصر ووجد أنه كان على حق، والبعض الآخر وقف إلى جانب أبو كامل ورأى أنه كان مظلوماً. لكن المشكلة بقيت عالقة وكان الناس يتحدثون عنها في سهراتهم ومجالسهم. لم يضيع أبو ناصر الوقت. أخذ الوصية وسجلها باسم زوجته في الدوائر العقارية في بعبدا. أصبح هو وزوجته رقية المالكين الشرعيين للأرض. أرضهما الخاصة بهما، وليست للآخرين. "أرض مسجلة في بعبدا وفيها حِجة"". وبقيت تلك الحِجة أثمن شيء احتفظا به طوال حياتهما في الخزانة بين قطع الثياب.

في مساء 28 كانون الأول، 1968، استيقظ أهالي "الحيّ" مذعورين، على صوت رصاص كثيف وانفجارات مدويّة، أتت من جهة المطار. هرع الرجال والنساء والأولاد إلى السطوح للاستطلاع. كان المشهد مرعباً: المطار يشتعل، وفوقه سحب الدخان من الطائرات المحترقة، وسط إطلاق نار وأصوات انفجارات استمرّ لأربعين دقيقة. ركض عدد من السكّان إلى الرمل العالي للتفرج عن قرب، وأدار البعض أجهزة الراديو في منازلهم:

"عند الساعة التاسعة وعشر دقائق شوهدت
طائرات إسرائيلية تحلّق فوق مطار بيروت
الدولي وتطلق النار على طائرات "كارافيل"
تملكها شركة طيران الشرق الأوسط."

في ذلك الوقت، حلّقت طائرة هليكوبتر أخرى على ارتفاع منخفض، ونزل منها مظليون إسرائيليون توجهوا نحو طائرة بوينغ جاثية كانت على وشك الإقلاع إلى جدة. أجبر المظليون ركاب الطائرة الـ 81 على النزول منها بالقوة، وقد أصيبوا بالهلع والخوف بعد انفجار

طائرة الكارافيل القريبة منها. وبعد نزول الركاب المذعورين من الطائرة، فتحت طائرات الهليكوبتر الإسرائيلية النار على طائرتي "بوينغ" و"FC10". واشتبك المظليون مع قوة الدرك المتمركزة في المطار لخمسِ دقائق أصيب خلالها مظليان إسرائيليان. وقدّرت الخسائر في المطار بحوالي عشرة ملايين دولار. كما عُلم أن مدير عام المطار آنذاك، إدمون غصن، أصيب في مكتبه مع موظف آخر جرّاء الهجوم الإسرائيلي.

احترقت 13 طائرة خلال الغارة واستمر رجال الإطفاء يكافحون النيران حتى الساعة 2.30 فجراً.

وعند الساعة 10.30 حضر رئيس الوزراء عبد الله اليافي إلى المطار متفقداً، يرافقه وزير الداخلية والأشغال ريمون إدّه، والقائد العام لقوى الأمن الداخلي. عند الساعة 10.40 حضر فخامة الرئيس شارل حلو لتفقد المطار.

في تلك الليلة بقي سكّان الحيّ مستيقظين حتى الفجر، وذلك بعد انتشار شائعات بأن الإسرائيليين قد يشنّون هجوماً آخراً.

سهرت أمّ ناصر على أعصابها تلك الليلة، خاصة أن أبو ناصر كان في المطار أثناء الغارة. أمضت ليلتها على البلكون تنتظر عودته بقلق وخوف. طوال الليل لم تتزحزح عيناها عن الطريق الترابي المؤدي إلى الرمل العالي. كان الظلام حالكاً وأصوات الانفجارات مرعبة، ولم يهدأ بالها إلا عندما رأته آتياً من جهة الرمل العالي. بدا عليه التعب والخوف وثيابه ملطخة بالغبار والسخام. "الحمد لله على السلامة... الحمد لله على السلامة" قالت له وهي غير مصدقة أن زوجها

عاد سالماً إلى المنزل بعد تلك الليلة.

في اليوم التالي، استؤنفت حركة الطيران في المطار، وكان أهل الحيّ سعداء لرؤية الطائرات تحلّق في السماء من جديد. وانتشرت الشائعات وسط السكّان بأن إسرائيل قد تشنّ غارة أخرى، "ربما على مخيم برج البراجنة هذه المرة"، مما أبقى الوضع متوتراً في الحيّ لعدة أيام.

بدأت أمّ ناصر تعاني من مشاكل في القلب بعد إنجابها غالية. بداية، كانت تتعالج عند الدكتور قائدبيه، ثم تحولت إلى الدكتور سامي الحسامي في بيروت كونه كان يعالج مرضى الضمان الاجتماعي. تطور وضعها الصحي ودخلت إلى مستشفى الجامعة الأميركية وخضعت لعملية "تمييل القلب" وبقيت في المستشفى لمدة 12 يوماً. ثم أخذها أبو ناصر إلى الدكتور الحسامي في مستشفى البربير، بعد أن أحضر ملفها الطبي من مستشفى الجامعة.

بعد إجراء عدة فحوصات، سمعت أمّ ناصر بالخبر السيئ من الدكتور الحسامي في عيادته: "أنتِ بحاجة ماسة إلى عملية قلب مفتوح، يا مدام". صُدم أبو ناصر وأمّ ناصر عند سماعهما الخبر. "وبما أن العملية لا يمكن إجراؤها في بيروت"، أضاف الدكتور حسامي بجدية، "أمامكما خياران: الأردن أو لندن. وكونكما لا تعرفان اللغة الإنكليزية، أنصحكما بالذهاب إلى الأردن وإجراء العملية هناك".

غادرا العيادة وهما في حالة قلق وخوف. "كيف بدنا نروح عالأردن؟ كيف بدنا نترك الأولاد وحدهن؟ ونحنا ما منعرف حدا بالأردن؟ ومن وين بدنا نجيب المصاري؟"

كان يوماً قاتماً، خاصة بالنسبة لأبو ناصر، الذي زار الدكتور لاحقاً وعلم منه أن أمل زوجته في الحياة بعد العملية لا يتجاوز الخمسة في المئة.

ذهب أبو ناصر إلى "السيد" في الحيّ طلباً للاستخارة. فنصحه "السيد" بالذهاب إلى الأردن و"الاتّكال على الله" قائلاً له: "إن شاء الله يا ابني كل شيء لح يكون على ما يرام... إنت بس اتّكل على الله".

لجأ أبو ناصر إلى مديره "المسيحي" في الـ MEA وأخبره عن مشكلته وضرورة السفر إلى الأردن بأسرع وقت. اتصل المدير بمكتب الشركة في الأردن طالباً حجز سرير في "مستشفى الحسين الطبّي". وقال له "أسرع، يا محمد، اذهب إلى الضمان الصحي لإجراء المعاملات الضرورية". توجه أبو ناصر إلى الضمان وقدم طلباً بالحصول على مساعدة لإجراء العملية. استغرقت المعاملات بعض الوقت وشُكلت لجنة لدراسة حالة أمّ ناصر ووضعها الصحي. وفي النهاية، حصل أبو ناصر على شيك بقيمة 27.000 ل.ل. وساعدته الشركة بتأمين بطاقتي سفر مجاناً إلى الأردن. أصبح كل شيء جاهزاً الآن.

تراجع وضع أمّ ناصر الصحي وأصبحت تعاني من أوجاع مؤلمة في الصدر. كانت تصرخ من الألم في الليل ولم يتمكن أحد من النوم في تلك الليالي الصعبة.

يوم السفر إلى الأردن، تُرك الأولاد في عهدة جدتهم وعمهم حسن. جاء كل أهل الحيّ لوداع أمّ ناصر: "مين بيعرف... قد يكون الوداع الأخير؟"، "ما سمعتِ إنو أمّ ناصر عندها أمل فقط 5%... أي

والله بس 5%!!!".

نزلت أمّ ناصر الدرج ببطء ونظرت إلى أولادها الذين تجمعوا بعفوية أمام باب البيت: غالية، ناصر، علي، عالية، وندوة الصغيرة، تحملها جدتها. شعرت أنها ستكون المرة الأخيرة التي ترى فيها أولادها. قد لا تعود إلى "الحيّ" مرّة أخرى. حرصت على السلام على الجميع، وتسامحت من الجميع. "الله يخليكم ديروا بالكم على الأولاد... اعتبروهم مثل أولادكم".

قاد سائق الأجرة سيارته نحو طريق المطار، ووقف أهل الحيّ تحت شجرة الصنوبر يلوّحون لها من بعيد. وهي لوّحت لهم حتى اختنقت بالدمع.

بعد الوصول إلى "مدينة الحسين الطبية"، أُدخلت إلى المستشفى ودفع أبو ناصر ستماية دينار أردني كمبلغ إيداع. بعد إجراء الفحوصات وصور الأشعة اللازمة ودراسة الحالة، قرر الأطباء إرجاء العملية إلى اليوم التالي. لكن شيئاً هاماً كان ناقصاً. كانوا بحاجة لأربعة وحدات دم طازج قبل العملية. ما العمل؟ فأبو ناصر لا يعرف أحداً في عمان.

بمساعدة أحد موظفي الـ MEA في عمان، توجه إلى جامع عمان. كان العديد من العمال المصريين مجتمعين أمام الجامع. "لا تقول لهم أنك تريد دم لقاء مال... هذه سوف تكون إهانة لهم" حذره الموظف. فاقترب أبو ناصر من مجموعة العمال وأخبرهم عن حاجته. "أنا بحاجة لمساعدتكم لوجه الله" قال لهم. حضر معه عدد من العمال إلى المستشفى وتبرعوا بالدم المطلوب. ثم أخذهم أبو ناصر إلى مطعم وقدّم لهم العشاء وأعطى كل عامل بعض الدنانير وشكرهم على مساعدتهم.

"اسمعي يا رقية" قال أبو ناصر لزوجته في المستشفى، "مافيي كون معك بكرا لما بيجوا لينزلوكِ عالعملية. ما فيي أتحمل. ما فيي شوفك، بينكسر قلبي".

"ولا يهمك يا محمد" قالت له. "أنا مش خايفة أبداً. منّك مضطر تكون معي لحظتها. إنت هلق تعبان وتعبت كتير. الله يعطيك العافية. روح عالأوتيل وارتاح. ما تعتل همي. إنشاء الله كل شي لح يكون منيح".

كانت تعرف زوجها جيداً... تعرف أنه لن يتحمل الوضع وأنه قويٌّ من الظاهر، وضعيف جداً من الداخل، ويتأثر بسهولة في المواقف العاطفية. فأرادت أن تخفف عنه. لقد تسببت له بالكثير من المشاكل والمتاعب حتى الآن. أحسّت بالذنب تجاهه. كان لديهما الكثير كي يقلقا بشأنه، خاصة أن الوضع الأمني في لبنان كان سيئاً، وكانا يشعران بالقلق والخوف على الأولاد.

في الأوقات الصعبة والشدائد، غالباً ما استمع أبو ناصر إلى نصيحة زوجته. عاد إلى الأوتيل للراحة. توضأ وأقام صلاته مما أراحه قليلاً. وبعد الصلاة راح يدعو الله والرسول وأهل البيت للتوفيق ونجاة أمّ ناصر بعد العملية. استمر يدعو ويدعو حتى غلبه النوم العميق.

في اليوم التالي؛ وبعد ساعات طويلة من الانتظار والترقب، جاءت ممرضة إليه لتخبره الأخبار السارة: "أبشر يا حاج، العملية نجحت. مية بالمية نجاح. المدام في غرفة النقاهة الآن". لم يصدق أبو ناصر ما سمعه وكاد يقفز من الفرح. "الحمد لله العظيم... الحمد لله العظيم" راح يردد. مغروقاً بالدموع، دموع الفرح هذه المرة.

بعد عشرون يوماً من المراقبة والمعالجة، أصبحت أمّ ناصر جاهزة للعودة. هي الآن تعيش بأنبوب بلاستيكي في قلبها، لكنها بدت في صحة جيدة. كان أبو ناصر فرحاً لرؤية زوجته وعلى وجهها ابتسامة الرضى التي تعوّد عليها. نجاح العملية كان إنجازاً ضخماً بالنسبة لهما؛ حلماً تحقق وكابوساً انتهى. عادا على متن طائرة MEA إلى بيروت. وفي المطار رفضت أمّ ناصر أن يساعدها أحد في النزول من درج الطائرة. أصرت على المشي لوحدها.

لدى وصول سيارة الأجرة إلى الحيّ في ذلك اليوم، ركض أولاد الحيّ في الأزقة يصرخون: "رجعت أمّ ناصر... رجعت أمّ ناصر". خرج الناس من بيوتهم لملاقاتها. "الحمد لله على السلامة... الحمد لله على السلامة". الكل جاء للسلاَمّ عليها. لم تصدق أمّ ناصر يومها أنها عادت سالمة إلى الحي، وبكت عندما هجم عليها أولادها وهم يعانقونها ويقبلونها. حتى أمها لم تعرفها: "هيدي إنتِ يا رقية... ولك ليش تغيرتي هالقد!!!". الكل كان فرحاً، والكل تأثر لعودة أمّ ناصر ما عدا رجل واحد: أبو كامل.

الحقد وقساوة القلب كانا صفتين لازمتين لأبو كامل. حقده جاء من عدم تحمّله لفكرة أنّ أمّ ناصر باتت تملك الحصة الأكبر من الأرض في الحي، مما انعكس سلباً على علاقته بزوجته، شقيقة أمّ ناصر. أصبحت علاقته بزوجته تتسم بالتوتر والفتور، على الرغم من أنها قد أنجبت له دزينة أولاد، وأنها كانت تمتلك الأرض التي عمّر عليها منزلهما الزوجي! لكن أبو كامل نسي، أو تناسى ذلك الفضل، وراح يعاملها كخادمة، ويتهمها علناً وسراً بأنها قد أضاعت عليه فرصة ذهبية. "رقية أذكى منّك.... احتالت على عمتها وبلعت الحصة الأكبر"، كان يكرّر على مسامعها.

قساوة أبو كامل أتت من شظف عيشه، وفقره، ومهنته الصعبة والمرهقة. فهو كان يعمل في البناء وتخصص في مهنة "التوريق". أمضى معظم حياته وشبابه ينقل الحجارة والحديد وأكياس الترابة إلى الطوابق العليا. كان عمله مرهقاً ومردوده قليلاً. غالباً ما كان يذهب إلى الورشة في بيروت مع شروق الشمس سيراً على الأقدام ويعود إلى الحيّ مع مغيبها. ونادراً ما كان مدخوله يكفي لإطعام أولاده وتسديد أقساطهم المدرسية.

اشتهر أبو كامل بتعصبه الديني والمذهبي، مع أنه لم يقف يوماً على سجادة الصلاة، ولم يصم، ولم يشارك في مجالس العزاء في عاشوراء. لكنه كان متعصباً، وجاء تعصبه وتطرفه من جهله لمبادئ الدين وأصوله. مرّة قال لغالية بنت أبو ناصر، وهي كانت على وشك الارتباط بشاب من بيروت: "إذا تزوجت سنّي، لح يطوف قبر أهلك بالدم لأربعين يوم!!!"

كان أبو كامل يحمل في ذاكرته تجارب مرّة وصعبة عاشها في بيروت عندما كان يعمل في ورش البناء ويسمع "التلطيشات والشتائم" عن أبناء مذهبه. وكم من مرّة تعرض للاستغلال والغش من أصحاب ورش البناء، وكم مرّة "أكلوا عليه حقه"، وكان يعود إلى الحيّ محبطاً ومسحوقاً. "يا عمي بيروت مش لإلنا... مش لإلنا" كان يردد.

على الرغم من ذلك، كان لأبو كامل جانب "رومنطيقي" في شخصيته القاسية. فهو لُقب بـــ"روميو" حيّ المطلّقات. "وجولياته" كانت منيرة التي سكنت في بناية الدقماق المقابلة لبيته. أصبح أبو كامل ومنيرة اسمان مشهوران في الحي. فحيثما كانت منيرة تذهب، كان أبو كامل مثل ظلها. إذا خرجت إلى الفرن لخبز المناقيش، يترك أبو كامل كل شيء ويتبعها. إذا خرجت إلى دكان اللحام، يختلق الأعذار، يدعي حاجته إلى اللحم، ويمشي خلفها. تحول إلى مهووس بها. كان يمضي ساعات طويلة على الصوفة أمام منزله وهو يحدّق ببناية الدقماق حيث شباك منيرة، منتظراً بترقّب أن تظهر. أصبح كالصياد الذي يمضي وقتاً طويلاً يطارد عصفوراً جريحاً. حتى أنه راح يتحدث في الحيّ عن علاقته معها، وهي المتزوجة ولديها أولاد. لم يتأكد أحد من القصة. هل

كانت علاقته بها حقيقية أم من نسج خياله وحرمانه الجنسي بسبب معاناة زوجته من مشاكل في القلب، وعدم مقدرتها على تلبية حاجاته وطلباته. "يا عمي تبعو كبير، هلقد!! وأنا ماعش فيي أتحمل!" وكانت أم كامل تشير إلى يدها تقديراً أمام جمهور نسوة الحيّ في الصبحيات على فنجان القهوة، فيصبن جميعاً بنوبة ضحك تطول، ويتعاطفن مع أبو كامل "المحروم".

بناية الدقماق كانت مصدر شرّ وقلق بالنسبة لأبو كامل. "البناية مسكونة"، كان يردد أمام أهل الحي، "والله البناية مسكونة بالأشباح والأرواح الشريرة". كثرت الأقاويل حول بناية الدقماق لدرجة أن أولاد الحيّ كانوا يخافون المرور من أمامها عند حلول الظلام!

بنى البناية الحاج الدقماق بعد أن تزوج من فتاة من برج البراجنة واستقر في الحي، قادماً من بيروت. فالأرض والعمار في المنطقة كانا أرخص من بيروت، واليد العاملة متوفرة بكثرة. كما أن المنطقة كان لها مستقبل واعد لقربها من المطار.

كان الحاج الدقماق رجلاً مؤمناً ورعاً ومتعمقاً في القرآن والحديث. بدأ نشاطه في الحيّ بإعطائه دروساً في الدين للقاطنين، ثم تحول إلى "معالجة" الناس بوسائل روحية غامضة، كان الحاج "يكبّس" ويرقي ويقرأ الآيات على المرضى النفسيين. اكتسب صيته بين أهل الحيّ لمقدراته الروحية والغامضة. لذلك كان أبو كامل يقول دائماً إن بناية الدقماق مسكونة. "والله يا عمي، لما بلّشوا بالعمار، ما كان الحجر يركب على الحجر... حتى إجا شيخ وعمل كتبية لحتى قدروا يعمروا".

اكتسبت نظرية أبو كامل عن بناية الدقماق مصداقية عندما أقدم شابّ يدعى عثمان (وهو من أقارب الحاج الدقماق) على الانتحار وقتل خطيبته بمسدس حربي في البناية. كان يوماً حافلاً في الحي: حضر الدرك وحاصر البناية "المشؤومة" وتمركز العناصر على سطوح المنازل. خرج الرجال والنساء والأولاد لمشاهدة الحدث الاستثنائي والخطير. جريمة قتل وانتحار في الحيّ لأول مرة. كانت المرة الأولى التي يشهد فيها الحيّ موت شابّ وصبية في الحي. وعندما رأى الناس الجثتين تخرجان من البناية محملة ومغطاة بشراشف بيضاء ملطخة بالدماء، قال الناس: "معو حق أبو كامل، البناية مسكونة!!!".

شاطر أبو كامل. "شاطر بكل شي"، "بيعرف يدبّر حالو... والله أبو كامل بيجيب الكهربا من آخر الدني". واشتهر بشطارته في مهنة "التوريق". معلم في "الورقة". كانوا يسألون عنه من كافة المناطق في الضاحية. أليس هو الذي "ورّق" كل المنازل في الحي، ووصلت إنجازاته إلى بيروت. وهو غالباً ما كان يتبجح "لتوريقه" بنايات فخمة عديدة في المدينة.

عندما قرّر أبو ناصر وأمّ ناصر بناء منزل جديد لابنتهما غالية ملاصقاً لمنزل أمّ علي بهية، فقد أبو كامل أعصابه. كان قد ابتلع فكرة أنها قاما منذ فترة ببناء منزل من طابقين لولديهما، ناصر وعلي، على بعد أمتار قليلة من منزله. وهكذا، في كل مرة، كان العمال يأتون للمباشرة في البناء، كان أبو كامل يختلق مشكلة ويخرّب ما بناه العمال. لم يتحمل فكرة أن عدويه اللدودين في الحيّ كانا على وشك بناء منزل جديد مباشرة مقابل منزله. كان الأمر شاقاً عليه: أن يجلس كل يوم على

الصوفة ليرى أمامه مباشرة المنزل الجديد وخلفه بناية الدقماق؟ "يا له من مشهد لا يُحتمل!".

"خلّينا نقول لأبو كامل يورّق لنا بيت غالية"، قالت أمّ ناصر لزوجها. "أول الشي، هوي ما عمبيشتغل بهالأيام. تاني شي منكسبو إلى جانبنا ومنكفي شرو". كانت أمّ ناصر دائماً تفضل الحلول الدبلوماسية، وغالباً ما ساعدت زوجها على تجنّب المشاكل مع "العديل اللدود".

وافق أبو ناصر بعدد تردد شديد، على الرغم من حذره من عديله، وقبل أبو كامل العرض. بعد الانتهاء من توريق المنزل، طلب أبو كامل مبلغاً أكثر، معللاً طلبه بأنه أخطأ بحسابات القياس. وعندما جاءت غالية إلى منزله لإعطائه المبلغ ناقصاً، رمى أبو كامل المال على الأرض صارخاً: "أنا مش عم أشحذ منك". لاحقاً، أُعطي أبو كامل المبلغ كاملاً لتجنب المزيد من وجع الرأس.

الحقيقة أن عدة محاولات وأفكار خلاّقة خطرت على بال أمّ ناصر، للتخفيف من حدة الخلاف بينهم وبين عائلة أبو كامل. "ليش يا محمد ما منخطّب سناء بنت أبو كامل لإبننا ناصر" قالت مرّة لزوجها. بعد عدة محاولات ومداولات، تمت الخطوبة بين أبناء الخالات. اعتقدت أمّ ناصر أنها قضت على الحقد والخلاف المستعصي بين العائلتين، وقال الناس في الحيّ إن المشكل القديم بين أبو ناصر وأبو كامل أصبح من الماضي. لكن الخطوبة لم تعمر طويلاً بعد أن شعر ناصر "أن سناء مثل أخته". أوَليست هي التي تربّت وعاشت في منزلهم. أكلت من طعامهم ونامت على فراشهم. انتهت الخطوبة وفشلت جهود أمّ ناصر السلمية.

لم ولن ينسى أبو كامل قصة الميراث من العمة وهي على فراش الموت. بقي مهووساً بأنه قد تعرض للغش والغبن والظلم.

كل يوم كان يجلس على الصوفة العتيقة أمام داره، يحدّق في بناية الدقماق، منتظراً منيرة أن تطل من الشباك الصغير المقفل بالأسلاك الحديدية. تطلّ ولا تطلّ.

مع مرور الزمن، استولى أبو كامل على قطعة الأرض المحيطة بداره وحوّلها إلى جنينة. زرع فيها كل أنواع الزهور والورود والياسمين. كان ذواقاً للجمال والطبيعة، ولاحقاً سيّجها بالأسلاك الحديدية، بعد أن راح أولاد الحيّ المشاغبون يفسدون أزهاره وأشتاله. لم يكن يطيق الأولاد، خاصة أحفاد أبو ناصر. وبقي صوته وصراخه وشتائمه تُلعلع في الحيّ كلما اقترب ولد مشاغب من سياج حديقته الجميلة.

أبو ناصر كان أول من اشترى تلفزيوناً ملوّناً في الحي، ممّا شكّل له انتصاراً عظيماً وإنجازاً سوف يمكّنه من المشاوفة على أهل الحيّ لفترة لا بأس بها. وكل ليلة، كان معظم سكّان الحيّ – خاصة الصغار – يتجمعون في منزله في غرفة الجلوس الضيقة، لمشاهدة أول تلفزيون ملون في الحيّ وربّما في الجوار. كانوا يجلسون، أغلبهم على الأرض، صامتين، مدهوشين، أمام الشاشة الصغيرة الملونة، يتابعون الأفلام المصرية والمسلسلات المحلية بفرحٍ ودهشة.

كان أبو ناصر فخوراً أن منزله أصبح محجّةً لأهل الحيّ كل مساء. وأمّ ناصر بدورها أصبحت مهووسة بالجهاز الجديد، كانت تتابع الأفلام العربية باهتمام شديد وتشاهد الفيلم مرّة، ومرّات. لم تكن تشعر بالملل من مشاهدة تلك الأفلام على الإطلاق، بل، حفظت أحداثها مع الوقت، وكان بإمكانها توقّع الأحداث قبل وقوعها. "شوف، يا محمد، هلّق بدو يبوسها... شوف هلّق بدو يقلّها كذا... شوف لح يقوّص..." كانت تقول لزوجها عند جلوسهما معاً أمام الشاشة بعد نوم الأولاد، في محاولة منها لجرّه إلى عالمها واهتماماتها. أوليست الحياة الزوجية مشاركة بين الزوج والزوجة في السراء والضراء! كانت أمّ ناصر

تعيش تفاصيل هذه الأفلام العربية، وتشارك جاراتها في الجلسات الصباحية حول موضوعاتها وصراعاتها وحتى المشاكل الزوجية بين البطل والبطلة. "شفتي... السايب طلّقها بالثلاثة... الحمد لله نحنا عنا ما في متل هالشي... الطلاق بالمحكمة".

أوجدت أمّ ناصر، من خلال مشاهدتها لهذه الأفلام، عالمها الخاص، بل هروبها الخاص من مشاكل الحياة وشجونها. كانت تنسى كل شيء، حتى أولادها وضجيجهم حولها، وتذهب بعيداً في أحداث الفيلم وتفاصيله. كانت معجبة بفريد شوقي، لرجولته وقوته ومواقفه البطولية أمام الأشرار. كما أنها كانت معجبة بمحمود ياسين وحسين فهمي وميرفت أمين وفاتن حمامة. كانت تحفظ عن ظهر قلب أسماء الممثّلين والممثلات المصريات. وكم كانت، وهي المعروفة في "حيّ المطلّقات" بالمرأة الحكيمة والواعية، تجترح الحلول والمخارج لمشاكل نساء الحيّ من خلال متابعتها لتلك الأفلام ومشاكلها. ثقافتها الخاصة وخبرتها جاءتا من تلك الأفلام، حتى أنها تمكنت من توريط أبو ناصر، زوجها، بالاهتمام بمتابعة تلك الأفلام عندما كان يعود من عمله متعباً. وكم كانت تسعد حين تشرح له بعض المواقف والخلفيات، بل وتشعر بالانتصار والتفوق عليه في هذا المجال.

في إحدى السهرات، تجمّعت عائلة أبو ناصر في غرفة الجلوس لمتابعة نشرة الأخبار التي كان أبو ناصر "يفرضها" على عائلته كل مساء، فجأة، ظهرت صورة السيد موسى الصدر على الشاشة الملونة، مبتسماً ابتسامته المعهودة.

"الله يحميك"، قالها أبو ناصر بنبرة تحمل عاطفة جياشة.

وراح المذيع يقرأ الخبر العاجل:

"اختفى الإمام موسى الصدر... والسلطات اللبنانية لا تعرف مكان وجوده حتى الآن!". ساد الصمت في الغرفة الضيقة، ووقعت الصدمة على الجميع.

هل هذا ممكن؟

في الوعي الإسلامي الشيعي، يشكل اختفاء قائد أو إمام صدمة كبيرة، ويكتسب أهمية دينية بالغة. خاصة أن الشيعة لا يزالون يحملون في ذاكرتهم الجماعية سلسلة من المظالم والقهر يتم توارث ذكراها عبر الأجيال. والأئمة عند المسلمين الشيعة – الذين يتمتعون بمكانة خاصة ومقدسة – قد تعرضوا عبر التاريخ للظلم والقتل من قبل السلطات الحاكمة. والإمام المهدي المنتظر، الذي يتوقع الشيعة ظهوره يوماً ما، قد اختفى بدوره. لذلك شكل اختفاء الإمام موسى الصدر صدمة كبيرة.

في 25 آب، عام 1978، سافر الإمام الصدر إلى الجمهورية الليبية يرافقه الشيخ محمد يعقوب والصحافي عباس بدر الدين (صاحب وكالة أخبار لبنان). نزل الجميع في فندق الشاطئ في طرابلس الغرب. منذ وصوله لم يجرِ الإمام أيّ اتصال ببيروت، على عكس عادته خلال أسفاره. وبدورها قامت وسائل الإعلام الليبية بالتعتيم على زيارة الإمام. لم يُسمع عنهم أي خبر في بيروت. فقام المجلس الإسلامي الشيعي بالاتصال بالقائم بالأعمال الليبي، طالباً معلومات عن الإمام المختفي، لكنّ القائم بالأعمال لم يقدم جواباً لمدة أربعة أيام. ثم اتصل رئيس الوزراء سليم الحص بالقائم بالأعمال الذي أجابه في اليوم التالي بأن الإمام الصدر ومرافقيه قد غادروا ليبيا في 31 آب إلى روما، على متن

طائرة تابعة للخطوط الإيطالية، ورقم الرحلة 881.

نُشر خبر اختفاء الإمام موسى الصدر ومرافقيه في الصحف اللبنانية في 12 أيلول، وتناقلته وسائل الإعلام المرئية والمسموعة.

عندما جاء الإمام الصدر إلى لبنان، وجد أن المسلمين، خاصة الشيعة، في الجنوب والبقاع والضاحية الجنوبية، يعيشون في ظروف وأوضاع مزرية ومأساوية. كانوا محرومين من التعبير عن أنفسهم بحرّية، والتحدث علناً عن حرمانهم. وفوق ذلك كله، أدارت لهم الدولة "الأذن الطرشاء" إزاء معاناتهم. راح الإمام يجول على القرى والبلدات في جبل عامل وبعلبك والهرمل، حث الناس على نبذ الطائفية والفساد والظلم الاجتماعي. كما أقام احتفالاً خطابياً حاشداً في مدينة بعلبك في 4 نيسان 1974 حيث تجمع الآلاف من المسلمين الشيعة من كافة المناطق وأقسموا أن لا يبقى محروم واحد في لبنان. وفي 6 تموز 1975، أعلن الإمام موسى الصدر رسمياً إنشاء حركة أمل (أفواج المقاومة اللبنانية)، حركة المحرومين. وفي 27 حزيران 1975، قام الإمام الصدر بالإضراب عن الطعام لعدة أيام في مسجد الصفا في بيروت للتعبير عن اعتراضه على الحرب الأهلية.

أطلق الإمام الصدر عدّة شعارات لاقت صداها في الأوساط الإسلامية الشيعية: "السلاح زينة الرجال... إسرائيل شر مطلق والتعامل معها حرام". تلقّف الناس هذه الشعارات وحفظوها في قلوبهم.

أحب اللبنانيون، خاصة المسلمين الشيعة، الإمام موسى الصدر. ووجدوا فيه مخلّصاً وقائداً صادقاً رواعداً. كانوا يصدّقون كل كلمة يقولها، وكانت كلماته تذهب مباشرة إلى قلوبهم وعقولهم.

كان أبو ناصر واحداً من هؤلاء، وكان لاختفاء الإمام الصدر وقع الصاعقة عليه. "راح الإمام... راح الإمام" كان يردّد باكياً أمام أولاده. كان يحبّه بكل صدق، وعلّق صورته الكبيرة على حائط غرفة الجلوس وهو الذي لم يعلق صورة زعيم أو نائب في بيته يوماً. بدايةً، كان أبو ناصر يعشق الزعيم العربي عبد الناصر لدرجة أنه سمى ابنه البكر، ناصر، على اسمه. وفي أحد الأيام، في زمن الموجة الناصرية في الستينات، علّق صورة لعبد الناصر في بيته. وعند وفاته بكى بكاءً مريراً وشارك في الجنازة الرمزية التي نظمها شباب وأهالي برج البراجنة تشييعاً للزعيم الكبير. مشى يومها حافياً في شوارع البرج وشارك في حمل النعش. كان يرى في عبد الناصر مخلّصاً لكل المحرومين والمظلومين في هذا العالم. وبعد وفاة عبد الناصر، وظهور الإمام، تعلّق به لدرجة أنه أنزل صورة عبد الناصر ووضع مكانها صورة الإمام الصدر. كان يحب أن يتأمل صورته مبتسماً، بعمامته السوداء التي تدل على نسبه الطاهر الذي يعود بجذوره إلى أسرة الرسول. وهذا كان يعني الكثير بالنسبة له. ألم يكن هو أيضاً من السيّاد.

أصبح الإمام أمله الوحيد بحياة أجمل، ومستقبل أفضل له ولعائلته. كان مؤمناً بكل كلمة في خطابات الإمام، على عكس النواب الفاسدين، والزعماء المخادعين. "الإمام صادق وآدمي"، كان أبو ناصر يردد باستمرار.

كما حال معظم سكّان الحيّ والمنطقة، انضم دون تردّد إلى "الحركة". صار يحضر الاجتماعات الحزبية ويدفع جزءاً من مدخوله

لدعم "الحركة" الصاعدة.

في أحد الأيام، أحضر بندقية كلاشينكوف إلى المنزل. ألم يقل الإمام: "السلاح زينة الرجال". خاصة أن الوضع الأمني أصبح متردّياً ولا بد من حماية البيت والعائلة. وفي إحدى السهرات، كان يحاول تفكيك بندقيته والأولاد من حوله، فانطلقت رصاصة خطأً وأصابت السقف. طار عقل أمّ ناصر وأصيبت بالرعب والخوف. "هيدا السلاح مش إلك يا محمد" قالت له بصرامة. أصرت يومها عليه أن يعيد السلاح إلى "الحركة" خوفاً على أولادها وعلى نفسها. سمع أبو ناصر الكلمة يومها، وأعاد السلاح دون تردّد.

اختفاءان كان لهما الأثر العميق في نفس أبو ناصر: اختفاء الإمام موسى الصدر، واختفاء أخيه الوحيد، حسن الملقّب "أبو عباس".

خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982، نقل أبو ناصر وأخوه أبو عباس عائلتيهما إلى بلدة الدوير الجنوبية حيث سكنت العائلتان في المدرسة الرسمية في البلدة. كانا يعودان إلى عملهما في الضاحية الجنوبية ثم يقومان بمخاطرة زيارة عائلتيهما في الدوير من وقت إلى آخر، عندما كانت الأوضاع الأمنية تسمح بذلك. فالطريق كانت تعجّ بالحواجز العسكرية التابعة للجيش الإسرائيلي الغازي.

في عيد الفطر كانت المرة الأخيرة التي التقى فيها الأخوان. لم يعد أبو ناصر يسمع أيّ خبر عن أخيه. لقد اختفى الرجل بكل بساطة. ولم يتم العثور على جثته أو أي أثر له. بعض الأشخاص قالوا لأبو ناصر إن شخصاً يدعى حسن أصيب بشظايا قذيفة، فجرت معالجته في المستشفى وغادر في اليوم نفسه، ولا شيء غير ذلك.

أمضى أبو ناصر أياماً وشهوراً خلال الاحتلال الإسرائيلي يبحث عن أخيه حسن، لكن من دون نتيجة. بحث وسأل عنه في كافة المستشفيات في الضاحية وبيروت. سأل عنه في معظم مخافر الدرك. حتى أنه راح يجول في المقابر. يقرأ الشواهد، علّه يعثر على اسم أخيه على أحد شواهد القبور. كل جهوده باءت بالفشل. اختفى أبو عباس ولم يعد له أثر!

هل مات الرجل؟ هل خُطف وتمّت تصفيته؟ لكن أين الجثة؟ لا أحد يعلم. ولم يتمكن أبو ناصر أن يجد جواباً لتلك الأسئلة. كل ما عرفه أنّ أخاه الوحيد قد اختفى وأنه تحوّل إلى مجرّد ذكرى، مجرّد سراب في عقله وحرقه في قلبه.

حاولت أمّ ناصر التخفيف عن ثقل التجربة على زوجها. "ليك يا محمد... إنت عملت كل شي فيك تعملوا"، كانت تقول له، "إن الله مع الصابرين. وبالنهاية، إن شاء الله، أبو عباس لح يظهر. ما تنسى إنو عندك ولاد وإنت مسؤول عنهم كمان".

كانت تتحسّس أوجاع زوجها. لكن في الوقت نفسه كانت عائلتها تأتي في المقام الأول. وأكثر ما كان يقلقها، موجات الحماسة الفائقة التي كانت تصيب أبو ناصر من وقت إلى آخر. تلك الحماسة التي كادت تدفعه إلى جلب عائلة أخيه للعيش معهم تحت سقف واحد، وإصراره على أنه مسؤول أيضاً عن أولاد أخيه وعن مصاريفهم وحاجاتهم. خوف أمّ ناصر كان في محلّه. فتلك النخوة والطيبة البعلبكية كانت تدفع به لعرض الأمر عليها. "امرأة ثانية في البيت. ليست امرأة عادية، بل أرملة، ومعها أكثر من 6 أولاد". كان عليها أن تستعين بدورها كزوجة،

مع قليل من الذكاء والمكر، كي تقنع زوجها بأن المنزل لا يمكن أن يتّسع لعائلتين كبيرتين معاً!

مع مرور الأيّام، تحوّل اختفاء أبو عباس إلى مجرد ذكرى أليمة ومرّة. من وقت إلى آخر، كان أبو ناصر يتذكر أخاه، حسن، الذي كان يقف إلى جانبه في الأوقات الصعبة. "حسن الشجاع، حسن الكريم، وحسن صاحب القلب الطيب" الذي طالما دافع عنه وحماه من ضربات أبيه الظالمة. وعندما كان يرى أحد أبناء أخيه حسن، كانت الدموع تملأ خدّيه، فأخذ عهداً على نفسه أمام الله أن يساعد أولاد أخيه الأيتام قدر ما تسمح له حالته المادية بذلك. وعندما عزم أحد أبناء أخيه على الزواج، تطوّع أبو ناصر للذهاب معه إلى منزل أهل العروس وطلب يدها، كما لو أنه كان أباه فعلاً. أحب ذلك الدور وشعر أنه بوقوفه إلى جانب ابن أخيه كان يردّ أحد ديونه الكثيرة لأخيه المختفي. "الدنيا دين ووفا". وعندما أراد العريس الانتقال إلى البيت الزوجي، قدّم له غرفة نوم كاملة كهدية زواج، فشعر براحة كبيرة. فهو كان يحمل إحساساً داخلياً بالذنب تجاه أولاد أخيه؛ إحساساً حمله معه سرّاً لسنين طويلة ولم يستطع أن يكاشف أمّ ناصر به. فصمت شريكة عمره كان يفهمه جيداً. هو صمت مصحوب بعدم الرضى وعدم التشجيع على الذهاب بعيداً في عواطفه الجيّاشة. وهو أمر كان يزعجه.

"يا عمّي الإنسان لما بيرتاح بيقول: "خيّ" كان يردد أمام أولاده عندما أصبحوا قادرين على فهم ما يقوله. "صرت إنسان يتيم من بعدك يا أبو عباس. صارت الدنيي موحشة وقاسية".

في عاشوراء، كان يتذكّر أخاه "المفقود". كان يبكي كثيراً عند سماعه قصّة شقيق الإمام الحسين، العبّاس، الذي استشهد وهو يحاول جلب الماء لأخيه وأفراد عائلته العطشى. كانت لحظة مؤثرة. وأبو ناصر كان يبكي في الوقت نفسه أخاه أبو عباس الذي لم يتركه يوماً، تماماً، كما فعل العباس في وقفته البطولية إلى جانب أخيه الإمام الحسين. لذلك، بقيت ذكرى أبو عبّاس حرقة في قلبه. ذكرى تستعيد زخمها وحرارتها كل عام في عاشوراء.

كبرت العائلة وضاق المنزل الصغير على ساكنيه. سبعة أشخاص في منزل مكوّن من غرفتين فقط، الأمر لم يعد يطاق، "والأولاد عم يكبروا". وبالكثير من الصبر والعمل الشاقّ تمكّن أبو ناصر من بناء منزل آخر فوق المنزل القديم. المنزل الجديد ضمّ مطبخاً وحماماً وغرفة نوم خاصة. وكان أبو ناصر قد تمكن من توفير المزيد من المال الضروري للبناء، من خلال عمله كسائق أجرة في أوقات فراغه. اشترى لوحة حمراء ووضعها على سيّارته وراح ينقل الركاب من ساحة عين السكة في برج البراجنة إلى المطار. وعندما تكون غلّته "محرزة"، كان يشتري المزيد من الحجارة والترابة والبحص للمنزل الجديد. وكان يشعر بالنصر، وينتابه الفخر بالإنجاز عندما كان يتأمل أكوام التراب الأحمر والبحص تتكوم أمام مدخل منزله. يا له من منظر جميل وواعد.

لمّا انتهى المنزل الجديد العلوي. فرحت العائلة به وبالجلوس على الشرفة المواجهة تماماً لشرفة منزل البرجاوي الحلونجي. هم الآن على مستوى واحد مع البرجاوي، ولديهم شرفتهم الخاصّة، يجلسون عليها مع غياب الشمس، يشربون الشاي، يضعون الأكواب على الحافّة،

ويراقبون الداخل والخارج من الحيّ وإليه. موقع إستراتيجي جديد، وأبو ناصر دائماً يترأس الجلسة، سعيداً بالجمعة العائلية على الشرفة الجديدة، وأمّ ناصر قربه تقرأ أفكاره بسهولة. وهي سهولة أتت من العشرة والتجربة مع إنسان لم يخذلها يوماً. المنزل الأرضي أصبح شاغراً الآن. رأى الزوجان ضرورة تأجيره لعائلة محترمة لا تجلب وجع الرأس، وبذلك يكسبان المزيد من المال لسدّ حاجات العائلة المتزايدة.

أجر المنزل لعائلة من الجنوب، وكان الأب يعمل في المطار أيضاً. وعُقدت الاتفاقية شفوياً بين أبو ناصر وأبو عبد – المستأجر الجديد. واتفق الجانبان على أن يدفع المستأجر مبلغ 400 ليرة لبنانية لا غير كإيجار شهري.

عُقد الاتفاق من دون أوراق رسمية، ودخل الحيّ سكّان جدد كمستأجرين، وعرفت العائلة باسم عائلة أمّ عبد. والمستأجر في "حيّ المطلّقات يُنظر له بفوقية كونه لا يملك منزله وكون معظم سكّان الحيّ هم من طبقة المالكين.

مع الأيام وانهيار قيمة الليرة اللبنانية، أصبح إيجار 400 ليرة شهرياً من دون قيمة، وبالكاد كان يشتري علبة سجائر. طالب أبو ناصر برفع قيمة الإيجار، لكنّ عائلة أمّ عبد رفضت بقوة. حاول أبو ناصر شتّى الوسائل للوصول إلى حلّ ما مع المستأجر العنيد دون جدوى. خاصة أن عقد الإيجار قد جرى شفوياً ومن دون أوراق رسمية عند كاتب عدل. لم يكن القانون إلى جانب أبو ناصر هذه المرة.

"لازم تفضّي البيت" قال أبو ناصر لأبو عبد في أحد الأيام.

"ليش" سأله أبو عبد، "ليش بدك ياني فضّي البيت؟"

"بدّي جوز ابني ناصر وإفرح منّو" قال أبو ناصر، "بدّي البيت".

"وين بدّك ياني روح يا روحي" قال أبو عبد، "لوين بدي آخذ الأولاد؟".

اعتقد أبو ناصر أن حجّة تزويج ابنه ناصر سوف تنجح. لكن من دون جدوى. فالقانون كان أخرس في زمن الحرب، والدولة غائبة عن السمع. وحتى لو نفعت الحجة – وهي شرعية لصاحب الملك – لكن أين الأوراق الرسمية التي سوف تثبت شرعية المستأجر وشرعية المالك. كل ما كان يملكه أبو ناصر هو حجّة الأرض التي ورثتها أمّ ناصر عن عمّتها. أما المنزل فكان من دون أوراق وغير مسجل في الدوائر العقارية. وهذا ما عقّد الأمور أكثر وجعل إخلاء المنزل من المستأجر أمراً شبه مستحيل.

بقيت عائلة أمّ عبد في المنزل الأرضي لمدة 11 سنة لم يستطع أبو ناصر أن يفعل معهم شيئاً. خلال 11 سنة كاملة كان عليه أن يتحمّل رؤية أناس آخرين يحتلّون منزله الخاص – ذلك المنزل العزيز على قلبه والذي شهد زواجه من رقية لسنوات خلت. ذلك المنزل الذي بناه بتعبه وعرقه والذي أعطاه سنوات من عمره ودمه. والآن يعيش فيه ناس غرباء ضدّ إرادته، ولم يدفعوا حتى الإيجار المتوجّب عليهم. كان أمراً صعباً ومنغّصاً لحياته.

تحول ذلك الخلاف المزمن بين عائلة أبو ناصر وعائلة أمّ عبد إلى مسألة عامة في "الحيّ". البعض وقف إلى جانب أبو ناصر، والبعض الآخر وقف مع أمّ عبد. وكان الوضع بين العائلتين يتحوّل إلى حالة عالية من التوتّر عند وقوع المشاكل بين أولادهما. ثم ينقل الإشكال إلى كبار العائلتين بسهولة وعندها تصبح المسألة أكبر وأخطر. مرّة اختلفت إحدى بنات أمّ عبد مع غالية، بنت أمّ ناصر. هجموا عليها وأشبعوها ضرباً، وركضت إلى أمّها باكية. كبر المشكل، وعلا الصراخ في الحيّ بين أمّ ناصر وأمّ عبد، وتبادلتا السباب والكلام الكبير. غالية بدورها لم تنس الأمر. انتظرت بضعة أيام، وأخذت بثأرها. قامت بمهاجمة إحدى بنات أمّ عبد قرب شجرة الصنوبر وأشبعتها ضرباً، وشفت غليلها، واستعادت مكانتها بين أولاد الحي.

وما زاد الطين بلّة، أن عائلة أمّ عبد كانت "جنوبية" وعائلة أمّ ناصر "بعلبكية" مطعّمة من برج البراجنة. والعداوة قديمة بين أهل الجنوب وأهل بعلبك في الحي. عداوة مناطقية، بين أهل "الفراكة" وأهل "الكشك". كان أهل بعلبك يقولون عن أهل الجنوب "إن دكّتهم مرخية"؛ وأهل الجنوب يقولون عن أهل بعلبك "تيوس ومشكلجية". أضف إلى ذلك أن سكّان برج البراجنة الأصليين كانوا يعتبرون أن القادمين الجدد – خاصّة أهل بعلبك – قد "خرّبوا" المنطقة وأساؤوا إليها. الجميع أتوا من مناطق مختلفة، وجلبوا معهم عاداتهم وتقاليدهم المختلفة حتى بدت الضاحية عموماً، و"الحيّ" خصوصاً، وكأنه مختبر اجتماعي.

أبو كامل بدوره كان سعيداً لهذا الخلاف الطارئ، وحاول استغلاله لمصلحته إلى أبعد الحدود. وفي الأوقات العصيبة، كان يميل

إلى الجانب الأقوى، وأحياناً كان يفضّل الوقوف مع الطرف "البعلبكي" (كونه كان بعلبكياً) "والدم ما بيصير مي!"

في إحدى المناسبات حصل أمر مروع ودفع النزاع بين العائلتين إلى نقطة اللاعودة.

كانت أمّ عبد تقيم في منزلها حفلة خطوبة لإحدى بناتها. الموسيقى وأصوات المدعوّين تُلعلع في كافّة أنحاء "الحيّ". وكان منزل أمّ عبد الأرضي يعجّ بالزوّار والمدعوّين من أهل العريس والعروس. طبعاً، ما عدا عائلة أبو ناصر التي لم تكن مدعوّة في الأصل. ففي هكذا مناسبات، في "حيّ المطلّقات" تكون حفلة الخطوبة والزواج نوعاً من الانتصار العائلي، ومصدر فخر لأهل العروس خاصّة، كون الأمّ تمكنت أخيراً من تزويج إحدى بناتها "شرعاً" و"على سنّة الله ورسوله". عادة، يكون في الأمر نوع من الشماتة، خاصة بعد تراجع نسبة الزواج وبقاء الكثير من الفتيات العازبات في منزل العائلة. وصلت الرسالة يومها. فأمّ ناصر كان لا يزال لديها ثلاثة فتيات عازبات في البيت.

كما هي العادة في مثل هذه المناسبات، يُطلب من الأولاد اللعب في الخارج. تجمّع الصغار على الشرفة الخارجية أمام منزل أمّ عبد، وجلسوا جميعاً على الحافّة أمام الشرفة المطلّة على منزل أمّ علي بهية. فجأة، انهارت الحافّة، وعلا الصراخ. خرج الجميع من الحفل ليجدوا إحدى بنات أمّ عبد البالغة خمسة سنوات مضرّجة بدمائها تحت الحجارة. هرعوا بها إلى المستشفى. لكن الفتاة ما لبثت أن قد فارقت الحياة. تحولت حفلة الخطوبة إلى عزاء. واستبدلت الموسيقى الصاخبة بالآيات القرآنية، وسادت أجواء من الصدمة والوجوم في الحيّ.

في اليوم التالي، وعلى الرغم من كل شيء، قررت أمّ ناصر تقديم واجب العزاء. ارتدت الثياب السوداء وكذلك فعلت ابنتها غالية التي طالما رافقتها في الأوقات العصيبة. دخلتا المنزل المكتظ بالمعزين. وعندما شاهدتها أمّ عبد، فقدت أعصابها وراحت تصرخ: "قتلتو بنتي... قتلتو بنتي يا مجرمين. إنتو يلّي عمّرتو الحفّة، وإنتو يلّي خلّيتوها توقع... يا إخوات الشرموطة... يا عكاريت...". حاول الحضور تهدئة الأمّ المفجوعة دون نتيجة.

لم تقل أمّ ناصر أية كلمة. فقط غادرت المنزل مع ابنتها وندمت على محاولتها.

طوال 11 سنة بقيت عائلة أمّ عبد في المنزل الأرضي دون دفع الإيجار. استشار أبو ناصر العديد من المحامين لمساعدته في حلّ تلك المسألة العالقة. كان يفضّل المحامين المسيحيين. "المحامي المسيحي شاطر، وفيك توثق فيه"، كان يردد باستمرار. بداية، استشار المحامي أنطوان رشياوي، ولم يصل معه إلى نتيجة. ثم استشار المحامي ريمون فغالي وعمل له وكالة. وفي المقابل، وكلّت عائلة أمّ عبد محاميها الخاص. صرفت العائلتان الكثير من المال بدل أتعاب المحامين.

اتخذت المشكلة بين العائلتين منحىً جديداً الآن. فالمعركة أصبحت بين المحاميين وكل حسب شطارته. أصبحت المعركة الآن معركة قانون، وأحكام، والرهان كان على شطارة المحامي وخبرته.

طلب محامي أبو ناصر منه تأمين وثيقة موقّعة من كافة سكّان "الحيّ" تفيد بأنه يملك الأرض والمنزل فعلاً. "إذا بتجيب هذه الورقة يا أبو ناصر، برميلك ياهم على الطريق خلال 24 ساعة" قال له المحامي

جازماً. فرح أبو ناصر لهذه الخبرية ولاحت له في الأفق بوادر حلّ وخير وأمل جديد. لكن كيف ذلك و"الحيّ" كله مبني على عقار واحد وليس مفروزاً في الدوائر العقارية. وفرز العقار يكلّف لدى الدولة و"الناس ما معها مصاري". بذل أبو ناصر الكثير من الجهد وقرع الكثير من الأبواب. استثمر علاقاته القديمة، "وذّل نفسه" للعديد من الناس، لكن دون جدوى. نصف أهل "الحيّ" وقّع، والنصف الآخر لم يوقّع. وباءت المحاولة بالفشل.

أخيراً توصّل محاميا الطرفين إلى اتفاقية: يقوم أبو ناصر بدفع مبلغ 5000 دولار كتعويض لعائلة أمّ عبد كي تخلي المنزل. وهذا ما حصل. استدان المبلغ من صهره زكريّا، دفع المبلغ عبر المحامي، وأصبح المنزل خالياً خلال أيام.

انتهى كابوس أبو ناصر مع المُستأجر "الثقيل" بعد 11 سنة. حلف أمام أهل الحيّ بأنه لن يؤجّر المنزل مرّة أخرى. "11 سنة وأنا ناطر... الله يلعن المستأجرين... ويلعن يلّي بيعيدها!".

في تمام الساعة 6:20 صباح يوم 23 تشرين الأول 1983، استفاق سكّان "الحيّ" على صوت انفجار ضخم هزّ منازلهم وتبعه انفجار آخر بعد ثلاث دقائق. أتى صوت الانفجار الهائل من جهة محيط المطار حيث مقرّ قيادة المارينز الأميركيين. قُتل حوالى 24 مارينز أميركيين، و58 مظلياً فرنسياً، و5 مدنيين لبنانيين في الانفجارين اللذين هزّا بيروت والضاحية الجنوبية ودمّرا مقرّي المارينز قرب المطار والمظلّيين الفرنسيين في منطقة الجناح. تمكن انتحاريان من اقتحام المقرّين، وهما يقودان شاحنتين محمّلتين بالمتفجرات: الشاحنة **الأولى** كانت تحمل 1200 كيلو من الـ "TNT" **والثانية** تحمل 200 كيلو من الهيغزوجين ومواد بالستية.

استيقظت بيروت والضاحية باكراً في ذلك الصباح، في حين ارتفعت سحب الدخان والغبار في السماء. وراحت سيارات الصليب الأحمر والدفاع المدني تعمل ليلاً ونهاراً لإجلاء ونقل عشرات الجنود الذين دُفنوا أحياء وكان، صراخهم يُسمع من تحت الركام.

استيقظ أهل "الحيّ" وبرج البراجنة مذعورين في ذلك الصباح، معتقدين أن قذيفة أو صاروخاً سقط قرب منازلهم. البعض هرع إلى

الملاجئ، وركض معظم سكّان الحيّ كعادتهم إلى ملجأ البرجاوي الذي يقع مباشرة تحت محلّه. مضت 15 دقيقة والناس في حالة ذهول وكأنهم في كابوس، وعلت سحب سوداء فوق المطار ومحيطه.

أول من هرع إلى مكان الانفجار كانت شاحنات أتت باكراً إلى ساحة المطار لتحميل الخضار المستوردة ونقلها إلى السوق. راحت تلك الشاحنات تنقل الجثث والجرحى بسرعة إلى المستشفيات القريبة. في حين كان مقرّ المارينز المدمّر في حالة تامّة من الهلع والفوضى والشلل.

هرع أهل الحيّ والمحيط إلى مكان الانفجار للمشاهدة والمساعدة في إخلاء الجرحى.

تضرّرت من جراء الانفجار الضخم مكاتب شركة الـ TMA، وأُقفل المطار، وتوقّفت حركة الملاحة لساعتين بين 6:30 حتى 8:50 صباحاً. وألغت العديد من شركات الطيران رحلاتها إلى بيروت.

خلال حالة الفوضى التامة، سُمع صوت انفجارات في المنطقة. تبين لاحقاً أنها أتت من مستودع ذخيرة تابع لقوات المارينز. أسرع الجنود إلى إبعاد القذائف غير المنفجرة عن النيران المشتعلة.

كان المشهد مروعاً أمام مقرّ القيادة المدمّر. انتشرت جثث الجنود الأمريكيين القتلى على مساحة 100م^2، وكانت بقايا الجثث البشرية معلّقة على الأشجار القريبة.

راحت السفن الحربية الأميركية تقترب من الشاطئ. أمّا طائرات الهيلكوبتر فراحت تنقل الجرحى إلى السفينة الحربية، إيزنهاور. ونقلت وكالة الـ UPI عن أحد الجنود الأميركيين وكان أول الواصلين إلى

مكان الانفجار، قوله: "أول ما قلته عند وصولي، يا الله. كنت في حالة صدمة. نقلت جثتين. داخل المبنى كان الظلام الدامس والدخان. كانت الجثث في كل مكان. البعض كان يصرخ من الألم، والبعض صرخ طالباً المساعدة".

بدأت نشرات الأخبار تبثّ المعلومات عن الانفجار. وقالت المعلومات الأولية إن الشاحنة التي اقتحمت مقرّ المارينز كانت من نوع "Pickup" وقد تمكن السائق من تجاوز الحواجز الإسمنتية ووصل إلى الهدف حيث فُجرت الشاحنة بواسطة الـ remote control. قُتل السائق على الفور ولم يبق أثر من جثته، وبقيت هويته مجهولة. وقالت مصادر أمنية إن مادة الهيغزوجين قد أذابت جثة المهاجم بالكامل. وقال الخبراء إن الانفجار الضخم قد دمر مساحة 600م^2 من مقرّ قيادة المارينز والمطار.

تحوّل المبنى الذي كان يضمّ مقرّ المارينز إلى مقبرة جماعية.

بقي خبر الانفجار على ألسنة أهل "الحيّ" لعدّة أسابيع. البعض رأى في الانفجار عملاً إرهابياً، والبعض الآخر رأى أن الأميركيين استحقّوا ذلك. "ليش إجو ع بلدنا؟" كانت الناس تتساءل. "ما إلهن شغل هون... هيدي أرضنا، وهنّي لازم يروحوا ع بلادهن، ع أميركا". "يا عمي هنّي غربا ولح يضلّوا غربا... هنّي أصلن إجوا ليساعدوا الجماعة الثانيين... لازم يرجعوا ع بلادهن".

انسحبت القوات الأميركية، وتحول مقرّهم قرب المطار إلى ملعب للأولاد والفضوليين. وبدأت تظهر في الحيّ معدّات وأشياء تركها الجنود أو أعطوها للأولاد. ملابس عسكرية، أحذية، خوذات وحتى

بعض الأسلحة النادرة أصبحت متداولة في الحيّ بين السكّان، ثم تحولت إلى مادة للمتاجرة والتبادل.

شكّل الهجوم الانتحاري على مقرّ المارينز ضربة قاضية ومؤلمة للسياسة الأميركية في لبنان والشرق الأوسط. لكن من كان الفاعل؟ ومن الجهة التي أرسلته؟ من كان هذا الانتحاري الذي قدّم أغلى ما يملكه إنسان من أجل طرد الأميركيين؟ هل كان فلسطينياً من مخيم البرج؟ هل كان لبنانياً؟

بدأ الناس في "الحيّ" يتناقلون الأخبار عن ذلك الشابّ الذي قاد الشاحنة وفجّرها في مقرّ المارينز. "كان شاباً هادئاً، مهذباً، ومتديّناً من البرج... من عيلة غنية ومحترمة... واحد منا... هوّي هلّق بالجنة".

ناصر أصبح الآن شاباً متحمّساً، مليئاً بالحياة،والتوق إلى المغامرة. كان مصدر فخر لأمه، وانتقاد متواصل من قبل أبيه. "يقبرني، ناصر، شبه راغب علامة"، كانت أمّ ناصر تردّد أمام أبيه. "إذا بتدقو شوكة، ما بعرف شو بيصير فيّي". "والله إذا بتضلي هيك معو، لح تفسديه... بيكفي غنج ودلال". كان أبو ناصر يلومها على تفضيل ناصر على بقية الأولاد. وهي مكانة لم تكن تخفيها أو تنكرها.

ترك ناصر المدرسة باكراً ليعمل صبي مساعد في أحد كاراجات حدادة السيارات في البرج. العمل في هذه الكاراجات لم يكن سهلاً أو ممتعاً على الإطلاق. بل كان الجو في الكاراج يتّصف بالقسوة والظلم من قبل المعلّم – صاحب الكاراج – إزاء الشغيلة الذين كانوا يساعدونه لقاء أجور، أقلّ ما يقال فيها أنها كانت شبه رمزية. المهم أن يتعلّق "الشغّيل" الصنعة، فهذا كان أهم شيء من وجهة نظر الأهل. الفاشلون في المدرسة – وما أكثر عددهم – كانوا عادة يُرسلون للعمل من الصباح حتى المساء في هذه الكاراجات. وناصر كان واحداً من هؤلاء، بسبب فشله المزري في المدرسة والتي لم يُطِقها يوماً.

في الكاراج، يوجد ثلاثة طبقات وسط العمال: المعلّم، الصانع، والأجير. ففي كلّ كاراج معلّم واحد يملك العدة ويدير العمل. هو الوحيد المخوّل التحدّث مباشرة مع الزبائن، خاصة بالنسبة لكلفة تصليح السيارة. وعادة ما يساعد المعلّم الصانع الذي يعرف تفاصيل الشغل جيداً، وأحياناً أفضل من المعلّم نفسه. وهؤلاء عادة لا يملكون المال اللازم لشراء العدّة أو استئجار محلّ، وغالباً ما ينتقلون من كاراج إلى آخر. فهم متّهمون من قبل "المعلّمين" بأنهم قليلو الوفاء، في حين يتّهم هؤلاء "المعلّمين" بأنهم قساة في المعاملة ولا يهتمّون إلا بكسب المال. "معلّمي ما بيخليني أتنفس" يقولون. وفي الكاراج، كل عامل أو أجير يعامل حسب خبرته وعمره، ومقدرته في العمل. ومعظم الأجراء هم تحت سنّ الـــ 15 سنة، ويتقاضون مبلغ 25 ليرة في الأسبوع. وغالباً ما يصبّ المعلّمون والصنّاع غضبهم وإحباطهم على الأجزاء الصغيري السنّ، والمطلوب منهم الطاعة من دون تذمّر أو اعتراض. والأجزاء عادة لا يتم تعليمهم المهنة بشكل رسمي. فما يتعلمونه يعتمد بدرجة كبيرة على مبادرتهم الشخصية ومراقبتهم الصامتة للمعلّم ومساعديه أثناء العمل. وأفضل معاملة ممكن أن يتوقّعها أجير هي عندما يدعوه المعلّم – إذا كان في مزاج صافي – إلى مراقبته أثناء العمل. وناصر بدوره بدأ حياته المهنية في أحد هذه الكاراجات في منطقة البرج.

عانى ناصر الكثير قبل أن يصبح أفضل معلّم حدادة سيارات في منطقة البرج كلّها. صار معلّماً مشهوراً وكل الناس تقصده.

أن تصبح معلم حدادة ليس بالأمر السهل. فالأمر يتطلّب الكثير من الصبر، والجهد، والفن، وسنوات طويلة من العمر. وهذا ما كان

ناصر يعرفه جيداً "المعلّم ناصر". هو وحده كان يحمل في ذاكرته مرارة الذلّ والمعاملة السيئة من معلمه البخيل الذي لم يحاول مرّة تعليمه أصول الصنعة. لقد سرقها ناصر سرقة. كان يراقبه يعمل من بعيد، ويسترق النظرات، ويحاول على قطع الحديد وبقايا السيارات. كان جبينه يتصبّب عرقاً، ويعود إلى البيت متّسخاً ويداه أصبحتا تميلان إلى السواد والقسوة. وهي قسوة يكتسبها فقط من يعمل في مجال الحدادة. وكم من مرّة حمل ناصر العدّة الثقيلة، ومشى سيراً على الأقدام لمسافات طويلة حيث السيارة المقطوعة. كان يعمل من الثامنة صباحاً حتى السابعة مساءً، يتخلّلها ساعة للغداء. وكم من مرّة حرمه معلمه من تناول الغداء عندما يكون الكاراج يعج بالسيارات المعطوبة والمكسورة. تحمّل الكثير من الشتائم، والكثير من الفظاظة، قبل أن يصبح معلّماً معترفاً به.

أخيراً تمكّن من شراء عدّته الخاصة، وراح يصلح السيارات قرب منزل ذويه، ثم استأجر محلّه الخاص قرب عين السكة، ورويداً "مشي شغله" حتى راح ينافس معلّمه السابق.

كون ناصر كان ابنه البكر، وجد فيه أبو ناصر مستقبلاً زاهراً وأعدّ له الكثير من الخطط المسبقة. راح أبو ناصر يصرف كل مدخوله على بناء المنازل لولديه كي لا يعانيا كما عانى هو عندما عزم على الزواج. أحب أبو ناصر أن يبعد عن أولاده الكأس المرّة التي شربها. حلم أن يهيئ كل شيء لولديه كي تكون لهما حياة أسهل وأفضل. فعلى عكس المعاملة السيئة التي لقيها من أبيه الظالم، أراد أن يكون أباً صالحاً، أن يهتم بأولاده ويحنّ عليهم ويعبّد لهما الطريق أمامهما.

وعندما حصل على تعويض الـــ 20 سنة خدمة من الـــMEA – وبلغ يومها 54.000 ليرة – لم يتردّد في صرف كل المبلغ في بناء منزل لكل من أولاده الذكور. "قرش العمار مسهّل" كان يردّد أمام أولاده، فرحاً ومزهوّاً بأنه لم يظلم أولاده، وبأنه لن يندم أبداً على ما فعله. "غدا سيكرمونه على جميله هذا. غداً سيحملونه على أكتافهما، سيعاملونه معاملة الملك، وستكون له شيخوخة سعيدة، وسط أبنائه وأحفاده". كان أبو ناصر يحب الحياة العائلية، الحياة الدافئة والمطمئنة التي حُرم منها في بيت العائلة. حلّت في نفسه الغبطة عندما رأى ابنه "علي" يثبت مجسّم الجفصين لصخرة الروشة في غرفة جلوس بيته الجديد.

عاش ناصر مراهقته محبّاً للمغامرة مع بعض التهور. ولم يكن يفكر بالزواج على الإطلاق. حاول أهله عقد خطبته على عدة فتيات، ودائماً انتهت مرحلة الخطوبة بالفشل. كان هوسه السيارات السريعة وشلّة الأصحاب. اشترى سيارة BMW برتقالية، وأصبح يتأخر في العودة إلى البيت. وفي كل مرّة كان يشترك في سباق للسيارات على طريق الرملة البيضاء البحرية، كان يغيّر محرّك سيارته. شعر أبوه بالقلق على ابنه البكر، بعد أن لاحظ أنه يصرف مدخوله على أمور غير ضرورية ويعرض نفسه للخطر في تلك السباقات. كثرت المشاكل بين الأب والابن، وغالباً ما كانت أمّ ناصر تقف إلى جانب ابنها وتبذل المجهود لاختراع التبريرات التي لم تكن لتقنع الأب القلق.

في أحد الأيام، قرّرا الذهاب إلى منطقة الرملة البيضاء لمنع ابنهما من المشاركة في أحد السباقات الخطرة. عند وصولهما كان السباق قد بدأ. وكانت الـBMW البرتقالية تتقدّم على باقي السيارات بسرعة فائقة. الحشود تصرخ بحماسة: "ناصر... ناصر... ناصر...". وجد أبو ناصر نفسه يصرخ مع الجماهير مشجّعاً ابنه. أخذته الحماسة عندما رأى الناس على الشرفات في الأبنية العالية في حالة من الحماس والترقّب.

فاز ناصر بالسباق يومها وكانت الـBMW البرتقالية أول السيارات التي وصلت إلى آخر الأوتوستراد. شعر أبو ناصر بالفخر في تلك اللحظة، على الرغم من تحفّظه، لأن ابنه أصبح بطلاً وأين؟ في بيروت!!! والناس يصرخون مشجعين له!!!.

عندما كانت أمّ ناصر تنادي زوجها باسم "أبو ناصر" فذلك يعني بأنها على وشك إخباره بشيء سارّ، أو أنها على وشك طلب شيء ما. وعندما كانت تناديه "يا حاج" فذلك يعني أن الموضوع جدّي بعض الشيء أو أن الأمر له علاقة بأناس آخرين. أما عندما كانت تناديه باسمه الأول: "محمد" فالموضوع يكون في غاية الخطورة والجدية وأنها تطلب انتباهه التام.

في تلك الليلة أيقظته أمّ ناصر بقوة وهي تصرخ: "محمد... يا محمد... قوم عجّل... ناصر بالحبس!!!".

"شو قلتي... يا رقية"، هبَّ أبو ناصر مذعوراً وهو لا يزال بين النوم واليقظة.

"ناصر بالحبس... قوم شوف شو بدنا نعمل. أخدوه الدرك من الكاراج".

لم يصدّق أبو ناصر ما سمعه! هل كان في كابوس؟ هل هذا معقول؟ لكن عندما كرّرت زوجته على مسمعه الجملة لأكثر من مرّة، تأكّد أن الأمر واقع وصحيح.

أخذته أفكاره بعيداً: هل سوف يمضي ابنه البكر عمره في السجن؟ "شو ممكن يكون الصبي عامل؟" هل سيكون ابنه مثل أولئك "الطفّار" الذين كان يسمع عنهم عندما كان ولداً. أولئك الطفّار الذين يمضون حياتهم في الجبال والوديان في بعلبك والهرمل، بعيداً عن أعين الناس والدولة! ابنه البكر ناصر سيكون "طافراً" وخارجاً على القانون!!!

تذكّر أبو ناصر تلك المشاجرة التي حصلت يوماً بينه وبين ناصر لأول مرة. "ما إلك شي هون" قالها لأبيه بكل قساوة صارخاً في وجهه. "ما إلك شي هون". لم ينس أبو ناصر تلك الجملة الحادة والقاسية. تلك الجملة التي ذكّرته بقساوة أبيه الظالم الذي قال له يوماً: "يا حمار، ما تعمّر بأرض غيرك". جرحته تلك الجملة يومها. وها هو ناصر يجرحه مرّة أخرى. وجرح القريب أقوى وأقسى من جرح الغريب. "ما إلك شي هون..." كان الأمر كثيراً عليه يومها. وبسبب تلك الجملة "الثقيلة" تشاجر مع أمّ ناصر لأول مرّة منذ زواجهما بجدّية، واتهمها يومها بتحريض الأولاد ضده وبأنها تخطط لشيء ما، وبأنها "خانت العشرة"، و"بأنها... وبأنها...". فقد أبو ناصر صوابه يومها. ترك المنزل وراح ينام في سيارته المارسيدس البيضاء التي كان يركنها أمام درج المنزل. لم يصعد إلى منزله لعدّة أيام. حرد الرجل لعدة أيام.

أصيب بجرح عميق. بعد كل ذلك التعب، وكل تلك التضحية، وكل العطاء، يأتي ابنه البكر، ليذكّره بأنه لا يملك شيئاً... بأن الأرض هي لأمّ ناصر وليست له. هو كان يعرف ذلك. وليس ضرورياً أن يذكّره أحد بذلك، فالقضية بينه وزوجته.

كانت أمّ ناصر في وضع محرج. "ويلها زوجها وويلها ابنها ناصر...". حاولت كثيراً أن تعيد زوجها إلى البيت، دون جدوى. "أبو ناصر ركب راسو وعاد إلى جذوره البعلبكية... والبعلبكي عندما يصاب في كرامته وعزّة نفسه، صعبة يغير رأيه". كانت تحمل له صينية الطعام كل مساء إلى السيارة. تسايره وتطيّب خاطره دون جدوى. لاحقاً تدخل العقلاء وأهل الخير، ولم يعد أبو ناصر إلى بيته، إلا بعد أن اعتذر ناصر وقبّل يده. عاد يومها إلى بيته مرفوع الرأس وغير نادمٍ على موقفه وثورته.

لكن الآن ناصر في السجن. لأول مرّة، لم يعرف ماذا يفعل!

كان لناصر زبون أرمني ثري يصلح سيارته في كاراجه. وُجد مقتولاً في شقته في قردان. قطعة الحديد التي قُتل بها الزبون أتت من كاراج ناصر. جاء الدرك إثر التحقيقات وأخذوه إلى ثكنة الحلو في بيروت. كل الأدلّة كانت ضده. تعرّض ناصر للكثير من الضرب والتعذيب على أيدي المحقّقين الذين حاولوا انتزاع اعترافاته. أثناء التحقيق، كان يسمع صراخ المعتقلين في الغرف المجاورة، وقُتل أحد المتّهمين أمام عينه. حاول المحقّقون رشّه بالماء عدة مرات، لكن الرجل فارق الحياة. كان مشهداً مرعباً، وأصيب ناصر بالخوف والرعب.

كانت أول مرّة يرى رجلاً يُقتل أمامه.

"دخيلك يا بيّي طلّعني من هون"، كان يلحُّ على أبيه من خلال القضبان الحديدية أثناء زيارته له في الثكنة. "دخيلك يا بيّي..." كانت كلمات ناصر تذبح قلب أبيه وتمنعه من النوم كل ليلة والدموع تنهمر غزيرة على خدّيه. لأول مرّة يسمع ابنه البكر يرجوه. لأول مرّة يرى ابنه ذليلاً إلى هذه الدرجة.

حاول المستحيل لإخراج ابنه من السجن. اتّصل بالعديد من المتنفّذين في الدولة. بكى أمام العديد من نوّاب المنطقة. قرع الأبواب. شعر الرجل بالذلّ وهو الذي نادراً ما عرف الذلّ أمام أحد. وكل ما حصل عليه الوعود الكاذبة والكلام الفارغ. وكاد أن يفقد صوابه عندما قرأ اسم ابنه في جريدة "السفير" كمّتهم في جريمة قتل. "جنّ جنونه يومها". لم يعد يحتمل أكثر من ذلك.

اتّصل بالمحامي ريمون فغالي ووكّله القضية بعدما دفع له مبلغ 1500 دولار، استدانه من أحد الأقارب. ونُقل ناصر لاحقاً إلى سجن بيروت بانتظار المحاكمة.

كانت تجربة سجن ناصر الأكثر إيلاماً وثقلاً على العائلة. لأول مرّة كان أحد أفراد العائلة غائباً عن المنزل. لم يستطع أحد النوم. الكل شعر بالأسى والحزن: أبو ناصر، أمّ ناصر، علي، غالية، عالية وحتى ندوة الصغيرة كانت تسأل عن أخيها. لم يتمكّن أحد من أفراد العائلة من النوم على مخدّته طوال تلك الليالي الثقيلة. كانوا يمضون الليل في الحديث عن ناصر. أمّ ناصر كانت تبكي على الدرج في الخارج كي لا يراها زوجها. دموعها تقتله، وغالباً ما تحول حزنه إلى غضب. ناصر

كان أفضلهم في نظرها، فلذة كبدها، وهو الآن في السجن.

بقي ناصر في السجن لمدة 30 يوماً، وبفضل جهود محاميه، اعتبر غير مذنب في النهاية. دفع أبو ناصر مبلغ 3.000.000 ل.ل. كفالة لتأمين إطلاق سراحه.

في يوم إطلاق سراحه، ذهب أبو ناصر ومعه أمّ ناصر وعالية إلى العدلية باكراً للحصول على "إخلاء السبيل". كان عليهم الانتظار طويلاً على أعصابهم لأن أبو ناصر، وهو عديم الخبرة في مواقف كهذه، لم يفهم على حاجب المحكمة. "القاضي بعد ما مضى إخلاء السبيل" قال لهم الحاجب في بيروت. بعد ثلاث ساعات من الانتظار، قرّر أبو ناصر المبادرة متردّداً. "تفضّل" قالها بصعوبة للحاجب، واضعاً في يده مبلغ 15.000 ليرة. دخل الحاجب إلى المكتب وخلال دقائق، كان "إخلاء السبيل" في يد أبو ناصر.

في سجن بيروت، كانت فترة الانتظار أطول ومحطّمة لأعصاب العائلة التوّاقة لرؤية ابنها طليقاً.

المزيد من الانتظار وأبو ناصر دخّن أكثر من علبة سجائر، وهو ينظر إلى ساعته كل 5 دقائق. "لازم توصل النشرة" قيل له. نصحه أحد السجناء القدماء في السجن بعد أن أشفق عليهم. "يا حاج، إذا ما بتدفع... مش لح توصل النشرة من المطار". مرّة أخرى دفع أبو ناصر مبلغ 25.000 ليرة رشوة لأحد العناصر، فجاءت النشرة خلال دقائق.

أخيراً خرج ناصر طليقاً وعانقه الجميع فرحين لرؤيته حرّاً.

غصّ منزل العائلة بالمهنّئين لعودة ناصر. اجتمعت العائلة من جديد وعادت الابتسامة ترتسم على وجه أمّ ناصر بعد 30 يوماً من الحزن والمعاناة.

"الحمد لله ما طلع عنا شراميط بالبيت"، كان أبو ناصر يردد كلما سمع خبرية سيئة عن إحدى فتيات الحي. "كلّو بسبب التلفزيون"، كان يقول لأمّ ناصر. "هالتلفزيون العكروت عمّالي ينزع هالجيل، خاصة البنات يلّي ما عاد يستحوا من حدا... الله يستر... الدنيي آخر وقت".

أمّ ناصر بدورها كانت تشارك زوجها قلقه وخوفه، وهي المعروفة في الحيّ بتحفّظها الشديد ومراقبتها الدائمة لبناتها الثلاث. لم تكن تسمح لهنّ بالخروج وحدهن أو حتى اللعب من الصبيان في ساحة الحيّ قرب محلّ البرجاوي. "كل الرجال عاطلين وزعران وبدّن هيديك الشغلة" كانت تحذّر بناتها بصورة مستمرة. فأبو ناصر وأمّ ناصر كانا معروفين في "حيّ المطلّقات" لحذرهما وخوفهما الشديد على العرض ونظافة سمعة بناتهما. لم تكن أمّ ناصر تسمح لبناتها بمشاهدة المسلسلات التي تتضمن مشاهد تقبيل "وعكرتة" على التلفزيون. وعندما كان يظهر مشهد تقبيل أثناء مشاهدة العائلة لأحد الأفلام المصرية، كانت تبدأ بالسباب واللعن، وتسرع بتغيير المحطة. الحديث عن الحب كان ممنوعاً في البيت. الحب "وهيديك الشغلة" مسموحة فقط بعد الزواج. فالجنس في "حيّ المطلّقات" كان يُسمّى "هيديك الشغلة". وإذا ما شوهدت

فتاة تتحدث علناً مع شابّ تصبح حديث الحيّ ويقال عنها "دكّتها مرخية". وهذا يعني بأنها تؤخذ بسهولة. وأي شابّ يحاول أن يبصبص على فتاة ما أو يلاحقها، يقال عنه "عينو بيضا". وغالباً ما كان الكلام البذيء ومن "العيار الثقيل" يُسمع أثناء المشاكل والخناقات بين أهالي الحيّ، فيكون ذلك مصدر سخط الأهالي المحافظين، وأحياناً سبباً للضحك والإعجاب. فأثناء أحد المشاكل بين نسوة الحي، صرخت إحدى النساء بإحداهن، وهي تمسك عضوها: "منتاكة طازة يا رشدي أباظة!"

كل هذه الأجواء زادت من قلق أمّ ناصر على بناتها، لدرجة أنها كانت تخاف عليهن من مواء البسس في شباط، خاصة أثناء الليل، عندما كان الهواء يخترق السكون والآذان، فاتحاً شهيّة العزّاب والعذارى للرغبات الحيوانية التي لا تعرف الحدود ولا الحشمة. "الله يلعن البسس وأبو البسس" كانت أمّ ناصر تلعن أمام بناتها. فالحي أُطلق عليه يوماً لقب "حيّ المطلّقات" وذلك لفشل العديد من الزيجات وانتشار ظاهرة الطلاق التي لم تكن دارجة بين أبناء الجيل السابق. شيء ما بدأ يتغير بين أبناء الجيل الشاب في الحيّ، وكثرت حوادث الطلاق ولم يعد هناك احترام بين الزوج والزوجة. أصبحت الزوجات أكثر طموحاً وتطلّباً، ولم تعد الزوجة ترضى بالقليل، أو تخاف من غضب زوجها. فإحدى بنات أبو كامل، فريال، خطبت ثم تطلقت، ثم خطبت، ثم تطلقت بعد أن أنجبت ولداً من زوجها السيئ السمعة. حصلت مشاكل كثيرة مع زوجها الذي امتنع عن تطليقها إلا عندما حصل على تعهّد منها في المحكمة الشرعية كي تتنازل عن ابنها. فعلتها فريال، بتحريض من أهلها، وتنازلت عن ابنها "فلذة كبدها" الذي أخذه أبوه معه إلى كندا ولم تعد

تراه بعد ذلك.

بدورها سامية، ابنة جميلة، شقيقة أمّ ناصر، ضربت الرقم القياسي في الحيّ بزيجاتها المتعدّدة. تزوّجت سامية ثلاث مرات، وفي كل مرّة كان زواجها ينتهي بالطلاق. وسامية بدورها كانت مولعة بالزواج من "دكاترة". كانت تحب أن تكون زوجة دكتور. ما إن يطلقها دكتور، حتى تتزوج دكتوراً آخر.

عندما تحصل فتاة على طلاق في الحي، تتحول إلى مادة دسمة على ألسن أهل الحيّ لفترة طويلة. "شفناها طالة من البيت ومبروزة... شفناها ماشية مع شبّ... عاملة عقد متعة... وهكذا". لن يتركوها لشأنها أبداً.

لكل هذه الأسباب، كانت أمّ ناصر تخاف على سمعة بناتها، وحرصت على أن لا تصيب ألسنة الناس سمعتهنّ على الإطلاق. كانت مصممة على أن لا يتحدّث عنهن أحد بسوء، ومما كان يزيد من خوفها تشدد أبو ناصر حول الموضوع، وتحذيره الدائم لها حول ضرورة التشدّد مع البنات خاصة. "ديري بالك عالبنات يا رقية... انتبهي عليهن".

في أحد الأيام، اكتشفت أمّ ناصر أن ابنتيها: غالية وعالية، كانتا تذهبان سرّاً إلى ملهى "الموستاش" في الروشة. كانت مغامرة بريئة لفتيات في عمر "الطيش والجهل". "وفي الروشة كمان يا بنات الكلب!!!" صرخت أمّ ناصر. كان الخبر كالكارثة بالنسبة لها. أشبعتهنّ ضرباً يومها و"أنزلت سقف البيت" على رأسيهما. "بدكن تعملولي شراميط بهالآخرة...". أسوأ ما في الأمر أن أمّ ناصر أخبرت أبو ناصر.

فقد الرجل عقله وأعصابه. بناته يذهبن سرّاً إلى بيروت حيث الفلتان وقلّة الأدب، ويلتقون بشبان من هناك!!! كان الأمر كالكارثة التي وقعت على رأسه.

كانت من المرات القليلة التي لجأ فيها أبو ناصر للضرب لتأديب بناته. ضربهما ضرباً مبرحاً ومنعهما من مغادرة البيت لمدّة شهر. كان العقاب بالنسبة له ضرورياً لوضع الأمور تحت السيطرة من جديد.

شهراً كاملاً لم تتجرأ خلاله الفتاتان على النزول إلى الشارع.

حلا، إحدى بنات الحي، كانت سبباً مهماً إضافياً لجعل الأمهات يقلقن على بناتهنّ في "حيّ المطلّقات". فهي بكل بساطة لم يكن لديها أب. فعلى بطاقة الهوية، كانت حلا أخت أمها، كونها عند ولادتها سُجّلت على اسم جدها لولادتها. الكل في الحيّ كان يعرف قصّة حلا. وهي كانت موضوعاً حاراً وجذّاباً يحكى عنه في السهرات والجلسات الاجتماعية، ومثالاً يستخدمه الأهل لمنع الأولاد، خاصة البنات، من الخطأ والمحظور! "حلا يلّي ما حدا بيعرف مين هوي بيا!!!".

عندما حملت والدة حلا بها، لم يكن أحد في الحيّ والجوار يعرف بأنها حامل. كانت الأم ترتدي ثياباً فضفاضة وبناطلين، وتمشي في الأزقة. بقي موضوع الحمل سرّاً، كون الأب لم يكن معروفاً. فأم حلا لم تكن متزوجة رسمياً يومها. وعندما أتت حلا إلى هذا العالم، أخذ الناس يتحزّرون عن هوية الأب ومن يمكن أن يكون. كانت فضيحة

يومها تحدث عنها كل لسان في المنطقة كلها. قال البعض إن والد الطفلة كان من المقاتلين الفلسطينيين، وإنه ذهب مع الفدائيين في عملية داخل الأراضي المحتلة ولم يعد. وذهب آخرون إلى استنتاج أكثر جرأة بأن هناك أكثر من رجل وراء حمل أم حلا. فقط الأم كانت تعرف السرّ ولم تخبر أحداً عن هوية الأب. تحدّت عائلتها يومها ولم تجهض الطفلة غير المرغوب فيها. ركبت المرأة رأسها وأتت بابنتها إلى هذا العالم الذي لا يرحّب بأصحاب العلاقات "غير الشرعية".

وُلدت حلا في مجتمع الحيّ كفتاة غير مرغوب فيها، وسوف تعيش كمصدر للعيب والإدانة لها ولعائلتها. كانت ثمرة علاقة "حرام"، وسوف تمضي حلا حياتها تستجدي القبول في مجتمع "حيّ المطلّقات".

حلا آية من الجمال. كانت أجمل فتاة في الحيّ وأكثرهن جاذبية وإثارة. وأينما ذهبت، كانت نظرات الرجال والصبيان تلاحقها. وعندما كانت تمرّ في أزقة الحي، كانت تجذب اهتمام الرجال، المتزوجين والعزّاب. وهذا ما حولها إلى العدوّ "رقم واحد" بالنسبة لنساء الحي، المتزوجات منهن خاصة. "حلا خرّابة البيوت العامرة... حلا سرّاقة الرجال"، كنّ يصفنها في جلساتهن الصباحية الخاصة. وبالفعل، حاول العديد من الرجال تطليق نسائهن للحصول عليها. وهي كانت وراء فشل العديد من الخطوبات بين فتيات الحيّ وفتيان من خارجه. لكل هذه الأسباب، لم تكن الأمهات تشجع بناتها على صحبة حلا، وغالباً ما كن يؤنّبن بناتهن عند مشاهدتهن يتحدثن معها في ساحة الحي. كانت حلا

تفهم كل ذلك وتتقبل وضعها الاجتماعي على مضض. لكنها لم تقبل يوماً بالزواج من رجل متزوج أو مطلق. كانت فقط تتمتع باللعبة. لعبة أن يكون حولها العديد من "الضحايا". التلذّذ بجذب الرجال ثم السخرية منهم. تنتقم لحق قديم وعميق في داخلها.

حلا كانت تبحث عن أب وليس عن زوج. غياب "الأب" في حياتها تسبّب لها بالكثير من الألم والمعاناة. كانت تحسد فتيات الحيّ لوجود آباء في حياتهن، آباء حقيقيين قادرين على حمايتهن وحبهن. وعندما كانت ترى إحدى الفتيات وهي تمشي مع أبيها ممسكة يده، تشعر بالألم والغيرة. كانت تتمنى الموت. "ليش أنا؟ ليش ما عندي بيّ متل كل البنات؟" كم مرّة سألت أمها هذه الأسئلة البريئة عندما كانت طفلة. لكن أسئلتها البريئة تحولت إلى مشاحنات صاخبة عندما أصبحت مراهقة: "كل هالشي يلّي عم بيصير معي من وراكِ... إنتِ عملتي فيّي هالشي". كانت حلا تصرخ بأمها وغالباً ما كان المشكل ينتهي بتكسير بعض أثاث البيت.

"الناس بتطلّع عليّي وأنا ماشي بالشارع وبيصيروا يتوشوشوا ويأشروا عليّي" كانت تشكي لأمها باكية.

"قولي لي مين هوّي بيّي؛ شو اسمو... قولي لي... أنا بكره كل الرجال... بكرهن كلّن...".

زادت نقمة حلا وثورتها عندما غرق خالها الوحيد في بحيرة القرعون. كان حادثاً مأساوياً وأصيبت يومها حلا بالصدمة. كان خالها بمثابة أب وأخ وصديق، ومعه كانت تشعر بالحب والأمان. لم تنس حلا مشهد جثته عندما جيء بها إلى المنزل. كان منظر الجثّة مروعاً بعد أن

تعاقبت عليها الأسماك في البحيرة. استمرّ البحث عن الجثة لأيام ولم يُعثر عليها إلا بعد الاستعانة بفريق غطس متخصّص. لم تنس حلا ذلك المنظر أبداً. خسرت أعزّ إنسان في حياتها، فطلبت لاحقاً من رسّام أن يرسم لها صورة خالها على مدخل المنزل. جاءت الرسمة رائعة وتشبه الخال الغائب الذي بقي يستقبل ويودع أهل البيت بابتسامته المعهودة.

لم يكن أمراً يسيراً على حلا أن تتأقلم أو تتقبل "وضعها اللاشرعي" في الحي. استغرقها ذلك وقتاً طويلاً كي تقتنع وتقنع الآخرين بأنها عضو مقبول ومرحب به في مجتمع الحي. لذلك كانت كريمة مع الجميع. تعطي الحلويات للأطفال في الأزمة، وكان منزلها مفتوحاً لفتيات الحيّ ممن كنّ يرغبن أو يغامرن في زيارتها. تحب الثياب الغالية وترغب بالظهور بمظهر أنيق واستثنائي. ألم تكن هي حالة استثنائية في الحي؟ كانت تريد أن تكون الرقم واحد. في قرارة نفسها، كانت حلا تستجدي القبول، وهذا ساعدها على نسيان حقيقة أنها الفتاة الوحيدة في الحيّ التي ليس لها أب.

مع مرور الزمن، تعوّد الناس على وجود حلا بينهم. أصبحت حقيقة لا يمكن نكرانها. ووجد الناس، خاصة النساء، أن تهديد حلا الأنثوي ليس إلا أمراً مبالغاً فيه ولا يشكل تهديداً حقيقياً لهن. لكن، عند حضور أي زائر أو خاطب جديد إلى الحي، كانت قصة حلا أول موضوع تتحدّث عنه ألسنتهم. وهذا حرم حلا الخطوبة وأبعد عنها الكثير من الخطّاب، وأفشل العديد من محاولات تزويجها. فمن يجرؤ أن

يتزوج فتاة لا أب لها؟ بقيت حلا علماً أحمر في الحي.

على الرغم من هذا الوضع المستحيل واليائس، تعرفت حلا إلى شابّ من خارج الحي. أحبها وأحبته. كان شاباً وسيماً وأنيقاً ولديه سيارة حديثة. راحا يتواعدان ويلتقيان سراً.

"ليك يا حبيبي" قالت له حلا يوماً. "أنا ما بدّي أعمل شي حرام".

"شو قصدك حبيبتي" سألها.

"قلتلك ما بدّي أعمل شي حرام".

"شو بكي. نحنا ما عمنعمل شي غلط!"

"ما بدّي أعمل غلط متل إمي... ما بدّي أعمل يلّي عملتو إمي"

"شو مطلوب منّي؟"

خلينا نعمل عقد "زواج متعة" قالت بإصرار.

كان الشابّ يعرف قصة حلا بتفاصيلها، وهو كان يتعاطف معها إلى أقصى الحدود. ولم تنفع معه كل الأحاديث والخبريات التي سمعها في الحيّ عن حلا وأمها. وجد أن حلا لا ذنب لها في الموضوع كلّه.

فالذنب هو ذنب أمها التي أخطأت وليس حلا. كان الشـــاب مقتنعـــاً أن حبيبته بريئة من كل التهم، وأنها ضحية كل هذا الوضع. وهذا ما دفعه إلى التعاطف معها إلى أبعد الحدود، وقرّر الذهاب معها إلـــى النهايـــة. كان يحبها حباً صادقاً رغم كل شيء.

"شوف حبيبي، لازم تعمل شيعي؟"

"ليش؟" سألها، "ما كلنا مسلمين!"

"لا حبيبي... ما بيصير زواج المتعة بين شيعية وواحـــد غيـــر شيعي. هيك الأصول".

"ما في فرق حياتي. بدك بعمل شيعي بيني وبينك".

"إذن قول من بعدي:
زوجتك نفسي على كتاب الله وسنة نبيه بمهر وقـــدره 10.000 ليرة ولمدّة هي من كذا إلى كذا... والله ولي التوفيق".

"الآن قول قبلت التزويج".

"قبلت التزويج".

استمرّ الزوجان السريان لفترة طويلة تحت رابط "زواج المتعة" ولم يكن أحد يعرف بعلاقتهما على الإطلاق. إلى أن حملت حلا. كـــان الأمر كالكارثة بالنسبة لها. هل سترتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبته أمها

والذي لامتها عليه طول حياتها. هل سيتركها حبيبها وتأتي إلى هذا العالم بمولود لا يعترف به أبيه فيعيش نفس المعاناة والألم التي عانته هي. "لا، وألف لا". عزمت على الانتحار إذا ما تركها حبيبها وحيدة. نعم، سوف تنتحر وتستريح وتنهي كل هذه المعاناة.

"أرجوك حبيبي، ما بدي أعمل الغلط يلّي عملتو إمي... بدي ولادي يكون عندهم بيي" راحت حلا تبكي على صدر حبيبها.

"ما تخافي حبيبتي... لح نتزوج رسمياً... وأمام كل الناس كمان".

تزوجا رسمياً وأعلن عن زواجهما رغم رفض أهله. ولم يقيما مراسم الزواج. رغم ذلك، جاء الخبر كالصدمة على أهل "حيّ المطلّقات". "حلا تزوجت... يا عمي والله حلا تزوجت"، "السايبة من وين جابت هالعريس!"، "وهيي هلق حامل!" "حامل... قبل وقتها!". بعض النسوة الماكرات شككن في موضوع الحمل. حتى أنهن قمن بإرسال إحداهن إلى المستشفى حيث ولدت حلا كيف تتأكد من تاريخ الولادة. "السايبة خلفت قبل وقتها... صحيح طب الجرّة عَ تمّا، بتطلع البنت لأمها!"

نجح زواج حلا وأنجبت المزيد من الأطفال وعاشت سعيدة هنية مع زوجها. كانت تأتي من وقت إلى آخر إلى "الحيّ" ومعها أطفالها وهي تقود سيارة "رانج روفر"، مرفوعة الرأس، مكللة بالنجاح والنصر،

فخورة بأولادها الذين أصبح لهم أب معروف أب من شحم ولحـــم، أب حقيقي! وصار بإمكان الناس أن يقولوا عنهم "أبناء فلان".

كلمة "مشكل" لها وقع خاصّ في "حيّ المطلّقات". فعندما كان أحدهم يصرخ الكلمة السحرية: "مشْكل"، كان كلّ أهل الحيّ يخرجون من منازلهم لمعرفة ماذا يحدث، ومن هم الأشخاص المتورطون في "المشْكل"؟ جميعهم – رجالاً وصغاراً وخاصة النساء – كانوا يتركون عملهم ويسرعون إلى الخارج من أجل أن لا يفوتهم شيء. البعض كان يخرج إلى شرفة منزله، أو يطل من الشباك، وبسرعة البرق يتشكل جمهور من المشاهدين الحاضرين للمتابعة أو التعليق على الأحداث والتطورات أو حتى المشاركة، قولاً وفعلاً. بسرعة يتحول مكان وقوع "المشْكل" إلى خشبة مسرح والناس إلى جمهور من المحتشدين الفضوليين. طبعاً، البعض قد يُسرع إلى فك "المشْكل" ومصالحة المتخاصمين، والبعض إلى الدخول على الخطّ، وقد يكتفي البعض الآخر بالمشاهدة، إما لعدم الرغبة بالتورّط أو بسبب الملل من كثرة وتكرار المشاكل. لكن دائماً عند وقوع "مشْكل" هناك ظالم ومظلوم، والحق دائماً يكون إلى جانب المظلوم.

في أحد أيام الصيف الحارّة، حيث الأبواب والشبابيك تبقى مشرّعة والناس منفتحة على بعضها، والأولاد تضج في الأزقة في وقت

تكون المدارس مغلقة، وقع المشْكل بين الأقارب وأهل الجيرة: بين أبو كامل وابنه كامل وصهره عامر العسكري من جهة، وعلي ابن جميلة، شقيقة أمّ ناصر، من جهة أخرى. وسبب المشكل أن زوجة علي اعتدت وسبّت إحدى بنات أبو كامل علناً أمام الناس. تطور المشكل يومها ووصل إلى الضرب والاعتداء الجسدي.

كان منزل علي يقع على جانب منزل سناء، بنت أبو كامل، وزوجها عامر العسكري. فالطرفان لم يكونا فقط جيران بل أقارب وأبناء خالة. وكان أمراً طبيعياً بالنسبة لعامر، وهو العسكري في الجيش، أن يقف إلى جانب عمه أبو كامل في المشْكل. كان عامر العسكري كالخاتم في يد عمّه أبو كامل، خاصة أن الأخير أعطى ابنته منزلاً في الحيّ كي تتزوج وتسكن فيه مع زوجها الذي شعر دائماً بثقل جميل عمّه عليه، وكان دوماً مستعداً كي يقف إلى جانبه في السراء والضراء، وسواء كان عمه على حق أم لا.

وقع "المشْكل" وتجمّع أهل الحيّ كالعادة للمتابعة. هجم أبو كامل ومعه ابنه كامل وصهره عامر وانهالوا بالضرب على علي الذي قاوم بشراسة أمام مدخل منزله الأرضي. موقفه كان بطولياً. هو وحده في المشْكل ويدافع عن زوجته وعن منزله. كان وحده يتلقى الضربات ولا ينهار. راحت جميلة تصرخ وتولول طالبة النجدة. تعب علي لكثرة الضربات التي تلقّاها، وسال الدم على وجهه. أحاط به المهاجمون من كل ناحية لكنه لم يسقط أرضاً ولم يتراجع. وحاول بعض الناس الفصل

بين الجانبين دون جدوى. فجأة هجم أبو كامل من الخلف وضربه على يده بقطعة خشبية غليظة. صرخ علي من الألم. انكسرت يده.

بعد انتهاء المشْكل، ذهب علي إلى مخفر الدرك في المريجة وقدّم شكوى وأرفقها بتقرير طبي حصل عليه من طبيب شرعي، أعطاه إجازة مرضية لمدة 15 يوماً. انتهت القضية لاحقاً بينه وبين عائلة أبو كامل بعدما دفعوا له مبلغاً من المال كتعويض. طبعاً وصلت القضية إلى المحكمة العسكرية كون عامر عسكرياً. شرشحهم علي يومها وجرجرهم إلى المحاكم والمخافر. أخذ حقّه منهم بالقانون وجعلهم يندمون على فعلتهم.

علي كان يحب زوجته جميلة بكل صدق، فهي كانت المرأة الوحيدة التي عرفها في حياته. وأهل "الحيّ" كانوا يعرفون أن نقطة ضعفه هي زوجته التي أحبها من دون حدود وتعلّق بها. "يا عمّي علي عم بيغنج مرتو كتير... سمعتو اشترى لها سيارة... السايبة صارت تسوق سيارة". لم يكن بالأمر اليسير على أهل الحيّ أن يروا امرأة تقود سيارة في ذلك الزمن. فالأمر كان يعتبر "لا أخلاقياً"، بل فساداً وتجاوزاً للتقاليد والأعراف. أصبحت جميلة محطّ أنظار أهل الحيّ ومثالاً للمرأة المتحررة التي أفسدها زوجها من كثرة الغنج والدلال غير المُستحب.

أنجبت له 4 أولاد. لكن علاقتهما كزوج وزوجة لم تكن على ما يرام داخل البيت. جميلة كانت تلوم زوجها علي على إهماله لمظهره الخارجي. دائماً كان يرتدي ثياب العمل الممزّقة. وغالباً ما كان يخرج

وغبار الباطون والترابة تغطي ثيابه وشعره. لم يكن شخصاً اجتماعياً أو يعرف كيف يتحدث أو يتصرّف أمام الناس. خُلق للعمل والإنجاب فقط.

أصبحت جميلة تستحي به وتخجل من الخروج معه أمام الناس. وكم من مرّة أوقعها في مواقف محرجة جعل وجهها يحمّر من كثرة الإحراج، أو وجّه لها كلمات غير مناسبة أمام الناس. لكن وضعها كامرأة معه كان أكثر تعقيداً من ذلك. لم تكن جميلة تشعر بأنها امرأة معه. لم يرضها يوماً في الفراش. كانت امرأة محبطة ومكبوتة. حاولت إلهاء نفسها بتربية الأولاد والاهتمام بشؤون بيتها. لكن أحاديث النساء المتزوجات أمامها في الصبحيات والجلسات النسائية عن علاقتهن بأزواجهن، وتطرقهن إلى مواضيع حساسة، كان يخرجها من صوابها، ويجعلها تشعر بتعاسة حظّها ومدى حرمانها كامرأة. "الله يلعن حظّي... ما أخذت رجّال!!!"

انتشر خبر "العلاقة الفاشلة" بين علي وجميلة في الحي. فلا مكان للخصوصية في هذا المكان، ومشكلة أي فرد من أهل الحيّ هي مشكلة الجميع، حتى لو كان الموضوع حميمياً بين امرأة ورجل. "علي مقصّر... علي منّو رجّال... علي منّو معبّالها عينها لمرتو...".

تحمّلت جميلة الكثير كامرأة. بئر أسرارها مع أمّ ناصر، حلاّلة المشاكل. كانت تخبرها كل شيء من كبيره إلى صغيره. "طوّلي بالك يا بنتي"، كانت أمّ ناصر تقول لها... "ديري بالك على أولادك. شو بدك تعملي، هيدا نصيبك. الله بيعينك"، كانت تنصحها كلما صعدت جميلة إليها تشكو لها أمرها. فلا أحد يفهم المرأة سوى المرأة.

ومما زاد من تعقيد الأمور ظهور ذلك الشاب المصري الذي استأجر إحدى الغرف السفلية في الحي. كان شاباً أسمر جذاباً، ويعيش وحده. بدأت الأقوال لاحقاً تتحدث عن شيء ما يجري بين جميلة والمصري الفرّان. "يا عمّي علي مقصّر...". كلمة "مقصّر" تعني في قاموس أهل الحيّ أن الرجل غير قادر على القيام بواجباته الجنسية مع زوجته. كانت جميلة في وضع لا تُحسد عليه بالنسبة لنساء الحي.

طلبت جميلة الطلاق. كان موقفها شريفاً. فهي لم تعد تطيق العيش مع رجل لا تحبّه، بل تخجل به، وهو غير قادر على جعلها تحسّ بأنوثتها. كما أن علاقتها بالمصري الفرّان أصبحت على كل لسان. لذلك طلبت الطلاق.

لكنّ علي رفض رغم كل شيء وكل الأقاويل التي راحت تطال شرفه وسمعة عائلته. فهو بكل بساطة لم يصدّق أن زوجته وأم أولاده، والتي كان يحبّها بلا حدود، كانت على علاقة مع رجل آخر. شيء لا يمكن تصديقه! وأهل الحيّ يغارون من زوجته الجميلة لذلك هم يتحدثون عنها ويختلقون الأقاويل. هو لا يريد أن يطلّق المرأة الوحيدة التي أحب، المرأة الوحيدة التي نام معها وأنجبت له 4 أولاد. المرأة الوحيدة التي جعلته يقلع عن العادة السرّية والتي كان يمارس معها الجنس في الحمام، المكان الوحيد الذي كان يهتاج فيه. كيف يطلّقها؟ ألم يكن الشرع إلى جانبه والعصمة بيده. لن يطلّقها مهما فعلت. هي زوجته وستبقى كذلك.

لم تتراجع جميلة، وجعلت الموضوع علنياً. تركت منزله وتركت له أولاده. تركت كل شيء وذهبت إلى بيت أهلها. تحوّلت قضية علي وجميلة وطلاقهما العالق إلى الموضوع الأول في "الحيّ". "يا عمي لازم يطلّقها... يا عمّي جميلة بتحب المصري الفرّان وبدها تتزوجو..."

أصبح علي محطّ سخرية أهل الحيّ وصارت كنيته "أبو قرون". "راح أبو قرون، وإجا أبو قرون". "علي يلّي متزوج مرا بتنام مع رجال تاني". حاولت عائلته الضغط عليه لتطليقها دون جدوى. "روح قصّ قرونك" صرخت به أخته سامية إثر خناقة معه، بعدما فشلت في إقناعه بتطليقها. "يا عمّي المرا ما بدّا ياك... روح طلّقها".

وصلت الأمور إلى المحكمة الشرعية. هناك وأمام القاضي قالت جميلة كل شيء وفشّت خلقها: "يا حضرة القاضي... ولا مرّة حسّيت إني مرا معو... كلها ثواني وبيجي معو... وما بيحب يعملها إلا بالحمّام ولو بعزّ الشتي والبرد... ما عاد فيّي أتحمل... خليه يطلقني... بيكفي جرصة وبهدلة".

فحلّت جميلة يومها، واحمرّ وجه القاضي رغم تعوّده على حالات كهذه. وافق فوراً على معاملة الطلاق بعدما أقنع علي بضرورة وشرعية الطلاق.

أخيراً وافق علي على الطلاق وكان شرطه الوحيد الاحتفاظ بالأولاد وتربيتهم. وافقت جميلة على شرطه. لم تعد إلى "الحيّ"، ذهبت للتزوج من المصري الفرّان وتعيش معه في حيّ السلم. تركت كل شيء خلفها، حتى أولادها، كي تعيش وتكتشف نفسها كامرأة مع رجل حقيقي

"لن يقصّر معها".

علي بدوره لم يتزوّج من جديد. احتفظ بـأولاده وعـاش فـي "الحيّ" عازباً يرعى أولاده ويعيش على الذكرى. ذكرى جميلة، المرأة الوحيدة التي أحب ولن يحب غيرها. لم يعد أحد يلقبه بـ "أبو قـرون"، وتحولت السخرية منه إلى شفقة وتعاطف. تعاطف مع رجل تنسّك ولـم يتزوج امرأة أخرى من أجل تربية أولاده الأربعة ورعايتهم.

وفي يوم من أيام عيد الفطر، بعد مرور سنوات كان قـدره أن يلتقي بزوجته السابقة في مقبرة الرادوف. وقف أمامها وجهاً لوجه. كان يزور قبر أمّه وهي تزور مقابر أهلها. أصيب يومها بالارتبـاك وراح يركض مبتعداً. نظرت إليه جميلة بشـفقة وهـو يقفـز فـوق القبـور والشواهد، وأحست كم كان قرارها صائباً بالزواج من المصري الفرّان. المسكين كان لا يزال يحبها.

علي الرغم من الأوضاع الخدماتية الكارثية والمعدومة في "الحيّ"، لم ييأس أبو ناصر من "الدولة" ومن عودتها يوماً ما. ففي ظل انقطاع التيار الكهربائي المتواصل، وندرة مياه الشفة، وطوفان المجرور المتكرّر في أزقّة "الحيّ"، وانعدام الأمن، بقي أبو ناصر حالماً بعودة "الدولة". هو من الجيل الذي عاش أيام العزّ والعيش الطيب يوم كانت "الدولة" موجودة ولها هيبتها، ولا أحد كان يجرؤ على حمل السلاح ولو حتى سكيناً صغيراً، ولم تكن هناك حاجة لحمل السلاح. كان أبو ناصر يحنّ إلى تلك الأيام الحلوة، السعيدة، الخالية من الهموم.

لهذه الأسباب سعى لتركيب "عدّاد كهرباء" في منزله، فكان أول "عدّاد" يركب في الحيّ بعد البرجاوي. وعندما عمّر منازل لولديه أصرّ عليهما ليقدما طلبات خاصة إلى شركة الكهرباء لتركيب عدّادات. "فعدّاد الكهرباء" له منزلة خاصة في قلب أبو ناصر. كان رمزاً قوياً لوجود الدولة والتواصل معها. وكان يفرح لرؤية جابي الكهرباء عندما يأتي كل آخر شهر لتسليم فواتير الكهرباء وقبض المبالغ المستحقة. حتى أنه كان يحتفظ بكل الفواتير الخضراء التي دفعها منذ أن ركّب عدّاده

الخاص، رغم جهله بالأرقام والأحرف المطبوعة باللغة الفرنسية على الفاتورة. فقط كان يشعر بضرورة الاحتفاظ بها.

أمضى أبو ناصر حياته يركض وراء "الدولة"، وهي تركض هرباً منه. هي كانت تأتي إليه فقط بلباس الدرك الرمادي عند حدوث المشاكل. كان يكره بذلة الدرك التي كانت تعني له كلمة واحدة: "الفساد". وكان لسان حاله "الدركي فيك تشتريه بـ 10.000 ليرة".

وعندما انتشر التعليق على خطّ الكهرباء وسرقة الكهرباء بصورة عشوائية في الحيّ والمنطقة، وجد أبو ناصر نفسه مضطراً للتعليق على "الخطّ التحتاني" كما كان يفعل أبو كامل والجيران كافة. وهكذا، امتدت أشرطة الكهرباء في سماء الحيّ بصورة عشوائية وتشابكت مع أسلاك الساتيلايت ونرابيج المياه الموصولة بحنفية البرجاوي. وعندما كان أبو ناصر يميل بشريط الكهرباء لتعليقه على الكابل، كان يشعر بقوة خارقة وبشعور غريب يتملّكه، وكأنه يمسك الدولة من رقبتها.

في بداية الحرب، سمحت المنظمات الفلسطينية المسيطرة على الناس بالاستيلاء على الأراضي المشاع في الرمل العالي، وشجّعتهم – خاصة المهجّرين منهم – على احتلال واستملاك أية قطعة أرض. هجم الناس على الرمل العالي وراح كل منهم يحدّد قطعة الأرض التي ينوي البناء عليها. بدوره، استولى أبو ناصر على قطعة أرض ووضع

الحجارة حولها، لكنه في النهاية قرّر البناء على أرض يملكها بصورة شرعية. أرض مسجّلة في الدوائر الرسمية في بعبدا. فأعطى قطعة الأرض خاصته لأصدقائه من آل الحسيني الذين قاموا ببناء منزل لهم عليها. هكذا تحولت منطقة الرمل العالي إلى منطقة مسكونة بالكامل حيث بنيت المنازل بصورة عشوائية ومتلاصقة. لم يعد الرمل العالي ذلك المكان الرملي الهادئ المطلّ على طريق المطار الذي كان أبو ناصر يقصده لمراقبة غروب الشمس، للتأمّل.

أصيب أبو ناصر بحالة من التفاؤل والفخر عندما تقدّم عسكري طالباً يد ابنته الوسطى عالية. أخيراً سوف يكون له صهر من تلك "الدولة" التي انتظرها منذ زمن بعيد، وسوف تدخل تلك البذلة الخضراء التي تدعو إلى التفاؤل منزله.

"معاشو منيح والجيش منيح للمستقبل... وكمان مضمون وبيضمن عيلتو"، همست أمّ ناصر في أذنه مما شجعه على الموافقة السريعة. ها هو صهره الأول يدخل بفخر إلى بيته، "الصهر مسند ظهر"، وحتى اسمه يدعو للتفاؤل: نور.

وجد أبو ناصر في صهره نور دعماً كافياً في مواجهة عدوّه اللدود – أبو كامل – الذي كان لديه أيضاً صهر في الجيش. الآن أصبح هو وعدوّه متعادلين. صهر عسكري بصهر عسكري آخر.

على عكس الدرك، كان الجيش يتمتع بشعبية كبيرة في أوساط الناس، وبقبولٍ في أوساط أهل "الحيّ"، خاصة أن الجيش لم يكن يتدخّل في شؤون الناس، وأن معظم أبناء العائلات الفقيرة كانوا منضوين في الجيش ويرتدون تلك البذلة الخضراء.

جاء نور من منطقة الهرمل حيث كانت عائلته تمتلك قطعة أرض مزروعة حشيشة، ووالده كان أيضاً عسكرياً متقاعداً. عسكري ابن عسكري. "حلو وجذّاب مش هيك؟"، قالت عالية لإخوتها عندما شاهدته لأول مرّة يدخل منزلهم. فالفتاة في "حيّ المطلّقات" تتوقّع الكثير من الزواج، خاصّة أنها فرصتها الأولى والأخيرة كي تقيم علاقة جدية مع الجنس الآخر، عاطفياً وجسدياً. احتفظت عالية في مخيلتها بالكثير من التوقعات والخيالات المثالية عن الحب بين الشابّ والفتاة، وكانت قد جمعتها من مشاهدتها للأفلام المصرية مع والدتها. كانت تتوقّع علاقة حبّ مثالية، وقصة تشبه قصة روميو وجولييت، أو قصة حب بين حسين فهمي وميرفت أمين. ألم تقل لها فتيات الحيّ إنها تشبه ميرفت أمين لدرجة كبيرة.

"الزواج بطّيخة مسكّرة"، كانت أمّ ناصر تقول لبناتها. "لما بنفتح البطيخة، ما في رجعة ورا... هيدا بيكون حظّ البنت". وبطّيخة عالية كانت سيئة.

استقرّ العريس والعروس لاحقاً في "حي السلّم"، الذي كان يُطلق عليه اسم "الصين الشعبية" أو "ضاحية الضاحية". "حي السلّم" الذي سُمّي يوماً بـ "حيّ الكرامة"، لكن التسمية سقطت مع الوقت، وبقي البؤس في "حيّ السلّم".

البيوت في "حيّ السلمّ" متلاصقة لدرجة أن الناس كانت تقول تهكّماً: "فيك تناول الصابونة من الحمّام لجارك في حمّامه". "يا شحاري، البنت كيف بدها تعيش بحيّ السلّم" كانت أمّ ناصر تتساءل أمام زوجها وهي التي تعرف أن "حيّ المطلّقات" كان بمثابة "حيّ درجة أولى"

مقارنة بحيّ السلّم!

وما زاد الأمر سوءاً أنّ نور، وهو العسكري المعتاد على قساوة العيش، قد استأجر منزلاً من غرفتين قرب نهر الغدير. وهذا لم يكن بنهر على الإطلاق. كان عبارة عن مجرى للمياه الملوثة الآتية من فضلات المعامل في منطقة الشويفات. كل الأوساخ والنفايات كانت تتجمع في مجرى هذا النهر لدرجة أن لون المياه أصبح يميل إلى السواد. هذا عدا الرائحة التي لا تطاق، والحشرات والجراثيم المنتشرة حوله. ونور، "الصهر العظيم"، "مسند الظهر"، لم يجد منزلاً إلا بالقرب من نهر الغدير!

كل هذه الأمور كان يمكن بلعها بالنسبة لأبو ناصر وأمّ ناصر، ما عدا أمر واحد: أن تتعرّض ابنتهما للضرب. فمنذ فترة الخطوبة تبيّن أنَ الصهر العزيز "بيمدّ إيدو" وأنه صاحب مزاج عنيف ووحشي. ضرب نور عالية عدّة مرات، وكانت الأمور تصلح على أساس أنه أخطأ وأنها ستكون آخر مرّة. ومرة صفع نور خطيبته على وجهها اثر مشادّة بينهما فوقعت إحدى أسنانها. أصيب أبو ناصر وأمّ ناصر بالهلع، لكنهما كانا يطمئنان لوعود نور بعدم تكرار فعلته. حتى أنهما عرضا على ابنتهما الطلاق، وهو أمر أسهل خلال مرحلة الخطوبة، لكن عالية "الغارقة في أحلامها عن ميرفت أمين وحسين فهمي" كانت دائماً تقرّر البقاء مع نور وعدم فسخ الخطوبة.

بعد الزواج والإنجاب، أصبح الضرب أكثر قسوة وعنفاً. في إحدى الليالي، عادت عالية "مدبَّغة" إلى منزل أهلها باكية: "نور بيضربني كل الوقت... ما عاد فيّي أتحمّل".

وجدت أمّ ناصر أنّ الموضوع أصبح في غاية الخطورة. تحدّثت مع أبو ناصر في الموضوع وقرّرا رفع شكوى على نور أمام المحكمة الشرعية. "ما حدا لح يربّيه إلا الدولة" قالت نادمة على تزويج ابنتها المسكينة من عسكري لا يعرف إلا لغة الضرب. في اليوم التالي، توجّه أبو ناصر وأمّ ناصر، ترافقهم عالية وقدموا الشكوى مرفقة بتقرير طبّي إلى الضابط المسؤول. لم تتمالك أمّ ناصر نفسها، وكشفت عن ظهر ابنتها كي يرى الضابط بنفسه آثار الضرب. "يا حجّة"، قال لها الضابط، "نور ملفّه أسود عنّا"، وهو لم يخدم مرّة في مكان واحد لفترة طويلة.

عُوقب نور يومها وأُدخل السجن، وأضيفت الشكوى إلى ملفّه الضخم. لكن أمّ ناصر لم تكن تريد أن تسوء الأمور أكثر من ذلك. "ليك يا محمّد"، قالت لزوجها، "نور هوّي صهرنا وزوج بنتنا، والبنت حامل، وإذا طردوه من الجيش بيصير عاطل عن العمل".

انتهت الأمور عند هذا الحدّ، وعقدت الصلحة لاحقاً بعد أن حلف نور بأنه لن يكرر فعلته. "بحبّها... والله بحبّها" راح يقول أمام الحضور الذي صدّقه.

أحبّ نور شيئين في الحياة: الدجاج المشوي و"هيديك الشغلة" وهذه تعني الجنس في قاموسه المحدود. لذلك أنجبت عالية الكثير من الأولاد، رغم فقر الحال وإفلاسهما الدائم في النصف الأول من كل شهر. وكل سنة كانت عالية تحمل ثم تنجب. على الرغم من

المشاجرات والمشاكل بينهما، كانا ينجبان المزيد من الأولاد. وفي النهاية أصبح لديهما 9 أولاد، وضربا الرقم القياسي في "حيّ المطلّقات". أصبحت عائلتهما أكبر عائلة من حيث عدد الأولاد، وأكثرها فقراً وشحاراً.

كان نور العسكري يغيب عن البيت لعدّة أسابيع، فيعود جائعاً، راغباً بالدجاج المشوي و"هيديك الشغلة". كان أطفاله يُجبرون على النوم باكراً في غرفة واحدة، بينما ينام هو وزوجته في الغرفة المقابلة. وحتى أن ازدياد ساعات انقطاع الكهرباء، كان يدفعه لطلب "هيديك الشغلة" وجلب المزيد من الأطفال إلى هذه الدنيا البائسة. كانت عالية تسدّ بالكلينكس فتحة المفتاح للباب الفاصل بين الغرفتين، خوفاً من تلصّص الأولاد عليهما.

نور كان ساديّاً. وكان يعوّض إساءة الضبّاط معه أثناء الخدمة بالإساءة لزوجته وأولاده. وجوده في البيت كان كالكابوس على صدورهم، أحياناً كان يطفئ السجائر على يد ابنه عقاباً له. يجلس على الكنبة وكرشه أمامه. يعطي الأوامر يميناً وشمالاً وكأنه في ثكنة عسكرية. وإذا لم تلق أوامره آذاناً صاغية، يلجأ إلى الضرب ورمي ضحيته بأيّ شيء تقع عليه يده. الطاولة الصغيرة كانت أداته المفضلة. ونادراً ما كان لديهم طاولة سليمة.

لم تنسَ عالية ضرباته ومعاملته السيّئة، خاصة عندما ضربها بحزامه العسكري في الحمّام أمام الأولاد الذين راحوا يبكون خوفاً

ورعباً. وغالباً ما كان يضربها ثم يطلب ممارسة "هيديك الشغلة" معها وبالقوّة في أغلب الأحيان. في إحدى المرّات، لم تقوَ على الاحتمال، تركت البيت وهربت إلى بيت أهلها، تاركة خلفها الأولاد معه. اكتشفت أن ترك الأولاد معه، يكسّر رأسه. استعملت تلك الطريقة مراراً. في كل مرّة كانت تهرب من البيت، كان نور يأتي راجياً أن تعود. كانت تذلّه بتلك الطريقة. حتى أمّ ناصر وأبو ناصر اعتادا على رؤيتها تطرق باب البيت، هاربةً من معاملة نور السيّئة.

حصلت محاولتا طلاق جدّيتان بين نور وعالية: في **الأولى**، اتفق الطرفان على الطلاق بتشجيع من أمّ ناصر وأبو ناصر اللذين أصيبا باليأس من صهرهما العاطل. حضّر الشيخ الأوراق في المحكمة وكانا على وشك التوقيع. فجأة غيّرت عالية رأيها، ومزّق نور الأوراق بفرح. عادت أمّ ناصر باكية إلى البيت وهي تلعن البنات وساعتهن.

في المحاولة **الثانية**، نور أفسد الطلاق. ذهب الجميع إلى المحكمة. حضّر الشيخ الأوراق. رفض نور التوقيع ومزّق الأوراق. الجميع كان في حالة صدمة، ولم يسلم نور من شتائم أمّ ناصر وتهديد أبو ناصر. كان نور يعرف طيبة وبساطة أهل زوجته، وهو كان دائماً مستعداً لاستغلالهم والاستفادة من طيبتهم وتسامحهم رغم كل أفعاله وسلوكه الأرعن.

هذه المرة جلب نور وفداً من مشايخ ومخاتير الهرمل للتوسّط في الصلحة. كان وفداً كبيراً جعل رفض طلبهم أمراً صعباً على أبو

ناصر. وبعد المجادلات والكلام وغسل القلوب على الطريقة البعلبكيـــة، ووعد نور بعدم تكرار فعلته، استجاب أبو ناصر وأمّ ناصر، خاصّة أن الطلاق أمر صعب، ومن الأفضل تجنّبه. فالمطلّقة ستجلب وجع الرأس لعائلتها، ولن يُسمح لها بالخروج وحيدة من البيت أو العمل. فقط عليها الانتظار، وتقدم عريس شجاع، يشفق عليها ويستر عليهـــا لقـــاء مهـــر منخفض. وهذا ما لم يكن يتمنّاه الأهل لابنتهما. لـــذلك قـــرّرا إعطـــاء صهرهما فرصة أخرى. وهو كان دائماً يحصل على فرصة أخرى.

لاحقاً انتقل نور وعالية ومعهما "سلسلة" أولادهما للعـــيش فـــي منزل قريب من منزل أبو ناصر، ولا يبعد عنه سوى بضعة أمتار. كان لهذا الانتقال نتيجتان: واحدة إيجابية وأخرى سلبية. النتيجة الإيجابية، أن نور أقلع عن عادة ضرب عالية، خاصة أنه أصبح يعيش بالقرب مـــن بيت أهلها وأخويها ناصر وعلي، وهذا فرض عليه سلوكاً مغايراً، وكان عليه أن يحتسب للأمر. النتيجة السلبية، أن المشاجرات والمشاحنات بين نور وعالية أصبحت تتمّ على مسمع أبو ناصر وأمّ ناصر، مما تســـبب لهما بالمزيد من وجع الرأس والمتابعة اليومية للتفاصيل المملّة.

أصيبت عالية بالتعب واليأس من نور وحياتها معـــه. أصـــبحت مهملة في كل شيء. أهملت مظهرها، وبيتها، وحتى أولادهـــا. ظهـــر إهمالها واضحاً في قلّة نظافة بيتها، ووســـاخة أولادهـــا الـــذين كـــانوا يركضون حفاة في زواريب "الحيّ"، ويتسببون بالمشاكل مع العديد من الأولاد. لذلك اكتسبت عالية لقب "المرأة الأكثر فقراً وإهمالاً وشـــحاراً"

في الحيّ إلى جانب أمّ علي بهية التي كان بيتها ملاصقاً لبيتها. وسبب فقرها وبؤسها، بدت عالية أكبر بكثير من شقيقتيها غالية وندوة. "مشحّرة عالية... كل عمرها مشحّرة".

مع تحوّل مشاكلها مع زوجها إلى مجرّد تهديد بالطلاق، أو الحرد بضعة أيام في منزل أهلها الذي كان يبعد أمتاراً قليلة عن بيتها، وحيث كانت تدير شؤون عائلتها من الشبّاك المطلّ على بيتها الأرضي والتحدّث مع أولادها، عاشت عالية على أمل الحصول على الطلاق من زوجها نور... وهو طلاق لم ولن يحدث أبداً. نور بدوره تقاعد من الجيش، وحصل على تعويض لا بأس به. صرف تعويضه على بناء أساس منزله في الهرمل، ولم يكمل عمارته يوماً بسبب رفض أولاده لفكرة الانتقال إلى منطقة الهرمل البعيدة والعيش هناك. "إذا بدّك تعيش بالهرمل، طلقني وتركلي الأولاد"، كانت عالية تهدّده عند تحدّثه عن فكرة الانتقال إلى هناك.

اشترى نور نمرة حمراء ووضعها على سيّارة ابتاعها من تعويضه من الجيش، وراح يعمل سائق أجرة. فصهر أبو كامل، عامر العسكري، هو بدوره تقاعد من الجيش واشترى نمرة حمراء وعمل سائق أجرة. وهذا ما فعله نور وهو ما كان يفعله معظم العسكريين المتقاعدين، خاصة أن العسكر يتقاعدون في سنّ مبكرة، ويستمرون في الحصول على معاش شهري من المؤسسة العسكرية.

استمرّ نور وعالية في حياتهما الروتينية. هو يذهب كل يوم إلى عمله كسائق أجرة، يعود جائعاً ومرهقاً، ولم يعد يقوى على الضرب والمشاكل. وهي ملّت الحياة والانتظار، تحرد من الحين إلى الآخر، تهرب إلى بيت أهلها، وتتابع أوضاع أولادها من الشباك المطلّ على بيتها والحي، ثم لا تلبث أن تعود إلى بيتها وتلعن الساعة عندما لا يذهب زوجها إلى العمل.

في 14 حزيران سنة 1985 اختطفت طائرة TWA وهي في طريقها إلى روما. لاحقاً حطّت الطائرة المخطوفة في مطار بيروت الدولي. الخاطفون – عماد، حسن وعلي – كانوا من سكّان "الحيّ" ومنطقة برج البراجنة. استمرّت عملية الخطف أسبوعين، قتل خلالها جندي مارينز أميركي.

طوال أسبوعين استمرّ أهل الحيّ وبرج البراجنة والبلد كلّه يتابعون بشكل يومي عملية الخطف، خاصّة أن أحد الخاطفين كان من سكّان الحيّ المعروفين. تحوّلت طائرة الـ TWA إلى حديث يومي بين أهل الحيّ: "شو صار بالطيّارة... شو بدن يعملوا بالمخطوفين؟..."

في ذلك اليوم وعند الساعة 10:40 مساءً، تلقّى برج المراقبة في مطار بيروت معلومات تفيد أن مسلّحين قد اختطفوا طائرة "بوينغ 727" أميركية في طريقها من أثينا إلى روما وعلى متنها 145 راكباً، بالإضافة لطاقمها والكابتن، وأن الطائرة المخطوفة تتّجه نحو بيروت. وبعد فترة قليلة، أزيلت العوائق من المدرج، وهبطت الطائرة المخطوفة في المطار. وكان أحد الخاطفين قد أبلغ برج المراقبة

أثناء تحليقها فوق بيروت طالباً الإذن بالهبوط: "لح بعطيكم دقيقتين وإلا لح أرمي أميركاني من الطيارة". فدخل رجال مسلّحون إلى حرم المطار وأزالوا العوائق وسُمح للطائرة بالهبوط بعد أن أكّد الكابتن أن ما لديه من فيول يكفي للطيران فقط لتسع دقائق.

تحدّث ممثل "الحركة" مع أحد الخاطفين من برج المراقبة الذي طلب حضوره إلى الطائرة، مهدّداً بقتل أحد الركاب إذا لم يفعل. ثم سمع صوت إطلاق نار وأعلن أحد الخاطفين بأنه قد قتل أحد الركاب وقام برمي جثّته من الطائرة. ثم أكّد كابتن الطائرة المخطوفة الخبر لبرج المراقبة.

وفيما استمرت المفاوضات على متن الطائرة، اتصل كابتن الطائرة ببرج المراقبة طالباً تأمين طعام وفيول بأسرع وقت. وسُئل الخاطفون عن عدد الركاب على متن الطائرة، فجاء الجواب: "150". تمّ تزويد الطائرة بالفيول، والطعام، والفاكهة حسب طلب الخاطفين الذين بدأوا يفقدون أعصابهم.

وأصدر قائد الخاطفين البيان التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم. فمن اعتدى عليكم، فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم... فليستيقظ العالم العربي... القدس تناديكم، أين أنتم يا عرب؟ أين أنتم... الذين تغذّون أميركا بنفطكم؛ وأموالكم المجمّدة في المصارف الأميركية جعلت إسرائيل تقوم... إننا نحذر الجميع أنه إذا

فكّر أحد بالهجوم على الطائرة، سوف نقوم بتفجيرها مع الركّاب كـي يكون ذلك درساً للعالم كله.

إننا نطالب بإطلاق سرح كل المعتقلين في السجون الإسـرائيلية عبر الصليب الأحمر في مدينة صيدا... ونطالـب بحضـور السـفير الأميركي إلى مطار الجزائر... كما أننا ندين الممارسات الأميركية في العالم الإسلامي في محاولة للسيطرة على الحكومات العربية...".

أُطلق 19 راكباً قبل إقلاع طائرة الـ TWA إلـى الجزائـر. إحدى النساء الأميركيات اللواتي أطلق سراحهنّ قالت للصحافيين فـي مطار بيروت: "على الرغم من التجربة الفظيعة، كان سلوك الخـاطفين معقولاً. أعتقد أنهم كانوا ثلاثة، لكن كان من الصعب تحديد عددهم".

بعد وصول الطائرة المخطوفة إلى مطار هواري بومدين، أطلق الخاطفون 22 راكباً، 18 منهم كـانوا أميـركيين. وقـال أحـدهم إن الخاطفين أصبحوا في حالة "هستيرية" وإنهم اعتـدوا بالضـرب علـى بعض الركاب. بعد ساعات قليلة، أقلعت الطائرة مجدّداً إلى بيروت. في ذلك الوقت، أعلن ناطق باسم الشرطة اليونانية أن شاباً يبلغ 21 عامـاً واسمه علي عطوي قد تمّ اعتقاله، واعترف أن اثنين من رفاقـه قامـا بعملية خطف طائرة الـ TWA. وقد اعتقلته الشرطة في مطار أثينـا بعد أن حامت حوله الشبهات. وأضاف الناطق أن عطوي قد اعتـرف

بأنه عضو في "منظمة الجهاد الإسلامي" وأن الهدف من عملية خطف الطائرة كان إطلاق 600 سجين لبناني في إسرائيل.

لكن علي عطوي أُطلق بعد فترة، وتمّ إرساله على متن طائرة يونانية إلى الجزائر حيث انضمّ إلى رفاقه في الطائرة المخطوفة.

بعد رحلة استمرّت 4 ساعات في الجزائر، حطّت طائرة الـ TWA مجدّداً في مطار بيروت الدولي. واستؤنفت المفاوضات مع الخاطفين، وبتدخّل شخصي من رئيس "حركة أمل"، الوزير نبيه بري، الذي قدّم تطمينات بأن الرهائن لن يصابوا بأذى. وكانت مصادر أميركية رفيعة قد وصفت الوزير برّي "بأنه يتمتع بتأثير كبير على الخاطفين... وبأنه مفتاح الحلّ لهذه الأزمة".

وفي بادرة حسن نيّة، أطلق الخاطفون 63 رهينة، وبقي على متن الطائرة المخطوفة من 40 إلى 45 راكباً. وعقد خمسة من الرهائن المفرج عنهم مؤتمراً صحافياً في المطار دعوا فيه الرئيس الأميركي، رونالد ريغان، إلى "الامتناع عن القيام بأي عمل عسكري، أو اللجوء إلى العنف" لتحرير الرهائن. كما دعوا إسرائيل إلى إطلاق سراح السجناء اللبنانيين في سجن عتليت. وأكد أحد المسؤولين في خطوط الـ TWA في بيان أن عدد الخاطفين على متن الطائرة المخطوفة قد زاد أثناء وجودها في مطار بيروت إلى 12 أو 15.

أحدثت عملية خطف طائرة الـ TWA الأميركية توتّراً إقليمياً وعالمياً، كما استحوذت على انتباه ومتابعة العالم كله. وظهرت صور الطائرة المخطوفة على شاشات تلفزيونات ومحطّات العالم. واقتربت السفن الحربية الأميركية من الشاطئ اللبناني، وعلى متنها 1800 من رجال المارينز. وقد سُمح للصليب الأحمر الدولي بزيارة الرهائن على متن الطائرة والتأكد من سلامتهم.

ثم أصدر الخاطفون البيان التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم.

نودّ أن نوضح بعض الأمور بعد أن حاولت وسائل الإعلام الغربية تشويه ما يجري على متن الطائرة... إن مطالبنا هي التالية:

- إطلاق جميع المعتقلين العرب في السجون الإسرائيلية.
- الطلب من الحكومة الإسرائيلية الانسحاب الكامل من الأراضي اللبنانية على الفور.
- الطلب من جيش لحد الانسحاب من الجنوب اللبناني.
- إننا ندين الانفجارات التي تقع في العالم العربي والتي وراءها أمريكا...

والسلام على من اتبع الهدى".

بعد أسبوعين من بدايتها في 14 حزيران، وصلت أزمة خطف طائرة الـ TWA إلى نهايتها. فبعد العديد من الإخفاقات والتوتّر الشديد، أُطلق سراح الرهائن الـ 39 الباقين وتوجّهوا برّاً إلى دمشق

في رحلة استمرت 3 ساعات، تحت إشراف لجنة من الصليب الأحمر الدولي. ففي تمام الساعة 5:47 مساءً، بدأ الرهائن المنهكون "رحلة الحرية" من مدرسة التحويطة في برج البراجنة. وكان الوزير نبيه بري قد عقد مؤتمراً صحفياً أكد فيه أن الأميركيين قدموا تطمينات بأنهم لن يقوموا بعمل عسكري كردّة فعل على عملية الخطف، وأن السجناء اللبنانيين البالغ عددهم 730 سوف يطلقون من سجن عتليت.

في تلك الأثناء، عقد الخاطفون مؤتمراً صحفياً في مطار بيروت وقرأوا بياناً باسم "المستضعفين في العالم". وقال أحد الخاطفين: "لقد قمنا بما قمنا به في سبيل الله. وكي نظهر قدرة المستضعفين على مطاردة أميركا... نحن لسنا إرهابيين... نحن نخاف الله فقط... وإن الأساطيل الأميركية هي مجرّد ألعاب أطفال...".

خلال أزمة رهائن الطائرة الـ TWA، شارك سكّان "الحيّ" وبرج البراجنة في المظاهرات التي جرى تنظيمها لدعم وتأييد قضية الخاطفين. جميعاً مشوا إلى المطار – رجالاً ونساءً وأولاداً – حاملين شعارات: "الموت لأميركا... الموت لإسرائيل". ألم يكن الخاطفون من أهلهم ويحملون همومهم ومشاكلهم ويعبرون عن قضاياهم؟

بعد عدّة أيام من انتهاء الأزمة، دعا وزير الخارجية الأميركي، جورج شولتز، المجتمع الدولي إلى عدم استخدام مطار بيروت بعد أن أصبح "ملجأ للإرهابيين وقراصنة الجو".

حربان اندلعتا في النصف الثاني من الثمانينات كان لهما أثر كارثي على "الحيّ" وبرج البراجنة، وعلى الضاحية عموماً. الحرب الأولى، سُمّيت بـ "حرب المخيمات"، والحرب الثانية، عُرفت بـ "حرب الإخوة" أو "حرب أمل – حزب الله". والمشترك بين الحربين أنهما حصدتا الآلاف من القتلى والجرحى والدمار الهائل وموجات التهجير إلى خارج الضاحية، وأن الأطراف المتقاتلة كانت تحارب بالوكالة عن أطراف خارجية، والساحة كانت الضاحية، وناسها كانوا ضحاياها.

اتسمت "حرب المخيّمات" بالضراوة والعنف، وكانت المعارك اندلعت في 20 أيار 1985 إثر خلاف بين عناصر من "حركة أمل" وآخرين فلسطينيين في منطقة صبرا. ثم تحولت إلى معارك أكثر عنفاً ودموية في اليوم الثاني، وسادها كرّ وفرّ في مخيمات صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة ومحيطها.

كان الوزير نبيه بري قد عقد مؤتمراً صحفياً هاجم فيه ياسر عرفات "الذي استطاع أن يوحّد البندقية ضد "حركة أمل" بعدما فرق بندقية فلسطين للسير في الحل الاستسلامي" معتبراً أن ما حدث "كان ثمن مقاومة الحركة لإسرائيل ووقوفها إلى جانب قوى التحرير بدءاً من سوريا".

وفي اليوم الثالث تدخّلت راجمات الصواريخ ومدافع الميدان الفلسطينية المرابطة في الجبل، وراحت توزّع قذائفها على محيط المخيمات بهدف تخفيف الضغط العسكري عليها. وأعلن "أبو موسى"، قائد المنشقّين عن حركة فتح، مسؤوليته عن القصف "لأن حركة أمل لم تأخذ بالإنذار الذي وجّهه إليها معارضو عرفات للكفّ عن قصف المخيمات الفلسطينية".

هكذا، أصبحت "حركة أمل"، المدعومة من سوريا، تقاتل الفصائل الفلسطينية المنشقّة عن حركة فتح، والمدعومة من سوريا أيضاً!!!

ونقلت وكالة "رويترز" عن مسؤول في "الحركة" أن مقاتليها يلاقون صعوبة في التوغل داخل المخيمات "لأن المقاتلين الفلسطينيين يستخدمون أنفاقاً تحت الأرض للاختباء وإعادة التجمّع". ووصف الأنفاق بأنها "مدينة كاملة تحت الأرض".

وأعلنت حركة "أمل" أنه "ليس مسموحاً بأن ترتفع بندقية فلسطينية في وجه لبناني" ورفضت رفضاً قاطعاً عودة عرفات إلى لبنان

في أية صورة كانت، سياسياً أو إعلامياً، "كما رفضت أيّ أمن خـــاص للمخيمات، لأن ذلك يعني "تكريس دولة في قلب دولة".

تم التوصل إلى عدة اتفاقات لوقف النار بين المتحاربين، كـــان الصليب الأحمر خلالها قد تمكّن من الدخول إلى المخيّمات المحاصـــرة ونقل الجرحى إلى الجبل. وقال أحد سكّان مخيم برج البراجنة لمراســـل "رويترز" الذي تمكن من الدخول مع المسعفين: "عشت هنا 40 ســـنة. لكن عليّ الذهاب الآن. لا يستطيع اللبنانيون والفلسطينيون العيش معـــاً بعد هذا. لقد انتهى الأمر بيننا".

خلال المعارك الضارية، وقعت مجـــزرة فـــي "مستشـــفى دار العجزة الإسلامية" قرب مخيم صبرا ضد مقاتلين من "الحركة" وجنـــود من "اللواء السادس" قتل فيها 21 عنصراً. وأكد مصدر مســـؤول مـــن "الحركة" أن أكواب الشاي قُدمت إلى المجموعـــة العســـكرية فـــي "دار العجزة" وأن الشاي كان يحتوي مخدراً أدى إلى تخدير العناصـــر الــــ 21، وجرى القضاء عليهم بعد خروج عدد من المقـــاتلين الفلســـطينيين عبر أنفاق من تحت الأرض. وأضاف المصدر أنه تم اعتقال عدد مـــن الفلسطينيين العاملين في المستشفى للاشتباه بأنهم دسّوا المخدر.

مع استمرار المعارك الضارية بين الطرفين وتقطّع القصف من الجبل، أصبح الوضع داخل المخيمات المحاضرة مأساوياً وكارثياً. فقـــد كتب مراسل وكالة "الأسوشيتد برس" الذي تمكن من دخول مخيم صبرا "أن الجثث لا تزال تحت الركام والمنـــازل المهدمـــة". ونقلـــت وكالـــة

"رويترز" عن جريح فلسطيني نُقل من مخيم برج البارجنة المحاصر: "كُنّا نَذبح القطط والكلاب لنحصل على الطعام ونشرب من مياه المجارير. ونقلت وكالة الـ AFP عن ضابط في اللواء السادس أنه لم يبق في مخيم شاتيلا المحاصر أكثر من 300 مقاتل يعملون في رقعة تتراوح من 150 إلى 400 متر. ولاحقاً سُمح بإدخال قافلة تموين تحمل خبزاً وموادّ غذائية إلى مخيم برج البراجنة المحاصر. وكان المسؤول العسكري العام للحركة، عقل حمية، قد هدّد بإحراق المخيمات بعد مقتل أخيه في المعارك.

بعد شهور من الاشتباكات والمعارك العنيفة والتدمير شبه الكامل لمخيمي "برج البراجنة" و"صبرا وشاتيلا"، وسقوط أكثر من 1817 ضحية بين قتيل وجريح، تم التوصل إلى اتفاق في دمشق على تنظيم الوجود الفلسطيني في لبنان ووقف القتال الدائر حول المخيمات الفلسطينية، وكُلّفت لجنة "التنسيق المشتركة" المنبثقة من اتفاق دمشق الإشراف على سحب المسلّحين من محاور القتال، وعلى إزالة المتاريس والدشم وسحب الأسلحة الثقيلة والمتوسطة من المخيّمات ورفع الأنقاض والتحصينات، وانتشار عناصر من قوى الأمن الداخلي على مداخل المخيمات.

انتهت "حرب المخيمات" يومها وانتهى الكابوس المرعب. لكن هل كانت هذه الحرب بنت ساعتها؟ أم كان لها خلفيات وأبعاد أكثر؟ وما هي خلفياتها وتراكماتها؟

جاء الفلسطينيون إلى الضاحية الجنوبية سنة 1950 فتجمعوا واستقرّوا في برج البراجنة حيث أقيم لهم مخيّم على تلة رملية قريبة من طريق المطار. في البداية لقي الفلسطينيون من المحيط كل الحفاوة والترحاب، بسبب التعاطف الكبير مع مأساتهم. فكانت العلاقات بنازلي المخيم جيدة، واتسمت بالودّ المتبادل، ولم يعكّر صفوها سوى بعض الإشكالات الفردية التي كانت تحدث من وقت لآخر بين شباب المخيّم وآخرين من أهالي المنطقة. غير أنها بقيت إشكالات محدودة النطاق ولم يكن لها أن تعبّر عن حالة عامة من النفور والعداء أو الضيق بالنازلين الجدد في أوساط أهل المحلة.

فالنازلون الجدد يومها كانت أمارات الضعف غالبة على صورتهم، وبسبب ذلك، لم يكونوا لأهل المنطقة مصدر تهديد واستفزاز. بل كان أهل المنطقة يرون في وجوههم حالة موقتة وعابرة لا بدّ أن تعقبها عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم، واطمئنان الطرفين إلى حتمية حصول هذا الأمر عاجلاً أم آجلاً، جعل الفلسطينيين من جهتهم لا يطلبون أكثر من الإقامة وحسن الجوار.

ظلت هذه الحال على ذلك إلى أن جاء العام 1967، وتحديداً شهر حزيران الذي شهد هزيمة الجيوش العربية أمام الجيش الإسرائيلي واحتلال الأخير المزيد من الأراضي في فلسطين ومصر وسوريا والأردن، مما كان له الأثر الكبير على طرفي العلاقة: اللاجئين الفلسطينيين وأهل الضاحية الجنوبية.

بالنسبة للفلسطينيين جاءت هزيمة 1967 لتبدّد ما كان يرسخ في ذهنهم من أن العودة إلى فلسطين معقودة اللواء على الجيوش العربيـــة. أسهمت الهزيمة في ارتفاع حظوة المقاومة في أوســـاط الفلســـطينيين، بشهادة عمليات الالتحاق الواسعة بالمقاومة الفلسطينية يومها. أما بالنسبة لأهل الضاحية فكان أول ما فعلته هزيمة 67 أن أسقطت صفة الموقّــت عن اللاجئين الفلسطينيين. وما زاد من حدّة الأمر وبعث القلق في نفوس الأهلين عسكرة الوجود الفلسطيني الذي تبدّى في طفرة الانضمام إلـــى المقاومة الفلسطينية وسط أبناء المخيمات، إلى حد أنه صار يوجد فـــي كل بيت في المخيم بين مقاتل وثلاثة مقاتلين فلسطينيين. وهذا أدى إلـــى رجحان كفّة أهل المخيم على أهل محيط المخيمات.

ولاحقاً تمكن المسلّحون الفلسطينيون من انتزاع المخيم من سلطة الدولة، وشيئاً فشيئاً راحت سلطتهم تتمدّد خارج حدود المخـــيم لتشـــمل جواره. بديهي أن الجوار، لا سيّما المسلم الشيعي، لم يرق له الأمر في البداية ولم يستطع الإقرار بأن من كانوا مسودين عليهم أضـــحوا هـــم سادتهم، لكنهم في خاتمة المطاف رضخوا للأمر الواقع وماشوه علـــى خفر. وبعد الاجتياح الإســـرائيلي عـــام 1982 وانســـحاب المقـــاتلين الفلسطينيين، لم ترجع الأمور إلى سابق عهدها، وكان الشباب الشـــيعة من المهاجرين جاهزين للحلول مكان الفلســـطينيين والســـيطرة علـــى الأوضاع. فبعد أن حكمت المخيّمات المحيط، جاء الوقت ليحكم المحيط المخيّمات من جديد.

قبل الاجتياح عام 1982، حصل العديد من الإشكالات بين المقاتلين الفلسطينيين وأهالي محيط هذه المخيمات، خاصّة في منطقة برج البراجنة، مما زاد النقمة والحقد على هؤلاء "الغرباء".

ففي شهر كانون الأول عام 1969، وبأمر من قيادة الكفاح المسلح تحرّك عنصران في مهمّة لإحضار أحد المطلوبين اللبنانيين من سينما راديو، الواقعة قرب مخيم برج البراجنة، ولما رفض الشخص المطلوب مرافقة عناصر الكفاح إلى مقرّهم داخل المخيم حدث إطلاق نار كانت حصيلته قتل شخص وإصابة آخرين بجراح... وفي 13 كانون الأول 1969 حدث خلاف بين ثلاثة شبان من آل الحركة وبين أعضاء في إحدى التنظيمات الفلسطينية تجمهر على أثره فريق من آل الحركة في ساحة البلدة وما هي إلا دقائق حتى احتل أعضاء ذلك التنظيم سطوح المنازل المجاورة منذرين الجميع بإخلائه وإلا استخدموا أسلحتهم. غير أن وجهاء البلدة وعدداً من ممثلي المنظمات الفدائية الأخرى توسطوا لتسوية الخلاف، واتفقوا مع المسلحين على عقد اجتماع عند رئيس البلدية لمصالحتهم مع الفريق الآخر. وحين حضر الشبّان المطلوبون إلى مكتب رئيس البلدية وصل عدد من المسلحين الفلسطينيين وأمروا الشباب بمرافقتهم إلى مخيم برج البراجنة حيث حكم عليهم بالسجن لمدّة يوم واحد، ولم يطلق سراح الشبان الثلاثة إلا بعد تمضية فترة العقوبة والتعهّد بالتزام الهدوء وعدم التعرض للفلسطينيين مرّة أخرى.

مع اندلاع الحرب الأهلية عام 1975 سيطرت المنظمات الفلسطينية على كافّة الأوضاع في الضاحية الجنوبية، وحكم يومها المخيم المحيط وليس العكس. وكثرت مضايقات وتجاوزات المقاتلين على الأهالي، حتى انتشرت النكتة وسط أهالي برج البراجنة: "إذا اختلفت امرأة من زوجها تذهب وتجلب له الكفاح!!!"

وراحت تترسخ مع الوقت عصبية أهلية شيعية ضدّ سيطرة المنظمات الفلسطينية في أحياء الضاحية الجنوبية، وانتشرت بين الأهالي روايات عن تعدّيات هذه المنظمات بعدما كانت قد نشبت مواجهات دامية بين "الحركة" وهذه المنظمات في قرى الجنوب اللبناني.

الحرب الأخرى التي ضربت الضاحية الجنوبية في الصميم وتسبّبت بالمزيد من الضحايا والدمار وحدوث موجات تهجير كانت الحرب التي اندلعت بين "حركة أمل" و"حزب الله" عام 1988 وعرفت بحرب "أمل – حزب الله" أو "حرب الإخوة". خلّفت هذه الحرب أكثر من 132 قتيلاً و676 جريحاً، وأدت إلى سقوط "الحركة" والسيطرة التامة "للحزب" على الضاحية الجنوبية. كانت "حرب الإخوة" حرباً بالوكالة: "الحركة" قاتلت للحفاظ على النفوذ والسيطرة السورية، بينما حارب "الحزب" لتكريس السيطرة والنفوذ الإيراني في الضاحية الجنوبية.

استمرت "حرب الإخوة" لأكثر من 10 أيام اندلعت خلالها اشتباكات عنيفة وتخللها عدة اتفاقات لوقف إطلاق النار وأدّت إلى

حركة نزوح كثيفة إلى خارج أحياء الضاحية باتجاه بيروت والجنوب والبقاع. وخلال المعارك تعرّض منزل العلامة السيد محمد حسين فضل الله لإطلاق نار مما أدى إلى إصابة عدد من حراسه وقتل أحدهم. وكانت تصدر بيانات من الطرفين تتبادل الاتهام بخرق وقف النار. وانطلقت تظاهرات نسائية في أحياء الضاحية تطالب بوقف الاقتتال وتدعو المقاتلين إلى إلقاء أسلحتهم. وشاركت السفارة الإيرانية والقيادة السورية في اتصالات التهدئة، وتمّ التوصّل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار على أثر اتصال هاتفي بين الرئيس السوري حافظ الأسد والرئيس الإيراني السيّد علي خامنئي. ووجهت اللجنة الأمنية المشتركة التي انتشرت في الأحياء نداءات عبر مكبّرات الصوت دعت فيها المسلحين إلى عدم إطلاق النار.

وأعلن رئيس جهاز الأمن والاستطلاع للقوات السورية العاملة في لبنان، غازي كنعان، عن قرار دمشق الدخول إلى الضاحية لوقف الاقتتال الدائر منذ 10 أيام بين أمل وحزب الله، وتنفيذ خطة أمنية كتلك التي نُفِّذت في بيروت الغربية. ومهّد كنعان لدخول الضاحية بنداء وجهه إلى أهالي المنطقة والطرفين وصف فيه ما يجري بأنه "اقتتال مجنون". وهدّد في حديث لوكالة الصحافة الفرنسية "أن سوريا جاهزة لاقتحام الضاحية الجنوبية إذا لم يُفتح بابها أمام قواتها".

بعد هذه الحرب، مال الناس إلى جانب "الحزب" وتعاطفوا معه بعد الذي عانوه من تجاوزات وتشبيحات بعض شباب "الحركة" الذين راحوا يحاكون سلوكيات المسلحين الفلسطينيين وتجاوزاتهم، مع فارق

جوهري هو ضعف الموارد المادية لديهم، قياساً بما كان متوفّراً للفلسطينيين، وخاصّة بعد انتشار أعمال السطو المسلح وفرض الخوّات والتعدّيات، ممّا أوجد حاجزاً ضعيفاً بين "الحركة" وبين الأهالي. أما "الحزب" فلقي تعاطفاً وانحيازاً من الأهالي أثناء المعارك. في وقت كان الخطاب الديني يلقى صدىً وتجاوباً من الناس. وحاول "الحزب" الاستفادة من أخطاء الأحزاب الأخرى والقوى التي تناوبت السيطرة على الضاحية وركّز جلّ مجهوده على كسب ودّ ورضى الناس.

عاش أهالي "الحيّ" يوميات ومآسي "حرب المخيمات" ثم "حرب الإخوة" بصبر وجلد، وعانوا من قسوة المعارك التي جرت في الأحياء والشوارع القريبة، ومن القصف العشوائي من الجبل من مدافع وراجمات "أبو موسى". كثرت صور الشهداء على الحيطان وارتفعت على أعمدة الكهرباء صور لشبّان عرفوهم وعاشوا بينهم. لم يكن سهلاً عليهم رؤية صور هؤلاء الشباب معلّقة على الحيطان مع عدّة سطور تسرد سيرة حياتهم وبطولاتهم. كثرت مناسبات التعزية والمجالس العاشورائية. وأصبحت عادة ارتداء الأسود بين نساء ورجال "الحيّ" مشهداً مألوفاً.

انقسم سكّان "الحيّ" خلال "حرب الحركة – الحزب". انقسموا انقساماً حاداً لأول مرّة، ووصلت الأمور إلى اندلاع المشاكل بين الإخوة في البيت الواحد، وانتشرت الأخبار والروايات عن إخوة من عائلة واحدة تبادلوا أطلقوا النار في المعارك أو أثناء مشادات كلامية في البيت العائلي.

أبو ناصر كان شديد الحزن في تلك الفترة، وخاف كثيراً على أولاده: علي وناصر. فالأول كان متعاطفاً مع "الحركة" والثاني كان متحمّساً "للحزب". كثرت مشادّات الاثنين في البيت، لدرجة أن أبو ناصر اضطرّ إلى تهديدهما بإطلاق النار عليهما: "شوفو يا..." كان يصرخ محاولاً وضع حد للجدال والصراخ، "إذا بدكن تضلّو هيك، لح بقوصكن بإجريكن، وهيك برتاح وبطمّن بالي". كان أبو ناصر يتخلى عن حياده ويبدي برأيه سراً أمام أمّ ناصر في المسألة فيقول لها قبل خلودهما إلى النوم، أن شباب "الحزب" "أوادم... والله أوادم، وما بيتعدّوا ع حدا".

مناسبتان كانتا تجلبان معهما مزاجاً جديداً ومناخاً مختلفاً، وتفرضان جواً مغايراً على أجواء "الحيّ" كل عام. رمضان وعاشوراء.

خلال شهر رمضان، كان كل سكّان "الحيّ"، كباراً وصغاراً، يلتزمون بالصيام من الفجر حتى المغرب. يصبحون أكثر تديناً والتزاماً، يصلّون أكثر ويستمعون للقرآن، حيث كانت الآيات القرآنية تُسمع من عدة بيوت في الوقت نفسه... فيسود جوٌّ من الإيمان والورع والهدوء والسكينة. وعند وقت الإفطار، يختفي الأولاد من أزقّة وزواريب الحي، وتنتشر وتتخالط روائح الطبيخ والطعام الطازج في الأرجاء مما يزيد من جوع الصائمين المنتظرين صوت الآذان. عندها يسود الصمت ولا تُسمع سوى أصوات الملاعق والشوك والأفواه تلتهم الطبق المفضل: الفتّوش.

أحبّ أبو ناصر شهر رمضان، خاصة عند وقت الإفطار، عندما تجتمع كل العائلة حول المائدة. كان حريصاً على تأدية صلاته قبل الإفطار. فالصلاة بالنسبة له كانت أكثر من واجب ديني. كانت غذاءً

روحياً ومعنوياً يساعده على تحمّل أعباء الحياة وهموم العائلة. فعندما كان يتوضّأ ويقف على سجادة الصلاة في اتجاه القبلة: "الله أكبر"، يصبح العالم خلفه. كانت الصلاة تجعل منه إنساناً مطمئناً، منسجماً مع نفسه، مستخفاً بالحياة "الزائلة والفانية"، وواثقاً أن الله إلى جانبه، فيتعزز صبره وإيمانه.

حرصت أمّ ناصر في شهر رمضان على تحضير إفطار شهيّ ومقبول من الجميع. وبمساعدة بناتها الثلاث: غالية، عالية، وندوة، كانت تجهد كي يكفي الطعام كل أفراد العائلة ففي أول شهر رمضان تكون السفرة عامرة، ومع اقتراب نهاية الشهر تتقلّص السفرة إلى صنف واحد. وكان أبو ناصر يكيل لها المديح أمام الأولاد: "أمّ ناصر أحسن طباخة في العالم... تسلم ديّاتك". هذا المديح كان يأتيه مع المزاج الجيد. "والله أمّ ناصر بتعرف تنقّي الخضرا والفاكهة من وشّ الصحارة... والله اللحام بيغش إمو، بس ما بيقدر يغشها". أحبّت أمّ ناصر سماع هذه التعليقات من زوجها من وقت لآخر، مما جعل الأمسيات الرمضانية أحلى أوقات العائلة وأطيبها.

كباقي البيوت في "الحيّ"، يأتي دور كوب الشاي والحلويات من "محلّ البرجاوي" بعد الإفطار. "فمحلّ البرجاوي" يكتسب أهمية خاصة خلال شهر رمضان. يقصده السكّان لشراء الحلويات والناس تأتي من الأحياء البعيدة ويتجمهرون أمام باب المحل، والمعلّم البرجاوي يحاول يائساً تنظيم الوضع داخل المحلّ المليء بالزبائن المستعجلين شراء

حاجاتهم قبل الأذان. الأضواء كلها على "البرجاوي" في رمضان، "الله يرزقو... مش عم يلحق شغل".

بعد صيام شهر كامل، يأتي عيد الفطر. يرتدي الأولاد ثياباً جديدة، وتُسمع أصوات المفرقعات في أجواء الحيّ وفي زواريبه. وينزعج الكبار من أصوات المفرقعات فينهالون بالسباب على الصبية المشاغبين الذين يركضون في الأزقّة وفي أيديهم أسلحة بلاستيكية وقداحات. يتبادل الناس التهاني بالعيد ويتزاورون– الصغير يزور الكبير – بعد زيارة مقابر أقاربهم وغسل القبور في الصباح الباكر مع الحرص على وضع الريحان قرب الشواهد.

في عاشوراء يحصل العكس. إنه وقت الحزن والحداد. فهي مناسبة لإحياء ذكرى، والتعبير عن الحزن والأسى لاستشهاد الإمام الحسين الذي ذُبح بوحشية منذ حوالى 1400 سنة مع عائلته وأصحابه، على يد جيش يزيد بن معاوية في كربلاء في العاشر من تشرين الأول سنة 680م (10 محرّم 61 هجرية). ففي عاشوراء يرتدي "الحيّ" كله اللون الأسود، تعبيراً عن الحزن والحداد، يمضي الناس أمسياتهم يستمعون إلى سيرة استشهاد الإمام الحسين. ويمتنعون عن سماع الموسيقى أو إقامة الأعراس.

فالإمام الحسين هو حفيد الرسول محمد، وابن ابنته فاطمة وابن عمّه علي بن أبي طالب. بعد وفاة الرسول، بدأت مرحلة من الصراع

على السلطة. اجتمع الأنصار الذين كانوا يسكنون المدينة في مكان اسمه سقيفة بني ساعدة واختاروا منهم سعد بن عبادة كي يكون قائدهم. من جهة أخرى، لم يوافق المهاجرون الذين هاجروا مع الرسول لم يوافقوا. علي ومعه عائلة الرسول لم يحضروا الاجتماع وتم تجاهلهم. كان علي فقيراً وغير شعبي في الأوساط الأرستقراطية القريشية. وأدى الاجتماع إلى اختيار أبي بكر الذي كان من المهاجرين إلى المدينة. علي، من جهته، لم يبايع إلا بعد 6 أشهر من وفاة فاطمة. واتخذ أبو بكر وعمر، الخليفة الثاني، علياً مستشاراً لهما. خلال حكم عثمان، الخليفة الثالث، حصل العديد من المشاكل في مصر والعراق بسبب أخطاء ارتكبها عمّاله. وكان عثمان قد عيّن ولاة من عائلته. وأدت المشاكل وحالات العصيان إلى محاصرة منزل عثمان حيث قتله المهاجرون لاحقاً. وكان هذا الحدث نقطة تحوّل هامة في تاريخ الإسلام. ومن هنا بدأ الانقسام يأخذ شكلاً مغايراً.

اختير علي للخلافة. لكن معاوية في دمشق، وهو كان ابن عمّ عثمان، رفض الاعتراف بخلافة علي ودخل في عدّة حروب معه. بعد مقتل علي (قتل أثناء الصلاة في جامع الكوفة)، توصّل معاوية إلى اتفاق مع الإمام الحسن أحد أبناء علي لإيقاف سفك الدماء. لاحقاً قُتل الحسن مسموماً.

بعد وفاة معاوية أرسل يزيد رسوله إلى الحسين طالباً البيعة. رفض الإمام الحسين المبايعة وقرر التوجّه وعائلته إلى العراق وهو يعلم أن يزيد كان يخطّط لاغتياله. وكان أتباع والده ومؤيدوه قد راسلوه

من العراق من قبل، طالبين منه التوجّه إليهم مع وعود بتأمين الحماية له. فقرر الإمام ترك المدينة إلى مكة ثم عبر الصحراء إلى الكوفة. في طريقه إلى كربلاء، التقى الإمام بالشاعر الفرزدق وكان الأخير قادماً من الكوفة فسأله الإمام: كيف تركت الناس؟ فأجاب: "يا أبا عبد الله، إن الناس قلوبهم معك، وسيوفهم عليك".

جمع يزيد جيشاً كبيراً وجهزه تجهيزاً جيّداً، وعيّن عبيد الله بن زياد حاكماً على الكوفة. كان ابن زياد رجلاً قاسياً. وما إن وطئت قدماه الكوفة، عمل على خطّين: التهديد وشراء الناس بالمال. فقام باعتقال رسول الإمام الحسين وابن عمه مسلم بن عقيل وقتله. ثم أرسل يزيد بجيشه، بينما أرسل ابن زياد بجيش لمحاصرة الإمام الحسين وعائلته ومنعهم من تغيير مسارهم حتى وصول جيش يزيد. وتراجع الإمام إلى كربلاء. حاول الإمام إقناعهم ولفت نظرهم بأنهم يحاصرون أطفال ونساء الرسول، لكن الجيش رفض السماح لهم بالمرور. وقالوا له بأن عليه أن يستسلم بالكامل لابن زياد. وبعد رحلة طويلة في الصحراء، أصيبت جماعة الإمام بالعطش الشديد لكنهم مُنعوا من الوصول إلى مياه الفرات. في العاشر من محرّم، هاجم جيش يزيد مخيم الإمام الحسين فاستشهد مع أفراد عائلته ومناصريه.

مثل كل سكّان "الحيّ"، كان أبو ناصر وأمّ ناصر يقعدان في غرفة الجلوس الصغيرة كل مساء ويستمعان إلى سيرة استشهاد الإمام. كانت دموعهما تنهمر تلقائياً، فالمناسبة عزيزة عليهما. هما اعتادا على ذلك منذ كانا طفلين. كانت عاشوراء جزءاً من حياتهما وضميرهما وقد

توارثاها من جيل إلى جيل. كانت عيونهما تحمرّان وتتورّمان من البكاء على الحسين وأهل بيت الحسين، "البكاء على الحسين كان حلالاً". فكل محبّ لأهل البيت يجب أن يبكي ولو دمعة واحدة على الحسين خلال حياته". و"كل دمعة سوف تنجيه من النار". كانت دموعهما غزيرة وصادقة، وكان الناس يدعوهما إلى المجالس خصيصاً كون "دمعتهما سخية".

في الليلة الأولى، كانا يديران الكاسيت ويستمعان إلى سيرة استشهاد رفاق الحسين: الحرّ الرياحي وحبيب بن مزهر وغيرهما. والليلة الخامسة كانت تخصص لاستشهاد مسلم بن عقيل. وفي الليلة السادسة، يكون البكاء على استشهاد القاسم بن الحسين. ثم يأتي دور استشهاد العبّاس بن علي "قمر بني هاشم" والمشهور بمحاولته البطولية لجلب الماء لأخيه وعائلته العطشى. وفي الليلة الأخيرة يكون البكاء حاداً عند سماع: "يا ليل طوّل ساعاتك..." وهو مخصص لاستشهاد الإمام الحسين.

في اليوم العاشر يصل بكاء أبو ناصر وأمّ ناصر إلى الذروة، فيبدآن بلطم صدورهما تعبيراً عن الحزن الشديد والندم. ثم يلعنان يزيد بن معاوية والشمر، قاتل الحسين: "الله يلعنك يا يزيد"، "الله يلعن ظالمي أهل البيت"، "يا ليتنا كنا معك فنفوز فوزاً عظيما".

مأساة كربلاء لها تأثيرها النفسي والديني على الناس المحرومين الذين يعيشون في الأحياء الفقيرة والمعدومة. فأبو ناصر وأمّ ناصر،

كغيرهما من سكّان "الحيّ"، وجدا في عاشوراء التي توارثاها عبر الأجيال ملاذاً وتخفيفاً لمعاناتهما، خاصّة في الأوقات الصعبة. أعطت عاشوراء، وهي المناسبة المليئة بالطقوس، الناس إحساساً بالثقة بالنفس والهدوء ساعدهم على تجاوز المصاعب. ففي كل سنة بعد عاشوراء، كان الناس يشعرون بأن همّاً ما قد نزل عن أكتافهم، وبأن أحزانهم ومشاكلهم بدت سخيفة مقارنة مع بلاء الإمام الحسين وأهل بيته. فمن عانى وتعذّب أكثر من الإمام وأهل بيته؟ وهل كانت هناك تجربة أكثر مأساوية من تجربته؟ كانوا يشعرون بأنهم محظوظون ومقصّرون، مقارنة مع ما حصل للإمام. هكذا، كانوا يتعاطفون معه إلى أقصى الدرجات. هو كان مثلهم: مظلوماً. وهم أيضاً كانوا في حياتهم مظلومين. ففي عاشوراء، يتذكر أبو ناصر أحزانه وإخفاقاته: يتذكر موت أمه، واختفاء أخيه، أبو عباس، وكل مشاكله وهمومه.

الاحتفال بعاشوراء في الضاحية هو حديث العهد نسبياً. ففي الماضي القريب لم يكن مسموحاً إقامة المجالس العاشورائية علناً وبشكلٍ واسع. وأيام الحكم التركي، كانت الدولة التركية تمنع التجمّعات. فلجأ الناس إلى الحيلة. فكانوا يجلبون عريساً وعروساً ويوزّعون شبّاناً على المفارق ورؤوس الشوارع على مستديرة شاتيلا وساحة قرانوح (ساحة الغبيري). فإذا ما أطلّت الدورية التركية أرسل الشباب إشارة عن طريق إنارة المشاعل إلى منظّمي المجلس العاشورائي. فيبدأ الطبل والزمر وينقلب المأتم الحسيني عرساً. وما إن ترحل الدورية حتى يعود كل شيء إلى حاله.

أول من أحضر مراسم عاشوراء إلى الضاحية الجنوبية كان الحاج الخنسا الذي أقام أول مجلس عزاء في منطقة الغبيري. الحاج الخنسا ولد لعائلة فلاحين في قرية النبي شيت في منطقة بعلبك. العائلة تكوّنت من خمسة أولاد، وكان الحاج الخنسا قد تعلّم القراءة والكتابة على يد شيخ البلدة، وكان من أفضل فرسان المنطقة. جاء إلى بيروت سنة 1928 للعمل في ميدان سباق الخيل كونه كان خبيراً في الخيول. استقر الحاج الخنسا مع عائلته في منطقة الغبيري القريبة من ميدان السباق، ثم عيّنه هنري فرعون رئيس إسطبل الخيول. في العام 1938 قرّر الحاج زيارة النجف وكربلاء في العراق. وعندما رجع إلى الغبيري، استقبل استقبال الأبطال، وأصبح يُعرف في المنطقة باسم الحاج الخنسا. وفي العراق، شاهد كيف يحيي الشيعة العراقيون عاشوراء وتأثّر بما شاهده هناك. وعندما رجع من زيارته إلى كربلاء والنجف، قرر الحاج الخنسا إحياء مراسم عاشوراء علناً لأول مرّة في منطقة الغبيري في السنة القادمة (1939) وأعلن منزله "حسينية" واستقدم القرّاء والشعراء للمناسبة، وتجمّعت الحشود حول منزله. وفي عدة مناسبات، كانت الحشود تندفع بحماسة في اليوم العاشر إلى الشوارع المحاذية والناس تبكي وتضرب صدورها. وأغلب المشاركين كانوا من أهل الريف الذين قدموا حديثاً إلى المنطقة. وقد اشتكى يومها السكّان الشيعة من أهل المنطقة المحليين للسلطات، معتبرين أن إقامة هذه الشعائر علناً سوف يؤدي إلى تخريب العلاقات السلمية التي كانت سائدة مع جيرانهم السنّة منذ زمن بعيد. لكن السلطات رفضت التدخّل، حفاظاً على حرية ممارسة المعتقدات الدينية.

بعد "حرب الإخوة" دخل الجيش السوري وسيطر على الضاحية، ودخلت البلاد في "مرحلة الوصاية السورية".

بدايةً رحّب الناس بالقادمين الجدد ورموهم بالأرز لأنهم وضعوا حداً للحرب الطاحنة بين "الحركة" و"الحزب". ومع انتشار المخابرات السورية في كل مكان، أصبحوا مصدر خوف واحترام في نفس الوقت، وصاروا يتدخّلون في كل شيء، وقد شجّعهم الناس على ذلك: في الخلافات السياسية والعائلية بين الناس، في الصفقات التجارية، وحتى في الخلافات الزوجية. وقيل يومها إنه "إذا اختلفت امرأة مع زوجها تلجأ إلى السوريين!".

عائلة أمّ علي بهية المكوّنة من عشرة أولاد هي من أكثر عائلات "الحيّ" فقراً ومنزلها المؤلّف من غرفة أرضية واحدة هو الأكثر تواضعاً. أما المطبخ والحمّام فكانا عبارة عن غرفة واحدة مسقوفة بالتنك خارج المنزل. والمجلى كان قائماً خارج المنزل، فأمّ علي بهية كانت المرأة الوحيدة في "الحيّ" التي تجلي خارج دارها.

مجلى أمّ علي بهية كان مشهوراً في الحيّ، ويقع على الطريق مباشرة. كانت تستمتع بالجلي ومتابعة ما يدور من حولها. وهي غالباً ما شوهدت تجلي صحونها وطناجرها القديمة المتآكلة ثم تعلّقها على حبل غسيل أمام بيتها. كان المشهد غريباً: الصواني والطناجر وأوعية البلاستيك معلقة على الحائط، إلى جانب ملابس أمّ علي الداخلية الممزقة التي لا زالت تحتفظ بها منذ يوم دخلتها. كيلوتات كبيرة الحجم ومخروقة كالمنخل، لكن بيضاء نظيفة. ملابس داخلية أصبحت أكبر حجماً مع مرور الزمن. كان أهل الحيّ ينتقدونها مراراً على "هذا المنظر المعيب"، لكنها لم تكن تهتم لتعليقاتهم، فلديها ما يكفيها من هموم، وعائلتها تنام في الغرفة الضيقة "راس دنب" أي "الرأس إلى جانب الأرجل" كي يستوعب المكان الجميع".

أمّ علي بهية – رمز الشقاء والشحار – كانت تجلس أمام بيتها على كرسيّها البلاستيكي، تراقب الداخل والخارج. لم يكن أحد يتخيل "حيّ المطلّقات" من دونها. كانت تعرف الجميع، تفاصيل حياتهم اليومية، وتعرف ماضيهم ومشاكلهم، أفراحهم وأتراحهم. تجلس كل يوم أمام مدخل "الحيّ" وكأنها حارس بلا أجرة. تراقب، تصرخ بالأولاد المشاغبين عندما يحاولون اللعب بأغراض مطبخها المعلّقة على الحائط المقابل لبيتها. وهي أغراض عزيزة على قلبها، فهي تعود إلى الأيام الأولى من زواجها.

ومما ساعدها على الصمود والاستمرار، قدرتها الفائقة على الصبر والتحمّل ومزاجها المرح، مع ميل إلى السخرية والتهكم. كانت

تمازح الجميع، خاصة الكبار والمتقدّمين في العمر. من جهته، أبو ناصر، لم يكن يتحمل مزاحها، وكان يعتبرها حشرية وتتدخل في كل شيء. مرّة قالت له: "يا أبو ناصر... أيمتا بدّنا ناكل معمول؟" (وهذه النكتة كانت متداولة في "الحيّ" بين كبار السنّ، وتعني أن أحدهم يتمنى موت الآخر). وفي اليوم التالي، أكل أبو ناصر المعمول في عزاء أمّ علي بهية! ماتت "ناطورة" حيّ المطلّقات، تاركة كرسيها البلاستيكي الأبيض على باب منزلها، كأنه ينتظر عودتها في أية لحظة! "الله يرحمك يا أمّ علي"، قال أهل "الحيّ"، "كيف بدنا نعرف أخبار الحيّ بعد اليوم؟"

برزت مشكلة في "الحيّ" بعد وفاة أمّ علي بهية: من سوف يسكن بيتها؟ فهي كانت تعيش وحدها بعد وفاة زوجها، وزواج كل أولادها. حتى بناتها المطلّقات لم يعدن للعيش معها. ظهرت على السطح المشكلة القديمة بين عائلة أبو ناصر وعائلة أبو كامل من جديد. فالأول رأى أن بيت أمّ علي هو من حقه، في حين رأى أبو كامل أن البيت من حقه هو. حميت المنافسة بين الطرفين، وراح كل منهما يحمس أولاده ويدعوهم إلى التحرك. انقسم الحيّ بين الطرفين: البعض رأى أن منزل المرحومة يعود لأبو ناصر، والبعض رأى أنه من حق أبو كامل. حاولت العائلتان استشارة محامين في المسألة، لكن بسبب ضيق الأحوال المادية، عدلت عن الأمر. ووصلت الأمور إلى مشكل كبير عندما حاول أبو كامل مصادرة مفتاح المنزل بالقوة من أولاد المرحومة. منعه أبو ناصر، وتطوّر الأمر إلى مشكل أمام منزل أمّ علي. علا الصراخ بين "العديلين اللدودين": أعداء الأمس واليوم وكاد أن يتحوّل إلى "مد

الأيدي". تدخّل المصلحون من أهل الخير وانتهى المشكل دون إصابات.

سُوّيت مسألة "بيت أمّ علي بهيّة" حبيّاً في النهاية. لم يستولِ عليه أبو كامل الذي كان يأمل بأن يسكن فيه إحدى بناته بعد غياب زوجها للعمل في العراق. ولم يحصل عليه أبو ناصر الذي كان يفكر بضمه إلى منزل ابنته عالية فيكون لها غرفة إضافية بعد أن كثر أولادها وضاق عليها البيت. بقي المنزل غير مأهول، مشاعاً، تسكنه ذكريات وأغراض المرحومة أمّ علي بهية.

الجيل الثاني من فتيات "الحيّ" كان مسكوناً بأحلام مغادرة "الحيّ" والتخلص من الفقر والحرمان، عبر الزواج من عرسان أغنياء يأتون من خارج المنطقة "بسيارات حديثة وبذلات جميلة". كنّ يحلمن بالانتقام من الواقع المأساوي، في حين كان أهلهن يتمنّون لهن مستقبلاً أفضل، وشهادات عالية، وعيشة هنية مع عريس "آدمي وابن حلال". ثلاث فتيات حاولن المستحيل وباءت محاولتهن بالفشل: فريال، ابنة أبو كامل، وسامية وناهد، بنات جميلة، أخت أمّ ناصر. الأولى تزوجت وطلّقت أكثر من مرة. الثانية تزوجت وطلّقت أربع مرات، ثم اختفت من الحيّ وبقي مصيرها مجهولاً. والثالثة لم تدخل القفص الذهبي وانتهت في السجن. تابع أهل "الحيّ" أخبارهن يوماً بعد يوم، وكن نجمات "حيّ المطلّقات" دون منازع.

بداية كتبت فريال كتابها على شابّ جذّاب وعسكري في الجيش. كانت مرحلة خطوبة جميلة وواعدة، مليئة بالأحلام والمشاريع. فجأة، اختفى العريس ولم يعد يأتي لزيارتها. قالوا إنه هرب إلى سوريا بعد تورّطه بصفقة بيع أسلحة. وقالوا إنه تزوج هناك واستقر. وفريال بقيت

لا معلّقة ولا مطلّقة. انتظرت المسكينة لأشهر، لسنوات، دون نتيجـة. فعلت المستحيل كي تحصل على طلاق مـن المحكمـة، وبعـد عـدة محاولات ورحلات مضنية والبحث عن "العريس المختفي" في الشـام، استحصلت فريال على طلاقها وكُتب عبارة: "مطلقة" على إخراج قيدها. كم هي صعبة هذه العبارة في "الحيّ" وكم هي مكلفة لفتاة فـي ربيـع عمرها؟ فريال لم تستسلم بسهولة. تعرفت على شـاب جديـد وتقـدم لخطبتها. وافق الأهل على الخطوبة لكن دون "كتب كتاب" هذه المـرة. وأصبح الخطيب الجديد يعرف باسم "علي يلّي بدو فريال". لكن الخطوبة لم تؤدِّ إلى الزواج بسبب سوء تفاهم حصل بين فريال وحماتها. "حماتي شلّوفة وقوية... ما فيي عيش معها" كانت فريال تقول أمام أهل الحـي. انتهت الخطوبة على الرغم من أنهما كانا قد قاما بشراء فرش الصالون وغرفة النوم. أصبح "علي يلّي بدّو فريال" من التاريخ. بعـده تعرفـت فريال إلى إسماعيل – عسكري في الجيش أيضاً. "والله إسماعيل رجّال، كله رجولة ببدلته العسكرية المرقطة". أخيـراً تزوجـت فريـال مـن إسماعيل وأثمر زواجهما صبياً بصحّة جيدة. ثم كثرت المشـاكل بـين الزوجين، وكانت فريال تحرد وتعود إلى منزل أبيها "زعلانة". يتـدخل المصلحون، وتعود فريال إلى بيتها الزوجي بعد التوصل إلى الصـلحة. "يا عمّي فييش عيش مع رجّال عم بيخونّي مع الجارة"، كانـت فريـال تقول لأهلها وإخوتها. "إسماعيل رجال خاين ونسونجي كمان". طلبـت فريال الطلاق. وافق إسماعيل، شرط أن تتنازل عن الصبي. وافقـت، فأخذ إسماعيل ابنه معه إلى كندا، وعادت فريال مطلّقة هذه المرة إلـى منزل أهلها. لم تعد ترى ابنها أو تعرف مكانه. عضّت علـى جرحهـا

وشجعها أهلها على ذلك. ففي "حـــيّ المطلّقـــات" لا مجـــال للمواقـــف الضعيفة أو المتخاذلة. "والله فريال بعدها حلوة ومليون شب بيتمناهـــا". وهذا ما حصل. فبعد سنوات اشتغلت فريال في معرض للسيارات فـــي بيروت وكانت ناجحة في عملها "وكسّيبة". "والله فريال شـــاطرة وقـــد حالها". ثم شغّلت مبلغاً من المال كانت وفّرته من عملها وأصبحت تديّن الناس لقاء فائدة معينة. استدان منها الكثير من الناس في "الحيّ". حتـــى أن عالية، ابنة أبو ناصر، استدانت منها وكانت تسدّد لها آخر الشـــهر. وهذا ما أحرج أبو ناصر الذي كان يصعب عليه أن يرى ابنته تســـتدين من ابنة "أبو كامل" في آخر هذا الزمان".

كبرت ثروة فريال وصارت تساعد إخوتها المحتاجين وتصرف على عائلتها، ولولاها لما تمكنت أمها من إجراء عدة عمليات جراحيـــة ودفعت فريال كل مصاريفها. أخيراً تزوجت فريال من جديد. فعلتها هذه المرة وتزوجت من "دكتور". نعم "دكتور" على سنّ ورمح. يا لـــه مـــن انتصار وإنجاز عظيم في "حيّ المطلّقات"! فريال تتزوج مـــن دكتـــور وترفع رأس أهلها في الحي. شرط العريس الوحيد أنه لا يريـــد أولاد. فهو أرمل وأولاده متزوّجون. "أولو شرط آخرو نور". عاشـــت معـــه فريال سعيدة في شقته في برج البراجنة، واستفاد أهل الحيّ من خدماته ونصائحه الطبية التي كانت تصيب أحياناً ولا تصيب مراراً.

جُرح فريال الوحيد الذي نغّص حياتها واستمرت تعـــض عليـــه كان ابنها الوحيد الذي لم تعد تراه أو تسمع صوته منذ طلاقها من أبيـــه ذلك اليوم في المحكمة الشرعية. كبر الصبي وأصبح شاباً في كندا بعيداً

عنها. اشتاقت له كثيراً وندمت لقرارها بالقبول بالتنازل عنه لصالح أبيه. حلمت به كل ليلة، ولم تجرؤ بالحديث عن أحلامها تلك لأحد من أفراد عائلتها. ألم يمتدحوها لقوتها وجبروتها يوم تنازلت عنه. لكن ذلك كان في البداية. أتعبتها الأيام وأضناها الفراق. جزء منها كان يعيش ويكبر على هذه الأرض بعيداً عنها. "سوف يصبح رجلاً يوماً ما"، كانت تقول في سرّها. "لح يكبر على كرهي لتركي له. لح يكون رجّال قاسي بلا رحمة مثل أبوه. مين بيعرف، يمكن يجي يوم ويبزق ع وجي". "ليش تركتيني... إنتِ إم! إنتِ مش إم... أنا بكرهك... بكرهك". تحولت هذه الأفكار إلى كوابيس تأتيها كل ليلة. كان الألم والشعور بالذنب والندامة ثقيلاً على فريال لدرجة أنها صارحت يوماً زوجها الذي تفهّم وضعها ووعدها بالخير. "إن شاء الله رح نسافر أنا وإنتِ ع كندا وبتشوفيه". استمرت فريال تحلم بلقاء ابنها الوحيد يوماً ما، وبقي الحلم أملها الوحيد. بعد سنوات، عادت فريال لتعيش في بيت أهلها بعد طلاقها من الدكتور.

سامية ابنة جميلة، من جهتها، ضربت الرقم القياسي بالطلاق. تعلّمت وحصلت على شهادة جامعية من الجامعات الجزائرية. كانت الوحيدة في "الحيّ" التي تملك شهادة جامعية في حين كانت فتيات "الحيّ" بالكاد يصلن إلى مستوى البروڤيه. كانت فخر عائلتها وهذا دفعها إلى الغرور والمشاوفة. تقدّم لها العديد من شبان المنطقة لكنها كانت ترفض. "بدي دكتور". أليست هي الفتاة الجامعية ومستواها الفكري والتعليمي يؤهلها بالزواج من دكتور! غريب أمر تعلّق فتيات

"حيّ المطلّقات" بالزواج من دكاترة! من أين كانوا يأتون بالفكرة؟ ربّما من الأفلام والمسلسلات العربية التي كن يتابعنها بكثرة مما فرض على عقولهن ثقافة التفوق والنجاح من خلال الارتباط "بدكاترة". "ليكِ يا سامية، لح يجي يوم وتوقعي على راسك شكّ"، كانت خالتها أمّ ناصر تحذرها من مساوئ الغرور وشوفة الحال.

أخيراً حصلت سامية على "دكتورها" وتم الزواج. كان للعرس طنة ورنة وخرجت من منزل أهلها بالبذلة البيضاء ورأسها مرفوع وسافرت إلى ألمانيا. بعد سنوات عادت سامية إلى "الحيّ" وبطنها أمامها. "شو صار؟" اختلفت مع زوجها الذي أراد أن يطلقها ليرتبط بامرأة ألمانية كي يحصل على الجنسية الألمانية. فرفضت سامية. ولدت الصبي وحصلت على الطلاق. لم تتعب ولم يدخل اليأس قلبها وتعرّفت على "دكتور" آخر، تزوّجت منه، وأنجبت منه صبيّاً وبنتاً. هذه المرة كان حضرة "الدكتور" عاطلاً فأساء معاملتها وراح يضربها ويعاملها بعنف. أصبحت الحياة معه مستحيلة. طلبت الطلاق وحصلت عليه. لكنها عادت وتزوجت من جديد. بقيت هوية العريس غامضة في "الحيّ". البعض قال إنه "دكتور" آخر، والبعض قال إنه رجل أعمال، والخبثاء قالوا إنه يتعاطى تجارة المخدرات. المهم أن الرجل ثري واشترى لها شقة فخمة. فجأة اختفت سامية من "الحيّ" ولم تظهر من جديد. انتشرت الإشاعات والأقاويل حولها، ومنها أنها دخلت الحبس. تبخّرت من "الحيّ"!

بعد سنوات، ظهرت في "الحيّ" فجأة ومعها سجلّ عدلي مطبوع عليه: "لا حكم عليه". كانت تحمل السجلّ العدلي وتدور من بيت إلى آخر وتريه للناس معلنة براءتها ولاعنة كل من تجرأ بالتحدث بالسوء عنها ولطخ سمعتها. وكانت تردد فرحة أمام أهل "الحيّ": "يقبرني ابني... بدو يعمل "دكتور" متل أبو".

الفتاة الوحيدة التي لم تتزوج ولم تدخل "القفص الذهبي" في "حيّ المطلّقات" كانت ناهد، أخت سامية. عاشت كالراهبة في منزل أهلها القريب من منزل أمّ علي بهية. أمضت حياتها تدرّس في مدرسة ابتدائية في برج البراجنة قبل الظهر، وتعتني بأولاد إخوتها علي وسامية بعد الظهر. كانوا يعتبرونها بمثابة أمهم ويطلبون منها كل ما يشتهون. عاشت على التضحية والعطاء. اعتنت بأبيها قبل وفاته وكذلك فعلت مع أمها عندما مرضت وبركت في البيت. الكل كان يتوقّع منها الكثير، وهي لم تطلب إلا القليل. لم تكن تهتم "بالثرثرة وكثرة الحكي" مثل باقي نساء "الحيّ" وكانت تعيش حياة شبه معزولة. "بنت آدمية، بس ما إلها نصيب" كانوا يقولون عنها.

في أحد الأيام، جاء الخبر كالصاعقة: "ناهد بالحبس!!!" لم يصدق أحد الخبر في البداية. "معقولة ناهد بالحبس!"

التهمة محاولة تهريب مخدرات. اعتقلت في المطار. بعد خسارتها لوظيفتها كمعلّمة، وقعت في ضائقة مادية صعبة. "لعبوا بعقلا أولاد الحرام". حكم عليها بالسجن لعشر سنوات.

كانت حياة السجن صعبة ولا تطاق النسبة لناهد، خاصة في الأيام والأشهر الأولى. فعندما أُدخلت من بوابة السجن الكبيرة أحسّت بالاختناق الذي تضاعف عند بلوغها الباحة الخارجية حيث ترتفع الأبنية المحصّنة بأطنان من الحديد الأسود. إنها نوافذ الزنازين ومنها تدلّت ثياب رثّة ومقتنيات أخرى لا يمكن تمييزها. ضاق المكان بفوضاه وزحمة سجيناته، ففاض ببؤسه. أطبقت الباحة على صدرها وشعرت أن ألف عين ترصدها. إنهنّ السجينات. عجزت عن تمييز ملامحهن بسبب ترسانة الحديد التي تقطع تفاصيل وجوههم. شعرت بمئات النظرات الشاخصة وأحست للمرة الأولى أنها متّهمة. شعرت بخوف فظيع.

في البداية لم تتمكّن من التأقلم مع الحياة الجديدة في السجن الذي أصبح الآن بيتها، وسيكون كذلك للسنوات العشر القادمة. لم تكن تفهم الأنظمة المعمول بها ولا حتى الكلمات والألفاظ المتداولة. فكلمة "قاووش" كانت تعني غرفة السجن، و"شراقة" كانت تعني الشباك الحديدي الصغير لباب الزنزانة؛ و"الشاويش" هو السجين الذي تختاره إدارة السجن لمتابعة قضايا المساجين؛ و"الخادم" هو السجين الذي تختاره إدارة السجن للقيام بأعمال التنظيف والطبخ؛ و"المواجهات" تعني المقابلات بين السجناء والزوار من أهل وأصدقاء. والسجين مسموح له بثلاث زيارات في الأسبوع، وبإمكانه التحدث مع زائره عبر الهاتف يفصل بينهما حاجز من الحديد والزجاج ومدة الزيارة هي 15 دقيقة فقط. وكلمة "دخول" تعني السجين الجديد وهو في أدنى المراتب بين السجناء لجهله بأنظمة السجن. كان عليها أن تتعلم كل ذلك وبسرعة.

وجدت ناهد في السجن عالماً غريباً قائماً بحد ذاته. فالسجناء يحقّ لهم الخروج إلى "الفراندا" فقط لساعة ونصف في النهار. فقط السجناء المرضى بإمكانهم البقاء لساعتين. في البداية، لم تتمكن من التأقلم مع وضعها كسجينة. "أنا مش متل هيدول الناس"، كانت تقول في سرّها، "ما بدي أتعاطى معهن، لح ضلّني في زنزانتي". كونها كانت تعتبر "دخول" بدت الأمور صعبة عليها وواجهت مشاكل وصعوبات جمّة.

احتوت الزنزانة الواحدة على سرير واحد مثبت في الأرض، وعلى مغسلة واحدة، وحفرة عبارة عن تواليت من دون باب يفصلها عن الزنزانة. مساحة الزنزانة 180 سنتم عرضاً و230 سنتم طولاً. وهي مخصصة لاستيعاب سجين واحد، لكنها كانت تضم من 4 إلى 5 سجينات. الرائحة لا تطاق خاصة أن التواليت كانت من دون عازل. كانت ناهد تصاب بالإعياء كل الوقت وهي الحريصة على النظافة وكانوا يسمونها "بالمسرسبة" في "الحيّ" لحرصها على النظافة والطهارة. وكونها "دخول" أجبرت على النوم قرب التواليت. كانت تنظف التواليت والزنزانة كل يوم بمطهّرات وأدوات تعقيم أحضرها لها أهلها.

بعض السجينات اللواتي كن يتمتعن "بواسطات" كن محظوظات وكن يعاملن بطريقة مختلفة من قبل الحراس. كان يسمح لهن بالخروج وقت إضافي في الفراندا، واستقبال المزيد من الزوار في الأسبوع،

والحصول على المزيد من السجائر، وهي العملة المتداولة في السجن. قالت لها إحدى السجينات مرة: "أنا هون منّي شي. أنا متل بقية السجينات. بس إنتِ ما بتعرفيني برا. أنا برا أميرة. عندي شغلي وزبايني وسيارتي وزوجي... كلها كم سنة وبعود لمجدي".

مع الوقت، تأقلمت ناهد مع حياة السجن وأصبح لها صديقاتها وعلاقاتها مع سجينات أخريات خاصة في زنزانتها. أصبحن مثل الأخوات، تشاركن في الطعام والمقتنيات والخبريات. "كل شيء هون ملكنا كلنا" قالت لها زميلتها. "نحنا 7 روس براس واحد... ويلي بيصير بهالغرفة بيضلّ هون. ما لازم يضهر شي من الشراقة أبداً".

وجدت ناهد صعوبة في التمكن من النوم في الزنزانة الضيقة. فكانت السجينات ينمن وفق طريقة "التسييف" أي بشكل ملاصق قرب بعضهن البعض. وبوجود جهاز تلفزيون في الزنزانة، كانت بعض السجينات يفضلن السهر، مما منع الأخريات من النوم بسهولة. وكانت ناهد تخاف من التعرّض لاعتداء جنسي بسبب تكرار هذه الاعتداءات في زنزانات أخرى. وأخبرتها صديقاتها عن اعتداءات حصلت وعلاقات جنسية محرمة خاصة بين السجينات اللواتي يمضين فترة سجن طويلة. كانت السجينة تتورط بعلاقات تُسمّى بلغة السجن "الأرنبة".

ثلاثة أمور كانت محرّمة في السجن: "العلاقات الجنسية، واستخدام مواد ممنوعة، والمشاكل بين السجناء. "مع الوقت والكثير من

الصبر، اعتادت ناهد على حياتها في السجن، لكنها اشتاقت إلى "الحيّ" وناسه وأخباره. اشتاقت كثيراً إلى أولاد إخوتها وأخواتها. حتى أنها اشتاقت إلى أبو كامل الذي سبّها ولعنها في أحد الأيام مشيراً إلى عضوه "الذي سوف يعوض عليها عنوستها". ضحكت ناهد عندما تذكّرت أبو كامل وجلوسه الدائم مقابل بناية الدقماق. غريب كيف يحنّ الإنسان إلى الأمكنة التي عاش فيها وحتى إلى الناس السيئين؟ كأن البعد والمسافة يلغيان ويمحوان كل المساوئ والذكريات الأليمة.

كانت تنتظر كل مساء إلى السماء عبر شباك زنزانتها الصغير وتتساءل إذا كان أهل "الحيّ" يرون السماء نفسها والنجوم نفسها. كانت تتساءل: "ترى شو عم بيعملو هلّق... وشو عم يقولو عني؟" كان أمامها وقت طويل من الانتظار. توقّف الزمن في الزنزانة. وكل ما لديها الآن تلك الزيارات الجميلة والتي كانت تنتظرها بفارغ الصبر من أقاربها وأفراد عائلتها الذين وكّلوا لها محامياً شاطراً، علّه يتمكن من تقصير فترة سجنها.

الحلونجي "البرجاوي" وأبو ناصر جيران منذ زمن بعيد. فهما أول من سكن في "الحيّ" وقاما ببناء أول البيوت الحجرية ذات الطوابق العلوية قرب شجرة الصنوبر المطلّة على معمل "جلّول". هذا المعمل الذي أغلقته "الدولة" على أثر فضيحة حول نظافة وسلامة منتجاته. بيوتهما كانت قريبة من بعضها البعض: فمن منزل أبو ناصر كان بالإمكان رؤية وسماع ما يدور في منزل البرجاوي، والعكس صحيح. وبسبب الجغرافيا والجيرة الطويلة تابعت العائلتان أخبار وتفاصيل بعضهما البعض. حصلت بعض الإشكالات بينهما أحياناً لكنهما بقيا جيران بحكم الواقع. ففي إحدى المرات، وقع مشكل بين أمّ ناصر وزوجة البرجاوي. علا صراخهما وتدخل البرجاوي وكان أبو ناصر غائباً عن البيت. حاول البرجاوي يومها اقتحام منزل العائلة وهو ما كان يعتبر إهانة كبرى وتجاوزاً للخطوط الحمر. كانت أمّ ناصر له بالمرصاد ودافعت عن أولادها وبيتها بشراسة. فضربت البرجاوي بعصا خشبية على رأسه. تراجع والدماء تسيل من رأسه. عند المساء، قام البرجاوي بزيارة منزل أبو ناصر معتذراً وأحضر معه كيلو بقلاوة هدية للأولاد. حُلّ المشكل يومها، وعادت الأمور إلى مجاريها بين جيران الأمر الواقع.

الحلونجي البرجاوي كان المموّل الأساسي للمياه في "حيّ المطلّقات". فمن البئر المحفورة قرب محلّه، شرب أهل الحيّ واستحمّوا في ظل الانقطاع الدائم للمياه. ومن حنفية البرجاوي عند مدخل "الحيّ" امتدت النرابيش فوق السطوح والمنازل: نحو منزل أبو ناصر، ومنزل أمّ علي بهية، ومنزل أبو كامل، ومنزل ابنته سناء وغيرهم. كان المشهد غريباً في سماء "الحيّ": النرابيش تتشابك مع الأسلاك الكهربائية المحدودة لسرقة الكهرباء من "الكابل التحتاني". وعندما كان موتور سحب المياه يتعطّل، كانت الدنيا تقوم ولا تقعد في "الحيّ". "يا عمّي الواحد ما في يعيش من دون مي"، "دخيلك يا حج صلّحلنا هالموتور..." ثم يتم تصليح الموتور بسرعة، وتعود المياه إلى "نباريشها".

زوجة البرجاوي عانت من مرض عصبي مزمن. لم يترك طبيباً أو مستشفى إلا وأخذها إليها. حاول المستحيل لمساعدتها ومعالجتها دون جدوى. كانت تصرخ بطريقة هيستيرية في الليل وتوقظ "الحيّ" كله. وقال الناس إنها مسكونة بالأرواح الشريرة. حتى البرجاوي نفسه صدّق ذلك لفترة. "اطلعوا منها ولا... يلا اطلعوا منها..." كان يصرخ وهو يضربها في محاولة منه لإخراج الأرواح الشريرة دون جدوى. وكانت عائلة أبو ناصر تتابع مأساة البرجاوي كل ليلة وتسمع الصراخ والبكاء. لاحقاً أخذ البرجاوي زوجته المريضة إلى طبيب متخصّص في الأمراض النفسية وصف لها بعض الأدوية. استفادت بعض الشيء، لكنها بقيت تعاني من نوباتها العصبية، وصبر هو على وضعها الصعب.

أبو ناصر كان له اهتماماته الخاصة ومنها "جمعية العيلة". فكل عائلة في المنطقة كان لها جمعيتها الخاصة. كل جمعية كانت تحاول أن تساعد أفرادها في ظل غياب الدولة. فلماذا لا يكون لعائلة أبو ناصر جمعية خاصة؟

خصص أبو ناصر الكثير من وقته للاجتماعات العائلية. كل تفكيره صار للجمعية. "بكرا عنا اجتماع... لازم نلمّ مصاري للمحتاجين..." ضاقت أمّ ناصر من تفرغ زوجها لأمور وشجون جمعية العائلة، خاصة عندما أحضر إلى البيت أعداداً كبيرة من الكراسي البلاستيكية المخصصة لعقد الاجتماعات. "وين بدنا نحطّ الكراسي؟" في البداية وضعها أمام مدخل المنزل ولضيق المساحة، نقلها بمساعدة ولديه إلى بلكون منزل ابنه علي. وأمضوا نهاراً كاملاً ينقلون الكراسي وأمّ ناصر تتأفّف وتكبت تذمّرها وعدم رضاها عن الوضع. أعطى أبو ناصر الكثير من وقته للجمعية، صار يدور على بيوت الأقارب لجمع التبرعات والدعوة للاجتماعات. وكم كان يفرح عندما تقرر الجمعية الاجتماع في منزله، كان يشعر بالفخر كونه محطّ أنظار العائلة. لكن أمّ ناصر كانت ترفض لضيق المساحة وعدم قدرتها على خدمة المدعوين الكثر، قهوة، شاي، والكثير من الدخان. عُقد الاجتماع الأول في منزل ابنه علي. ترخيص الجمعية وتسجيله عند "الدولة"، ويجب إصدار بطاقات، ودفاتر تبرعات، ويجب، ويجب..." ما كان ناقصو همّ أبو ناصر". ووقعت المشاكل عندما استولى أحد الأعضاء على صندوق الجمعية وتصرّف بمبلغ من المال لإجراء عملية زرع كلية لابنه

المريض. "يا عمّي شغل الجمعيات كلّو وجع راس"، قالت له أمّ ناصر يوماً، "شو كان بدك بالهشغلة".

ومما زاد وجع الرأس عند أبو ناصر سفر ابنه ناصر إلى ليبيا للعمل في حدادة السيارات، بعدما ضاقت به الأحوال وخفّ الشغل بسبب الأوضاع الأمنية الصعبة. غياب ناصر عن البيت كان دائماً يترك أثراً سلبياً ومحزناً للعائلة، وعلى أمه خاصة. أصرّ ناصر يومها على السفر إلى ليبيا مع شلّة من أصحابه بهدف العمل وجمع مبلغ من المال. طال غيابه، وظلت أمّه تبكي كل ليلة وتبلل دموعها الوسادة وهي تبثّ شوقها وحنينها لبكرها الذي سافر بعيداً من أجل لقمة العيش. تحول حديث أبو ناصر وأمّ ناصر على المخدّة كل ليلة إلى مناسبة للبكاء. "طمني بالك يا رقية" قال لها أبو ناصر "لح سافر إلى ليبيا وأطّمن على الصبي... طمني بالك... بركي بقدر هرّب معي شوية مصاري وما بيروح تعب الصبي ضيعان".

وجد أبو ناصر ابنه البكر يعيش عيشة مزرية في أرض الغربة. أكثر من عشرة أشخاص يعيشون في غرفة واحدة، وربّ عملهم يجبرهم على العمل أوقاتاً إضافية. "بركي الصبي بيتعلم من كيسو" فكر أبو ناصر، "ألم يقل الرسول: "اخشوشنوا، إن النِعم لا تدوم". اطمأن أبو ناصر على ابنه ونقل إليه أخبار العائلة وشوق أمه له وسلامات إخوته وأخواته. وكان ناصر قد وفّر بعض الشيكات بمبالغ لا بأس بها بالعملة الصعبة وطلب من أبيه أن يحاول تهريبها إلى خارج ليبيا.

فكّر الجميع، وكانوا مجتمعين في الغرفة، في كيفية تهريب الشيكات. "شو رأيكم نحط الشيكات في السواكير في علبة الدخان" قال لهم أبو ناصر مقترحاً. أعجب الجميع بالفكرة، وأمضوا الليل يفرغون السجائر من محتوياتها ويخفون الشيكات ثم يلفونها من جديد ويضعونها في علبة السجائر الخاصة بأبو ناصر.

في اليوم التالي، ودّع أبو ناصر ابنه والشباب متّجهاً إلى المطار وعائداً إلى بيروت. في المطار، ارتبك أبو ناصر بعض الشيء عندما طلب منه رجال الشرطة الليبيون الدخول إلى غرفة التفتيش. خاصة أنه غير معتاد على مواجهات كهذه.

"شو فّي معك يا حج؟" سأله الضابط الليبي.

"ما في معي شي" ردّ باختصار وقام بوضع كل مقتنياته على الطاولة أمام الضابط بعد أن طلب منه ذلك.

"شو عم بدخن سواكير لبنانية؟" قال الضابط بتهكم، وطلب منه سيجارة كي يجربها.

أخذ الضابط علبة السجائر وخرج من الغرفة وعاد بعد دقائق.
"سألناك يا حج إذا معك شي وقلت بس سكاير" قال له الضابط بعصبية والشيكات بيده.

عندها وجد أبو ناصر نفسه مضطراً إلى قول الحقيقة. "يا عمّي والله الأوضاع ببلدنا مش منيحة أبداً وأنتو بتعرفوا. وابني إجا لهون ليطلّع شوية مصاري لحتى يساعد أهله... ونحنا أوضاعنا صعبة وبحاجة للمصاري..." حُجز أبو ناصر لساعات ثم أطلق سراحه لاحقاً.

وصلت الطائرة إلى مطار دمشق ليلاً بعد تعذّر الهبوط في مطار بيروت لأسباب أمنية. وفي المطار احتجزته السلطات السورية لخمس ساعات بعد أن اشتبهوا به ووجدوا أن اسمه مطابق لاسم شخص مطلوب. بقي أبو ناصر يتوسّل عناصر المخابرات ويحلف لهم أنه لم يفعل أي سوء في حياته ولم يدخل في أي حزب. في آخر الليل، دخل عليه أحد العناصر، وسمح له بالخروج بعدما تم التأكد من اسم أمه الذي أنقذه.

وصل منهكاً ومتعباً فجراً إلى "الحيّ". استقبلته أمّ ناصر مستغربة، واستيقظ الجميع على صراخه وهو يلعن الليبيين والعرب أجمعين.

في النصف الثاني من شهر أيار سنة 2000 دخل "الحيّ" والضاحية الجنوبية والبلد كله في مرحلة من الفرح والإحساس بالعزّة الوطنية والشعور بالنصر لم تعرفها البلاد منذ زمن. انسحب الجيش الإسرائيلي من الجنوب اللبناني المحتل تحت تأثير سلسلة من العمليات النوعية والبطولية التي قامت بها المقاومة. فشهد العام 2000 أول انسحاب إسرائيلي من أرض عربية بالقوة. كان الانسحاب مذلاً للإسرائيليين ولعملائهم، ونصراً بطولياً للشعب كله وللمقاومة و"للحزب" بقيادة السيد حسن نصر الله. سادت البلاد أجواء الفرح والاحتفال، وعاد الناس إلى أراضيهم المحتلة وضيعهم وقراهم وهم غير مصدّقين بعد غياب قسري دام 22 سنة. وأُعلن الخامس والعشرون من أيار عيداً وطنياً.

في تلك الفترة لم يتزحزح أبو ناصر، كغيره من أهل الحي، من أمام شاشة التلفزيون وراح يستمع بشغف بالغ للمذيع يقرأ الأخبار العاجلة:

"لقد تمكن رجال المقاومة من اغتيال قائد اللواء الغربي في جيش لبنان الجنوبي المدعوم من إسرائيل، عقل هاشم، أمام منزله في الشريط الحدودي. وشكل ذلك ضربة قوية وقاضية، خاصّة وأن هاشم كان مسؤولاً عن العلميات اليومية لجيش لبنان الجنوبي".

"وكانت إسرائيل أعلنت في 24 أيار عن نيتها في الانسحاب من الجنوب اللبناني المحتل على أثر انهيار جيش لبنان الجنوبي وتقدم رجال المقاومة على طول الحدود مع المناطق المحرّرة. مما رفع من معنويات المقاومة وزاد شعبيتها في أوساط الناس وأهل الجنوب خاصة. كان انسحاباً "فوضوياً" ومذلاً، بعد أن قام الجيش الإسرائيلي بتسليم مواقعه "لجيش لبنان الجنوبي" المنهارة معنوياته. راح سكّان القرى الجنوبية يقتحمون مواقع الإسرائيليين بأيديهم العارية، في وقت، احتل رجال المقاومة المواقع التي كان يسيطر عليها "جيش لبنان الجنوبي". انهار الجيش العميل الذي خدم إسرائيل لسنوات خلال ساعات، مع انهيار "الشريط الحدودي" أمام تقدم الأهالي ورجال المقاومة. وقامت الحشود باقتحام "سجن الخيام" وحرّرت سجناء وأسرى المقاومة في مشهد مهيب.

لم يُسجّل وقوع أي حادث اعتداء ضد مدنيين في القرى والبلدات التي دخلتها المقاومة، والتي راح رجالها يصادرون الأسلحة والآليات الثقيلة التي تركها عناصر "جيش لبنان الجنوبي" والجيش الإسرائيلي المنسحب. ووقعت إصابات في صفوف المواطنين بسبب القصف الإسرائيلي الذي حاول تغطية انسحاب عناصر "جيش لبنان الجنوبي".

كما سُجل وقوع اشتباكٍ بين الجنود الإسرائيليين ومئات من العناصر المنسحبة من "جيش لبنان الجنوبي" بعد أن منعوا هؤلاء من دخول المستوطنات الإسرائيلية هرباً من رجال المقاومة وخوفاً من أعمال انتقامية."

وتابع المذيع قراءة الأخبار العاجلة وأبو ناصر لا يشيح بنظره عن الشاشة:

"ومع انسحاب الإسرائيليين، أصيب عناصر "جيش لبنان الجنوبي" بالرعب خوفاً من أن يعتقلهم رجال المقاومة ومن غضب الجماهير والناس الذين ذاقوا المرّ وعرفوا الذل على يد هؤلاء على مدى 22 سنة من الاحتلال. وكان مشهد تمثال سعد حداد والناس تجره على الأرض في بلدة مرجعيون دليلاً أكيداً على رحيل الاحتلال وعملائه.

فرّ مئات من عناصر الجيش العميل مع عائلاتهم إلى إسرائيل. بينما استسلم المئات إلى السلطات اللبنانية. ونقلت وكالات الأنباء أخبار مشادّة حادّة حصلت بين لحد وعناصره الفارين إلى إسرائيل. وطالب هؤلاء "معاملة شريفة" بعد الانسحاب المذلّ. وانتقد لحد إسرائيل علناً واتهمها بإهانة جيشه بعد قيامها بانسحاب سريع من جنوب لبنان. "لقد قضت إسرائيل في 24 ساعة على صداقة دامت 24 سنة"، قال لحد المحبط والغاضب أمام الصحافيين.

وغادر آخر جندي إسرائيلي التراب اللبناني في 24 أيار، وعند الساعة 6:43 فجراً أغلقت كل الأبواب المؤدية إلى إسرائيل، وكان أول يوم من التحرير والحرية لأهل الجنوب.

وأعلن السيد حسن نصر الله، قائد المقاومة، بعد فترة في احتفال أقيم في بلدة بنت جبيل المحرّرة، على بعد ثلاثة كيلومترات من الحدود مع إسرائيل، وأمام آلاف من المواطنين، إن المقاومة أطلقت عهداً جديداً من الانتصار التاريخي، وشدّد على أن "الحزب" لن يأخذ دور "الدولة"، ودعا إلى التعايش بين اللبنانيين. وشدّد على أن هذا النصر هو لكل لبنان، وليس نصراً لطائفة وهزيمة طائفة أخرى.

بعد السيد موسى الصدر، أصبح السيد حسن الأكثر شعبية خاصة في أوساط المسلمين والشيعة. بعد التحرير أصبح بطلاً وأيقونة في عيون الناس. صار الناس يحلفون باسمه، وانتشرت صوره في البيوت، في المحال، في الساحات، مرتدياً عباءته وعمامته السوداء التي تدلّ على نسبه الممتدّ إلى عائلة رسول الله، تلك العمامة السوداء العزيزة على قلوب المسلمين الشيعة والتي تفرض عليهم احتراماً وتقديراً. وانتشرت صوره في الضاحية في كل مكان: على الهواتف الخلوية، على شاشات الكومبيوتر، وعلى صدور الفتيان والفتيات. وعُلقت له صور عملاقة على الأبنية في الضاحية، وكانت خطبه وكلماته تُسمع في سيارات الأجرة وفي الأماكن العامة ومن نوافذ البيوت.

عندما رأى أبو ناصر على شاشة التلفزيون الجنوب يتحرر والدبابات الإسرائيلية تنسحب إلى ما وراء الحدود، لم يصدق. طلب من أولاده إحضار صورة كبيرة للسيد حسن وقام بتثبيتها على حائط غرفة الجلوس إلى جانب صورة السيد موسى، وصور أمه وأبيه.

غالية بنت أبو ناصر أول العنقود وآخر من غادر منزلــه إلــى الحياة الزوجية. الكلّ تزوّج وأنجب: ناصر وعلي وعالية، وحتى نــدوة الصغيرة والمدللة زُوّجت باكراً في سنّ الخامسة عشــة عنــدما هجــم نصيبها. الكلّ أنجب أولاداً وأصبح أبو ناصر وأمّ ناصر جــدّاً وجــدّة. بداية، عندما رُزق ابنه علي صبياً سماه محمد تكريماً لوالده. ثــم جــاء دور ناصر الذي رزقه الله صبياً، وسماه أيضاً محمد تكريمــاً لوالــده، خاصة أنه البكر ومن حقه أن يسمي ابنه على اسم أبيه. ولحل مشــكلة الأسماء، أصبح لديهم "محمد ابن علي" و"محمد ابن ناصر". إلا غاليــة بقيت "صامدة" في منزل أبيها لفترة طويلة، وشبح العنوسة يحوم حولها. "مسكينة غالية بعد ما إجا نصيبها..." وأمّ ناصر بالها مشغول على ابنتها البكر.

"في عريس لــ غالية"، قالت أمّ ناصر لزوجهــا أثنــاء حــديثها الليلي على المخدّة قبل النوم"، "لكن..." ثم سكتت في محاولة منها لجذب انتباهه وتركيزه.

"بس شو" قال.

"العريس من بيروت" قالت بتردّد، "و...".

"وشو..."

"العريس مش منا" أضافت أمّ ناصر دون أن تنظر إليه.

"شو قصدك مش منا" قال أبو ناصر بعصبية، "شو مسيحي؟"

"لا مش مسيحي" قالت، "هوي... هوي... سنّي".

صمت أبو ناصر وفقد شهيته بالنوم. لا يوجد أحد في عائلته كلّها، ولا في الحيّ كلّه، متزوج من بيروت! لماذا ابنته بالذات! ابنته غالية! التي كان يعوّل عليها كثيراً والتي وقفت إلى جانبه في أحلك الأوقات وأصعبها، والتي لم تتسبّب له بوجع الرأس في يوم من الأيام. "غالية بدها واحد سنّي!؟!".

كانت أمّ ناصر تشعر بالقلق على ابنتها من العنوسة كلما خرجت عروس بالبذلة البيضاء من "الحيّ" وهي تودّع أهلها بالدموع. "إنتِ بنتي مندورة لمار منطانيوس" كانت تقول لابنتها بحزم، "ولازم تلبسي راهبة لأربع سنوات". لكن غالية العنيدة كانت ترفض ذلك، ورفضها كاد يتسبب بعنوستها. "كان لازم تلبسيني راهبة وأنا صغيرة مش هلق وأنا في الثلاثين".

أخذتها أمها إلى الحاجة أم أحمد – وهذه كانت مشهورة في منطقة البسطا التحتا لقدرتها على "رؤية المستقبل وكشف المستور". كان بيتها قديماً والغرف الداخلية مزينة بالآيات القرآنية والضوء كان خافتاً. دخلا عليها وهي جالسة القرفصاء أمام جرن كبير يتصاعد منه الدخان، وفي يدها مسبحة تتمتم كلمات غير مفهومة. أصيبت غالية بالرعب ونقلت العدوى إلى أمها على الرغم من معرفة الأخيرة بأم أحمد وزياراتها السابقة لها.

"شو إسمو" سألتها أم أحمد بصوت لا يخلو من الجدية. "اسمو زكريّا"، قالت أمّ ناصر، بينما جلست غالية إلى جانبها ترتعد من الخوف.

تمتمت المرأة ببعض الكلمات الغامضة، ثم قالت لأمّ ناصر بعد تردد: "الصبي آدمي... بس ما تعطيه كل شي بيطلبو" قالت وهي تنظر إلى غالية.

خرجت الأم وابنتها من بيت أم أحمد. غالية كانت سعيدة بالأخبار الجيدة عن حبيبها وأمها مشغولة البال حول العبارة الأخيرة. "الله يستر من هالزيجة" قالت في سرّها. "في شي مش مضبوط!".

غالية كانت في حالة من الترقّب والإثارة للخطوبة المتوقّعة. ذهبت مع أبيها وأمها واشترت من مالها الخاص طقم صالون جديد كي

تكبر في نظر خطيبها وأهله. وفرضت على نفسها رجيماً قاسياً جعلها تبدو أقل سمنة. لم تكن الدنيا تسعها بعد كل تلك السنوات من الانتظار. أبو ناصر بدوره ذهب إلى "السيد" الذي طالما استشاره في القرارات الصعبة. سأله عن إمكانية خطوبة ابنته لشاب سنّي. "ما في مانع" قال له "السيّد" وأضاف "بس لازم تكتب الكتاب في المحكمة الجعفرية في حال حصول الطلاق لا سمح الله". اقتنع أبو ناصر بكلام "السيد" خاصة أنه كان يكره فكرة الطلاق، "أبغض الحلال". فهو كان يتابع مع زوجته الأفلام المصرية ويرى كيف يطلّقون في الأفلام لمجرّد ذكر كلمة "طالق" ثلاث مرات. والعيش في "حيّ المطلّقات" جعله يكره أن يرى في بيته ابنة مطلقة. فلصقت في رأسه فكرة "الكتاب في المحكمة الشرعية".

علم أهل "الحيّ" بقدوم العريس وأهله في اليوم التالي من أجل "الطليبة". أبو كامل كان المعارض الأول. "إذا ستتزوجي سنّي" كان يقول لغالية في محاولة منه لثنيها عن الزواج، "بيطوف قبر أهلك بالدم لأربعين يوم".

عندما حضر زكريّا ومعه أمه في اليوم التالي، كان أبو كامل يخطّط لشيء ما. جاء إلى أمّ عبد، المستأجرة عند أبو ناصر، وذكّرها بحادثة "الحفّة" حيث قتلت ابنتها الصغيرة أثناء حفل خطوبة إحدى بناتها. وقال لها إن أبو ناصر كان وراء الحادثة كي يخرجها من المنزل. فقدت المرأة صوابها وراحت تكيل السباب لأبو ناصر وعائلته. نزل أبو ناصر وأمّ ناصر وبسهولة دخلا في المشكل. علا الصراخ

والسباب. مباشرة فوقهم في المنزل، كان زكريّا وأمه المصدومة ينتظران ويتابعان تطورات المشكل المفاجئ. سمعا كل شيء. غالية كانت تجلس معهم وتحاول إنقاذ الموقف. المسكينة خطّطت كل شيء كي تعطي انطباعاً جيداً "للغرباء" الذين كانوا يأتون إلى "الحيّ" لأول مرة. تمنّت لو تبتلعها الأرض في ذلك الموقف المحرج. فقد سمع العريس وأمه كل أنواع السباب وعياراته، الخفيف والثقيل. كاد أبو كامل أن يحقق خطته بنسف الخطوبة.

عندما صعد أبو ناصر وأمّ ناصر للترحيب بالزوار الجدد وهما في حالة عصبية شديدة، أصبح الجو في الغرفة في غاية الإحراج. العريس وأمه صامتان، غالية تكاد تبكي، والأهل يبررّون الموقف بالمزيد من الصراخ.

هدأ الوضع أخيراً. لم تقل والدة زكريّا أية كلمة. زكريّا بدوره، في محاولة منه لإنقاذ الموقف، قال الجملة المطلوبة بأنهما أتيا لطلب يد غالية بكل اختصار. هو كان يعرف أن غالية لا ذنب لها في الموضوع. خرج العريس وأمه دون شرب القهوة، وفي طريقهما إلى بيروت حاول زكريّا تبرير الوضع أمام أمه المصدومة.

تمّت الخطوبة وأُعلن عنها بصورة رسمية في "الحيّ" بعد أن وافق زكريّا على كتب الكتاب في "المحكمة الجعفرية".

راح العروسان يعملان على تحضير وإكمال بناء منزلهما الزوجي الذي قدّمه أهل غالية وهو المنزل الملاصق لمنزل أمّ علي بهية. تعاون العروسان على إكمال المنزل إلى أن أصبح جاهزاً للسكن.

لم يقم أي احتفال أو عرس بسبب عدم موافقة عائلة زكريّا على الزواج. لذلك جاء زكريّا وحده في ذلك اليوم وأخذ غالية من منزل ذويها في رحلة إلى الشام. كانت المرة الأولى التي تغادر فيها غالية منزل أهلها وبهذه الطريقة. صعب الأمر على أبو ناصر وشعر بالإهانة بسبب خروج ابنته البكر بهذه الطريقة العادية وكأنّ الأمر خطيفة. جاء زكريّا وحده وأخذ عروسه، الغالية على أهلها، خاصّة أباها الذي تعلّق بها منذ ولادتها وعاشت معه أطول فترة. لم يتمّ خروجها وفق الطريقة والعادات البعلبكية حيث العادة أن يأتي العريس ومعه وفد كبير من الأقارب تكريماً للعروس وأهلها. وكلما كان الوفد كبيراً، يكون التكريم والاحترام أكبر. حدث سوء فهم "ثقافي" في ذلك اليوم. تلك لم تكن عادات أهل المدينة على كل حال.

في دمشق، أقام العروسان في فندق فخم. أرادت غالية أن تزور "الستّ زينب"، فأخذها زكريّا الذي أعجب بالمرقد الرائع على الرغم من أن الأمر كان جديداً عليه. الزينة في الداخل رائعة ومكلفة، والمكان يفرض الوقار والسكينة. خرجت من الداخل وعيناها متورمتان من البكاء!!! لم يفهم زكريّا سبب بكاء زوجته حينها.

في "ليلة الدخلة" حصل أمر وجده زكريّا مستغرباً وغير عادي. فبعد عملية "الدخول" أخذت غالية قطعة قماش بيضاء ومسحت الدماء التي كانت تسيل منها، ثم وضعت قطعة القماش الملطخة بالدماء في جزدانها. "ماذا تفعلين؟" سألها باستغراب. قالت له ببساطة "هيدي

"العلامة" أمي قالت لي جيبها معي وهدّدتني إذا ما بعمل هيك". وعند عودتهما إلى "الحيّ" فرحت أمّ ناصر لرؤية "علامة ابنتها". لقد تحدث الناس عن ابنتها غالية أثناء فترة الخطوبة، وبعضهم ذهب بعيداً إلى القول "إنها أُخذت قبل الزواج".

أخذت أمّ ناصر "العلامة" ونزلت إلى الساحة أمام منزل أبو كامل وهي تصرخ "تعوا شوفوا يلّي كنتوا عم تحكوا عن بنتي" وهي تلوح بالقماشة الملطخة بالدم. "تعو شوفوا علامة بنتي الشريفة. نحنا أشرف من الشرف".

عانت أمّ ناصر كثيراً من كلام الناس عن ابنتها وآذاها ذلك وهي تعلم أنها ربّت ابنتها أحسن تربية ووفق الأخلاق والدين، وهالها أن تسمع وتتحمّل الإهانات وطول ألسنة بعض النسوة في "الحيّ"، حتى جاء اليوم الذي تستطيع أن تردّ اعتبارها وتدافع عن شرف عائلتها الذي لم يلطخ يوماً ما.

استقر زكريّا وغالية في المنزل الجديد على بعد أقل من ثلاثة أمتار من منزل أبو ناصر. كان يفصل بينهما زقاق ضيق. وكان بإمكان أمّ ناصر أن تتحدث من شبّاكها مع ابنتها في منزلها. كان هذا مصدر سعادة لها كون ابنتها البكر والحنونة لم تبتعد عنها وبقيت على مرمى حجر.

بعد ولادة ابنهما الأول، وجد زكريّا نفسه غير قادر على الاستمرار في العيش في "حيّ المطلّقات". فهو أمضى شبابه في المدينة حيث للخصوصية أهمية قصوى. لم يقدر على تحمّل رؤية خصوصيته المقدّسة وخصوصية عائلته تُنتهك كل يوم. فالناس يريدون أن يعرفوا كل شيء وأن يتدخلوا في كل شاردة وواردة. وجد نفسه عارياً في "الحيّ". أحس بالعراء الكامل. فليس هناك مجال للخصوصية والاحتفاظ بالأسرار والأمور الشخصية. ففي "الحيّ" ما هو لك، هو في الوقت نفسه لكل الناس. فالملكية الشخصية – سواء مادية أو معنوية – لم تكن موجودة في الأصل. ووجد زكريّا نفسه مضطراً إلى الذهاب إلى السوبرماركت ليلاً كي يتجنب عيون الجيران وألسنتهم، خاصّة أمّ علي بهية المشهورة بحشريتها، "قديش جبت قنينة الغاز يا جار؟ قديش جبت كيلو العنب؟" كانت تسأل دون حرج. مرّة اشترى زكريّا سلّم ألمنيوم كي يستخدمه في البيت، وفي كل مرّة كان يريد استعماله يكتشف أن أحد الجيران استعاره. كل سكّان "الحيّ" استفادوا واستخدموا "سلّم الألمنيوم يلّي جابو زكريّا". فعادة الاستعارة كانت أمراً طبيعياً بين أهل الحي. وفي كل مرّة كان يشتري علبة "بنادول" لولده المريض، كانت النسوة يقرعن باب منزله طلباً لحبّة أو حبّتين "بنادول".

وأكثر ما أزعج زكريّا كثرة المشاكل بين سكّان "الحيّ" خاصّة في فصل الصيف عندما يكون الأولاد خارج المدرسة، ويسهر الناس لساعات متقدمة في الليل. لم يفهم زكريّا كيف أن جيران وأقارب قد سكنوا قرب بعضهم البعض لسنوات طويلة كانوا يتنازعون وتندلع

المشاكل شبه اليومية بينهم لأتفه الأسباب، خاصة الشجار بين الأولاد. فكل مرّة يختلف فيها ولدان، يتحول المشكل بسرعة إلى خلاف كبير بين الكبار، ويعلو الصراخ والسباب من العيار الثقيل.

في أحد الأيام وقع مشكل كبير في "الحيّ" عندما اقتحم عامر، صهر أبو كامل، بيت أمّ ناصر بعدما ضرب أحدُ أحفادها ابنَه. تحول المشكل إلى اشتباك كبير حتى حضرت القوى الأمنية والجيش. لم يصدّق زكريّا ، كل ذلك يدور حوله، وحول بيته، وحول عائلته ممّا عرّض ابنه الصغير للخطر الدائم. لم يفهم لماذا يتصرف الناس "هنا" بعنف وعفوية وخفّة عقل إلى هذه الدرجة. ففي المدينة، حيث عاش في بناية تحوي أكثر من 30 عائلة، لم يكن الناس يتدخّلون في شؤون بعضهم البعض. الكل يعيش متابعاً شؤونه الخاصة بكل سلام. حتى أن بعض الجيران يكتفون طيلة جيرتهم بعبارة: "بون جور" لا غير. وتبقى الـ "بون جور" لسنوات لا تزيد عليها كلمة واحدة.

"ما الذي جاء به إلى هذا المكان؟" كان يسأل نفسه. كانت غالية صريحة معه منذ البداية. فقد أخبرته كل شيء عن "الحيّ": عن مشاكل الناس اليومية وعن المشاكل بين أبيها وأبو كامل وعن حشرية الجيران ونظراتهم التي لا ترحم. لم تكذب عليه غالية أبداً. لكن سماع الشيء أمر، وعيشه أمرٌ آخر.

لم يسمع زكريّا بعاشوراء في حياته في المدينة ولم يكن قد حضر أو سمع أي مجلس عزاء عاشورائي. وحتى عندما تزوج غالية،

لم يعرف الفرق بين السنّة والشيعة. حتى أنه لم يكن يعتبر نفسه "سنيّاً" ولا غالية "شيعية". فهو كان مؤمناً بالعلمانية وفصل الدين عن الدولة. لكن في "حيّ المطلّقات" لم يسمع أحد بالعلمانية ولا بالفصل ولا بالدولة.

جاءت عاشوراء وكانت التجربة جديدة وقاسية عليه. كان يصعد لزيارة بيت عمّه فيرى عمّه وزوجته يبكيان وينتحبان وعيناهما متورمتان محمرتان. ماذا كان يحصل؟ وفي اليوم العاشر، لم يعد يقدر على الاحتمال. الأجواء كانت قاتمة وسوداوية وحزينة جداً وهو أمر لم يكن معتاداً عليه. كان صوت القرّاء يأتي من كل ناحية، من كل منزل، بصوت عالٍ. اختلطت الأصوات ولم يعد يفهم شيئاً. فجأة وجد نفسه يخرج بسرعة من المنزل، ويقفز إلى سيارته، ويقود بسرعة فائقة نحو المدينة.

"شوفي يا غالية" قال لزوجته يوماً. "ما عاد فيي عيش هون. الناس هون مختلفين. إما أن نترك هذا الحي، أو كل واحد بيشوف مصيره". وافقت غالية على مبدأ المغادرة فهي كانت حريصة على راحته وتريد استمرار تماسك العائلة. "خلينا نوفر شوية مصاري" قالت له، "وبعدين بنشوف شو منعمل".

اطمأن زكريّا وشعر بالراحة لتفهّم غالية له. قاما بتوفير مبلغ من المال دفعاه دفعة أولى لشراء شقة قيد البناء في منطقة المريجة. كان كابوس زكريّا على وشك الانتهاء. مشكلته لم تكن مع عاشوراء بل مع

الضجيج والفوضى العارمة والأحداث المرتقبة. لم يكن يستوعب أن ابنه، من شحمه ولحمه، سوف يكبر في "حيّ المطلّقات". هذا الحيّ الذي لم يفهم أهله يوماً. فكلما كان يذهب إلى عمله في المدينة، كان يبقى كل الوقت مشغول البال على ابنه وعلى سلامته.

عندما راح العمال يضعون أغراض البيت في الشاحنة، لم يصدق زكريّا أن كابوسه على وشك الانتهاء. جلس أبو ناصر وأمّ ناصر قرب الشاحنة يشاهدان بأسى نقل المفروشات قطعة قطعة. كانا حزينين، لدرجة أنهما حنقا على صهرهما البيروتي، لأنه تسبب بترك ابنتهما غالية الحيّ تسكن بعيداً عنهما مسافة عشر دقائق في السيارة!!!

بعد ساعات قليلة من ترك غالية وعائلتها المنزل الصغير، جاء صهرهما نور وابنتهما عالية وأولادهما الكثر وسكنوا في المنزل، منسجمين بسرعة فائقة مع أجواء الحي. لاحقاً، عندما كثرت المشاكل بين نور وعالية وعلا صراخهما في الجو، اشتاق الناس، خاصة أمّ علي بهية، لزكريّا وغالية الجارين الطيبين "يلي ما كنا نسمع صوتن".

"شوفي يا رقية" قال أبو ناصر لزوجته وهو يرتشف النسكافيه على شرفة منزله بعد ظهر ذلك اليوم، "الولاد كلهم تزوجوا وصار عندهم ولاد، ونحنا صار لازم نزور بيت الله".

"والله يا أبو ناصر هيدا مناي" قالت. "لازم تشوف السيد وتسألو شو بدنا نعمل وشو لازم نسوي قبل ما نروح عالحج".

لأنه كان لا يزال موظفاً في "شركة طيران الشرق الأوسط، استفاد أبو ناصر من تذاكر السفر مجاناً. هكذا حُلّت المسألة الأهمّ في مشروع الحجّ. وفي اليوم التالي توجه أبو ناصر إلى المحكمة الشرعية في برج البراجنة لمقابلة السيد. عاد حزيناً، عابساً يومها.

"خير، شو قلك السيد"، سألته أمّ ناصر.

"قال لي إنّو لازم أتسامح من كل الناس يلّي بعرفن قبل التوجه إلى الحجّ، وإلا الحجّة ما بتكون مقبولة".

"طيّب وين المشكلة؟ كل الناس في الحـــيّ والمنطقـــة بتحبــك وبتحلف باسمك، وما بحياتك عملت شي غلط أو تعديت على حدا".

"المطلوب أن أذهب إلى أبو كامل وأتسامح منه" قالها أبو ناصر بوجوم.

"أبو كامل...!!!" فكرت أمّ ناصر وقالت مشجعة على عادتها:

"بتعرف شو... روح وتسامح منّو وإنتِ أحسن منّو وإنتِ زلمــة بتخاف الله. ما عندك شي تخسرو. لازم ما يكون في بقلبك أية كراهيــة أو حقد تجاه أي إنسان إذا كان بدك تروح عالحجّ. اتكل على الله وروح زورو... وادفع بالتي هي أحسن".

كان الأمر شاقّاً على أبو ناصر بعد كل تلك السنوات من العداء والجفاء. عداء تراكم وكبر مع مرور الزمن. أبو كامل الذي كان يكرهه ويكره كل أفراد عائلته. أبو كامل الذي لم يكن يطيق منظره، والذي حقد عليه وعلى زوجته التي ورثت الحصة الأكبر من الأرض في الحيّ من عمّتها المريضة. أبو كامل الذي جعل حياته لا تطاق والـــذي اســـتمر يرمي الأحجار في طريقه وعلّم أولاده كره وإيذاء أولاده هو. أبو كامل الذي كان يأنف أن يمرّ قرب منزله. كان الأمر فظيعاً ولا يمكن تخيله. لكن كان عليه أن يذهب إليه إذا أراد أن يزور بيت الله بقلب طاهر، وأن تُقبل حجته كي تمحى ذنوبه ويبدأ حياة جديدة.

فعلها أبو ناصر. قرر زيارة عديله اللدود في داره التـــي تبعــد أمتاراً قليلة عن داره. مشى يومها ببطء شديد وتردّد باتجاه أبـــو كامــل

الذي كان جالساً، كالعادة، على صوفته المعهودة يحملق كالعادة ببناية الدقماق. كان اللقاء مثل المبارزة التي نشاهدها في أفلام الوسترن حين يقف العدوّان وجهاً لوجه في الساحة العامة، ثم يبدآن بالتقدم أحدهما نحو الآخر خطوة خطوة ويديهما قريبة من المسدسات. كانت لحظة حرجة، حتى أن بعض النسوة تركن أعمالهن ووقفن على الشبابيك والشرفات القريبة لمتابعة ما سوف يحصل بين قطبي "الحيّ".

"السلامَ عليكم" بدأ أبو ناصر.

"وعليكم السلام" ردّ أبو كامل دون أن ينظر إليه مباشرة.

جلس أبو ناصر قرب أبو كامل على الصوفة العتيقة وران صمت ثقيل. كان أبو ناصر في حالة إحراج قصوى لدرجة أنه فكّر بالمغادرة وعدم التحدّث. ثم قال فجأة: "ليك يا أبو كامل... أنا بعرف إنّو الأمور بيناتنا ما كنتش على ما يرام من زمان، مع إننا متزوّجين من أختين ونحنا بالحقيقة أقارب". لحظات من الصمت، ثم أكمل أبو ناصر: "أنا نويت روح ع الحجّ إن شاء الله وأنا طالب تسامحني قبل ما روح. يلّي صار صار، وخلينا نفتح صفحة جديدة".

سكت أبو كامل لفترة ثم قال وعيناه مسمّرتان على بناية الدقماق: "إن شاء الله حج مقبول".

عاد أبو ناصر إلى منزله مرتاحاً وكأنّ حملاً ثقيلاً أزيح عن صدره.

انصرف أبو ناصر وزوجته يحضّران للرحلة المنتظرة. اتصل أبو ناصر بالسيد الذي عرّفه على مسؤولة الحملة التي سوف تقودهم خلال مراسم الحج. وكان الزوجان يذهبان إلى المسجد لمتابعة وحضور محاضرات وأفلام ڤيديو عن كيفية الحج ومتطلباته وما هو مسموح وما هو ممنوع. أمّ ناصر من جهتها، حضّرت كل ما قد يحتاجونه من ثياب وملأت الشنطة بمعلبات الجبنة واللحمة وربطات الخبز وبالطبع أدويتهما التي أصبح عددها كبيراً مع تقدّمهما بالسن.

كما قاما بكتابة وصيتهما لدى السيّد وحدّدا فيها توزيع الميراث من الأرض والبيوت على الأولاد. وفي المساء الذي سبق مغادرتهما إلى مكة، أرسلا وراء الأولاد لقراءة الوصية أمامهم. راح أبو ناصر يقرأ الوصية فبكى. وبكت أمّ ناصر بدورها، وبكت الفتيات. خصّصت الوصية الأولاد الذكور بالبيوت، على أن يقوم هؤلاء بدفع مبالغ مالية لأخواتهم بعد وفاة أبو ناصر وأمّ ناصر. والوصي على تنفيذ الوصية، من بعدهما، ابنهما البكر ناصر.

في يوم الرحيل، جاء كل أهل "الحيّ" للوداع، حتى الذين كانت علاقتهم عاطلة مع الزوجين حضروا وتمنّوا لهما رحلة موفّقة والعودة بالسلامة. قاد ناصر السيارة وأوصلهما إلى المطار.

للكعبة مكانة خاصة في مخيلة أبو ناصر. الكعبة التي كانت ولا تزال قبلته منذ أن تعلّم الصلاة صبياً، واستمرّت كذلك حتى أصبح جدّاً. كانت عزيزة على قلبه: "بيت الله الحرام". وهو كان متحمساً ومتشوّقاً

لرؤيتها. ذلك كان حلمه، لكنه لم يكن يتوقع ما حصل له منذ أن وقعت عيناه على الكعبة داخل الحرم.

وقع تحت الصدمة وراح يبكي دون توقّف. لم يقوَ على الحراك أو نطق أية كلمة. فَقَد السيطرة على نفسه.

اجتاحته مشاعر متناقضة من الفرح والحزن على هذه الدنيا الفانية، وراحت الدموع الغزيرة تنهمر على خديه وهو ينظر إلى الكعبة المغطّاة بالقماش الأسود والمزيّن بالآيات القرآنية بخطوط وأحرف مذهبة. كان المشهد مليئاً بالرهبة، والحجّاج من كل أصقاع العالم يطوفون حولها ويرددون "لبيك اللهم لبيك...".

لم يستطع التمييز بين الفقراء والأغنياء خلال مراسم الحج. بدا الناس سواسية في ثيابهم البسيطة من القماش الأبيض، فيما الرؤوس مكشوفة. جاء الناس من كل أصقاع الأرض، من كل الأجناس واللغات ليبدأوا رحلة تطهير الذات والعودة من دون ذنوب.

تأثر أبو ناصر أثناء الحج بدرجة كبيرة في مناسبتين: عندما تمكن من لمس الحجر الأسود في الكعبة، على الرغم من الزحام الشديد والخناق، وعندما وقف أمام قبر الرسول. بكى أمام القبر وراح يقرأ الآيات القرآنية ويدعو لأولاده وأقاربه وكل من تذكّره في تلك اللحظة.

عاد الحاج والحاجة إلى "الحـــيّ" شخصـــين مختلفـــين. كـــان منظرهما مؤثراً ومميزاً عندما قاما بالفشخ فوق الخروف المذبوح أمـــام مدخل الحيّ قرب محل البرجاوي. كان وجهاهما يشعّان راحة وســـكينة في لباسهما الأبيض وآثار الشمس الحارقة واضحة على جلدهما. بـــديا كملاكين طاهرين آتيين من الأرض المباركة حاملين معهما طهارة الحج وسكينته. خرج "الحيّ" كله لملاقاتهما، خاصة أولادهما وأحفادهما. لـــم يشعر أبو ناصر بالسعادة والسلام يغمرانه كما أحسن في ذلـــك اليـــوم. جميل أن يعود الإنسان إلى بيته وكأنه وُلد من جديد، وكأنه عاد نظيفـــاً، خفيفاً، مستعداً لمحبة الآخر وقبوله.

فشخ الحاجّ والحاجّة فوق الخروف وصعدا إلى منزلهما لاستقبال المهنّئين الذي أتوا من كل حدب وصوب. وحرصت الحاجة أمّ ناصـــر على توزيع المسابح، والعطور، وحرصت على أن يشرب كل زائر مياه زمزم التي أحضرتها معها في غالون صغير. وزّعت الحاجة الأكـــواب الصغيرة على الحضور وهي تقول: "هيدي مي زمزم؛ شربوا وادعـــوا لنا". راح أبو ناصر يخبر الحضور عمّا شاهده واختبره في الحج ولـــم ينس شيئاً من التفاصيل الصغيرة وتمنى للجميع الحج في الموسم القادم. "هيدا أحلى مشوار عملتو بحياتي... وعقبال الجميع".

بعد أشهر، سافر الحاج والحاجة إلى العـــراق وإيـــران لزيـــارة مقامات الأئمة وأهل البيت الأطهار. ففي العراق، قاما بزيارة كـــربلاء، حيث مرقد ومسجد الإمام الحسين، والنجف الأشرف حيث ضريح الإمامَ علي وضريح الإمامَ علي الهادي، كما زارا ضريح الإمام موسى الكاظم

وابنه الإمام محمد الجواد في الكاظمية في بغداد. وفي إيران، قاما بزيارة مدينة قم المقدسة حيث مرقد السيدة فاطمة المعصومة بنت الإمام موسى الكاظم.

خلال رحلتهما إلى العراق وإيران، قوي إيمانهما وتعزّز. كان الأمر حقيقياً. كل الأئمّة وأهل البيت الذين آمنا بهم وذكروهما في صلاتهما منذ نعومة أظافرهما كانوا هناك. تأثر الحاج أبو ناصر كثيراً وبكى، خاصة أمام أضرحة الإمامَ علي والإمام الحسين. صلّى كثيراً وقرأ الكثير من الأدعية، وبكى كالأطفال بصدق وعفوية، ودعا للإمام المهدي المنتظر الذي سيظهر آخر الزمان "ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن مُلئت ظلماً وجوراً".

كبر الحاج أبو ناصر والحاجة أمّ ناصر في عيون الناس بعد أن عادا من زيارتهما إلى العراق وإيران. فإلى جانب لقبهما "حجّ" و"حاجّة" أصبحا "الزائر" و"الزائرة". لم يصل أحد في "الحيّ" إلى هذا المستوى الروحي والإيماني من قبل. وصار الحاج أبو ناصر يحلف "وحياة يلّي زرتهن".

في السنة التالية: فاجأ الحاج أبو ناصر الجميع بالإعلان عن رغبته بالذهاب إلى الحجّ مرّة أخرى.

"أول حجّة ما كانت مضبوطة" قالها بحزم وثقة لزوجته: "يمكن الله ما قبلها منّا".

"أنا تعبانة يا حجّ وصحتي ضعيفة" قالت له في محاولة منها لثنيه عن عزمه. "ما عم بقدر أمشي والحج بدو كتير مشي لمسافات طويلة".

تراجعت صحة الحاجة أمّ ناصر بعد عودتها من الحج أول مرّة وأصبحت تأخذ الكثير من الأدوية. كانت تصعد بصعوبة على درجات منزلهما الطويلة. تمشي ببطء شديد، وعندما كانت بناتها يزرنها، كانت تطلب منهن مساعدتها في تنظيم البيت. لكن الحاج أبو ناصر عنيد جداً في الأمور المتعلّقة بالدين. "سألت السيّد يا حاجة وقال لي إنو لازم نروح عالحجّ هالمرّة".

في مكّة مرضت الحاجة أمّ ناصر ولزمت الفراش. واضطر الحاج أبو ناصر للبحث لها عن الدواء بعد أن تردد منظم الحملة في مساعدته. بعد طول عناء ومشي، وجد الحاج أبو ناصر الدواء. تحسنت الحاجة قليلاً واستأجر لها الحاج أبو ناصر كرسياً متحركاً بمبلغ مئة دولار أميركي لكي تتمكن من تابعة مراسم الحج.

عند عودتهما إلى "الحيّ"، كانت الحاجّة أمّ ناصر متعبة ومنهكة، ولم تتمكن من القيام بواجباتها أمام الزوّار، وهي الحريصة على الواجبات والضيافة. جلست بين الناس صامتة، شاحبة وطلبت من ابنتها غالية أن تجهّز لها موعداً لدى الطبيب بأقرب وقت بعد أن بدأت تشعر بأوجاع مبرحة في معدتها. أنهكها الحجّ هذه المرّة. لم تكن صحتها على ما يرام، ولم تتمكن من الذهاب إلى الطبيب في الموعد المحدد.

"يا إمأمّ علي... يا إمأمّ علي..." راح أبو ناصر يصرخ بـــأعلى صوته من على الشرفة وهو فاقد الأعصاب، مرتجفــاً، مرعوبــاً، ولا يدري ما يفعل، سوى الصراخ طلباً للمساعدة.

كانت الحاجة أمّ ناصر ملقاة على الصوفة في غرفـــة الجلـــوس الصغيرة، دون حراك. عيناها مسمّرتان في السقف ويداها متباعـــدتان. اعتقد لحظتها أنها مأخوذة بفيلم مصري، كعادتها عندما يناديها ولا يسمع جواباً. ثم قرّر هزّها، لكنها لم تتحرك هذه المرّة. "يا حجّة... يا حجّـــة" بدأ يصرخ. رقدت هناك بلا حراك أو نطق أية كلمة.

هرع الجيران بأعداد كبيرة على صراخه. حملوها إلى مستشفى الرسول الأعظم القريب. في غرفة الطوارئ أعلنها الأطباء "ميتة" بعـــد عدة محاولات فاشلة لإنعاشها. ماتت الحاجة أمّ ناصر.

خبر موتها هزّ "الحيّ" بكامله. ووقعت عائلتها تحت الصـــدمة. الحاج أبو ناصر كان الأكثر تأثّراً بالمصيبة، خاصة أنه كان معها فـــي

لحظاتها الأخيرة. لم يصدّق ما حصل وفقد أعصابه. "لا رقية ما ماتت... رقية ما ماتت"، كان يردّد أمام أولاده المحزونين والناس المتجمهرين في منزله. كم هي صعبة تقبّل فكرة الموت المفاجئ لشخص عزيز. شيء ما في داخله جعله غير قادر على تصديق أن الحاجة أمّ ناصر، شريكة حياته منذ أكثر من 35 عاماً، غادرت هذه الدنيا دون رجعة، وتركته وحده.

أُحضرت الجثّة في سيارة إسعاف من المستشفى إلى المنزل الأرضي حيث سُجّيَت في إحدى الغرف الواسعة وغُطّيت بشراشف بيضاء. كل أولادها كانوا حولها: غالية، عالية، ندوة، ناصر وعلي. الجميع يبكون وينتحبون. ليس هناك أفظع وأصعب من خسارة الأم. بناتها جلسن قربها على الأرض، يتحدثن معها كأنها لا تزال على قيد الحياة، وتسمع كل كلمة يقلنها. يقول كبار الحيّ إن روح الميت تبقى في المنزل وبإمكانه سماع ما يدور ويُحكى. حتى النسوة اللواتي لم يكنّ على علاقة جيدة مع الحاجة أمّ ناصر أتين لإلقاء النظرة الأخيرة عليها، وتقدمة التعازي ومواساة أولادها وزوجها المحزون. سهر الجميع حولها طوال الليل وبناتها يقرأن القرآن فوق رأسها حتى تعبن آخر الليل وغفون على الكراسي.

تطوع أصحاب النخوة لغسل الجثّة وفق الأصول وتحضيرها للدفن في اليوم التالي. فالمساعدة في تحضير الميت تعتبر من الأمور المستحبّة، ولها ثواب خاص. الحاج أبو ناصر لم يقوَ على النزول إلى

المنزل الأرضي وسهر كل الليل في بيته يبكي ويستمع إلـى الأناشـيد العاشورائية، ويتذكّر كيف كان يجلس مع شـريكة حياتـه فـي الليـل ويستمعان إلى: "يا ليل طول علينا". وفي تلك الليلة تمنّى أن يطول الليل ولا يطلع الصباح. لم تجفّ دموعه ولم ينم لحظة.

اليوم التالي كان يوم الدفن والجنازة. الجميع في "الحيّ": الكبار والصغار، النساء والرجال، كلهم حضروا للمساعدة والوقوف إلى جانب عائلة الحاجّ أبو ناصر. عند المصيبة، يهرع الكل للمسـاعدة ويتناسـى الناس خلافاتهم ومشاكلهم. إنه الموت الـذي يمحـو كـل الإشـكالات والمسافات ويقرّب بين الناس، "سبحان الذي قهر عباده بالموت".

"يا رقية... قومي لنتروّق سوى" نزل الحاج أبو ناصر صـبيحة اليوم التالي ينادي باكياً، "قومي يا رقية لنتروق". أبكى الجميع يومهـا. الكل كان يعرف مدى تعلّقه بزوجته وحبه لها. عشرة عمر "والعشرة ما بتهون إلا على إبن الحرام". ألم يعيشا معاً لأكثر مـن 35 سـنة علـى أساس الحبّ والصدق والصبر. لم يهنها يوماً ولـم يمـدّ يـده عليهـا. "مسكين الحاج أبو ناصر... كيف بدو يعيش من دون رقية؟".

انطلقت الجنازة مشياً على الأقدام من أمام محـلّ البرجـاوي، وحُمل النعش على الأكتاف. الحيّ كله خرج لوداع الحاجة أمّ ناصـر. كان المشهد مُهيباً ومؤثراً. أمّ ناصر تغادر "الحيّ" للمـرة الأخيـرة. أمّ ناصر التي عرفت كل الناس كباراً وصغاراً وعرفت قصصهم وهمومهم

ويومياتهم، والتي طالما ساعدت الناس في أوقاتهم الصعبة. أمّ ناصر الحكيمة، المحبوبة من الجميع، والتي طالما أعطت النصائح للمحتاجين، والتي لم تتسبب بأذى لأحد ولم تظلم أحداً. لن يعود "الحيّ" كما كان من دون الحاجة أمّ ناصر، سيتغير إلى الأبد وسيفقد مصدر بركة وخير كان بأمسّ الحاجة إليهما.

سارت الجنازة ببطء باتجاه أحياء برج البراجنة. وكلما كان النعش يمرّ من أمام المحلات، كانت الأبواب تُغلق احتراماً للميت. دُفنت الحاجة في مقبرة الرادوف في برج البراجنة. فالمرحومة كانت تمزح أمام أولادها: "بدّي اندفن بالرادوف... هونيك ما حدا بيخرب المقابر وعلى الأقل في مستوى أحسن".

أثناء الدفن، جلس الحاج أبو ناصر على التراب وراح يصرخ ويضرب التراب: "يا ناس انكسر ظهري... كيف بدّي عيش من بعدك يا رقية، كيف؟ تعوا يا ناس وشوفوا هالدنية الفانية... يلّي بتعبدوا المال..." بعد تقبّل التعازي على مدخل المقبرة، نُقل أبو ناصر إلى المستشفى بعدما شعر بألم في صدره.

عاد إلى بيته بعد بقائه في المستشفى لعدّة أيام وتلقيه العلاج اللازم. وجد أن البيت لم يعد كما كان. وعلى الرغم من اهتمام بناته بنظافة البيت وترتيب كل شيء، وجد صعوبة في الدخول. كان البيت مختلفاً هذه المرة. كان بارداً، يوحي بالوحدة. انفجر باكياً. رحلت

شريكة حياته، المرأة التي عرفها وعاش معها وأخلص لهـا، أمّ أولاده، سنده وبئر أسراره، تركت كل شيء ومشت. طوال حياته لـم يعـرف امرأة غيرها. أكل من يديها، ونام قربها، وتسلّى بالأخبار التـي كانـت تجمعها له من الحي، ولبس الثياب التي كانت تغسلها وتكويها له. مـاذا عليه أن يفعل الآن؟ مع من سوف يتحدث؟ عليه الآن أن يمضي بقيـة حياته وحيداً مع ذكرياته معها. كان يمضي ساعات وسـاعات سـاهماً، يتأمّل في جدران الغرفة، مستعيداً ذكريات وأحداثاً ومواقـف. وعنـدما كان أولاده يأتون إليه للاطمئنان عليه، كل حديثه يكون عن رقية. "رقية الطباخة الشاطرة. رقية يلّي ما قدر لحّام يغشّها. رقية يلّي زوجت كـل أولادها وحبّت ولادها. رقية الحنونة ويلي ما تركت الصلاة ولا يوم..." وحتى "رقية يلّي ما كانت تحب هيديك الشغلة".

مع الأيام، تحولت وحدة وعزلة الحاج أبو ناصر إلـى غضـب وحقد على أولاده، خاصة الشباب، ناصر وعلي. "انتو ما عم تهتموا فيّي منيح" كان يصرخ بهم. "مش عم بتطلّوا عليّي... على الأقل دقوا بـابي وسألوني إذا كان بدّي شي... يا عمي بركي متّ من الجوع. أنـا مـا عملت شي غلط معكم. قضيت حياتي وأنا عم ضحّي منشـان عيّشـكم عيشة منيحة. صرفت كل مصرياتي لأبنيلكم بيوت لتعيشوا فيا. حجـر بحجر عمّرت هالبيوت... الله يرحمك يا رقية... الله يرحمك". كان يردد هذه الكلمات أمام أولاده عندما كان يدعوهم إلى اجتماع عائلي يصـب فيه غضبه عليهم ولومه لهم لعدم العناية به كما يجب. بداية كان الجميع يحضرون ويأخذون دعوته لهم على محمل الجدّ. ومع تكرار دعواتـه،

أصبحت الاجتماعات العائلية مملّة وراح البعض يتغيّبون، خاصّة ناصر. وأبو ناصر يلعب المعزوفة ذاتها: "دمرت حياتي كلها منشانكم، وعمّرت لكم بيوت، وما بتتذكروا أبوكم بشي صحن أكل. بس شي صحن أكل... وينك يا رقية... تعي شوفي أبو ناصر كيف عم يتبهدل آخر أيامو، تعي شوفي كيف ولادك عمبيعاملوني!".

أزمة الحاج أبو ناصر أنه توقّع الكثير من أولاده لقاء معاملته الحسنة والكريمة معهم. كان يتخيل أنه سيأتي يوم يعاملونه فيه مثل الملوك في كِبره. ألم يبني لهم بيوتاً ليعيشوا فيها دون أن يحتاجوا أحداً؟ ألم يصرف كل مدخوله وحتى تعويضه لتأمين عيشة كريمة لهم؟ فهو، على عكس أبيه الذي عامله بقسوة وعدم شفقة، كان دائماً أباً حنوناً وكريماً مع أولاده. كل ماله الذي كسبه من عمله في "شركة طيران الشرق الأوسط" صرفه على تعليمهم وعيشهم، ولم يتركهم جائعين أو عراة يوماً. لذلك توقّع المعاملة بالمثل. توقّع منهم أن يكرّموه ويعززوه عندما يتقدم به العمر. كان يتوقّع ويحلم بأنهم سوف يأتون كل يوم، يقرعون باب منزله، يطمئنون عليه ويسألون خاطره. توقّع أن يتنافسوا كل ليلة على دعوته على العشاء. فهو لم يكن يقبل الدعوة إلا بعد إصرار صاحب الدعوة والتأكد أن نيته سليمة. بنى "جنة" خاصة به في خياله. لكن توقّعاته كانت غير واقعية ومضخمة. الواقع شيء والحلم شيء آخر. وأولاده صاروا آباء، مع ما في ذلك من هموم ومسؤوليات، ومدخولهم كان محدوداً، ووقتهم ضيقاً وظروفهم صعبة.

لم يكن الحاج أبو ناصر راضياً عن الوضع. فبقاؤه وحيداً كل الوقت جعله يفكر أكثر وهو المعروف عنه "أنه يحمل السلّم بالعرض". اسودت الدنيا بنظره، حاول التأقلم مع الوضع الجديد. حاول إلهاء نفسه بالعمل على السطح والحرتقة والمشي لمسافات طويلة والرجوع إلى صداقات قديمة، دون جدوى. أكله الندم، وأكثر من التفكير في ماضيه ومستقبله. قلّ نومه وكثر تذمّره. صار أبوه يأتيه في الأحلام: "ما قلتلك يا محمد ما تعمّر بأرض مش لألك؟" كان يستيقظ في منتصف الليل فيسأله نفسه: "شو عملت؟ ليش عمّرتلهم كل هالبيوت... لشو؟"

تدهورت العلاقة بينه وبين أولاده الذكور، ناصر وعلي، خاصة عندما أخبرهم "الخبر – القنبلة" في أحد الاجتماعات العائلية الروتينية: "بدّي أتزوّج".

"بدو يتزوّج" اعترض ناصر، الوصي، على الوصية" بدّو يجيب مرا غريبة عالبيت؛ بيت إمّنا يلّي عاشت فيه".

كل أولاده كانوا ضد فكرة الزواج. فهو قد تقدّم في العمر ويعاني من "عجز" بسبب أمراض السكّري والقلب وتعاطيه أدوية كثيرة. "يا عمّي ما بيقدر يعمل هيديك الشغلة، لشو بدو يتزوّج؟" وهذا ما وضعه في تناقض صارخ مع عدوه اللدود أبو كامل الذي كان يعاني من انتصاب شبه دائم بسبب حرمانه من "هيديك الشغلة" لعدم قدرة زوجته على مجاراته في الفراش. "واحد ما بيقوم معو... وواحد ما بينام معو" انتشرت النكتة في الحي.

أصرّ على الزواج، على أمل أن تتغير أحواله إذا عرف امــرأة جديدة تملأ عليه البيت. "يا عمّي عم بحكي مع الحيطان. والله عم بحكي مع الحيطان". كان شخصاً غير اجتماعي. أمضى حياته من البيت إلــى المطار والعكس. على عكس أبو كامل، لم يكن لديه شلّة أصحاب، لــم يجلس في قهوة، وصديقته الوحيدة كانت زوجته.

أخيراً، ولتجنّب وجع الرأس، وافق أولاده على فكــرة زواجــه. عرّفه ابنه ناصر على امرأة مقطوعة من شجرة اسمها صــبحية. يــوم الطليبة، رافقه أولاده وقاموا بالواجب مع الشرح لوضع أبيهم الصــحّي والاجتماعي. تمّت الزيجة، ودخلت منزل الحاج أبو ناصر امرأة جديدة اسمها "صبحية".

جاءت صبحية إلى "حيّ المطلّقات" بصفة "الزوجة الجديدة" للحاج أبو ناصر. امرأة خمسينية، محدودة الذكاء، لم تعرف رجلاً في حياتها، تعشق أكل الشوكولا والتشيبس، أمضت حياتها تعمل في أعمال متعدّدة، وانتهت في معمل للفوط الصحيّة في الشياح. ممتلئة، مفشكلة، لا تحسن ارتداء الحجاب بطريقة لائقة. باختصار، "مرا مقطوعة من شجرة ومعتّرة". كانت سعيدة بمكانتها الجديدة كزوجة للحاج ولدخولها "القفص الذهبي" بعد طول انتظار وعنوسة كادت تلاحقها طوال حياتها. لم يتوقّف أهل "حيّ المطلّقات" عن مقارنتها مع الحاجة المرحومة أمّ ناصر في البداية مما وضعها في موقف صعب وجعلها شخصاً دخيلاً وغير مرغوب به. "الله يرحمك يا أمّ ناصر... هيدي مرا وهيديك مرا... يا ضيعان العشرة والخبز والملح".

"نيالك يا حجة أمّ ناصر. ماتت ميتة سريعة وهنية. لم تتبهدل أو تتألم. المسكينة كانت دايماً تخاف من الموت، وكان وجهها يصفّر لما تروح تعزّي بحدا". بقي الناس يذكرونها ويتحدثون عن حسناتها وفضائلها كلما شاهدوا صبحية تمشي إلى جانب الحاج أبو ناصر في

زواريب "الحيّ". كان المشهد غير مألوف ويفتح الشهية للتعليقات وانتقاد العريس "الشايب".

بذل الحاج أبو ناصر مجهوداً لا بأس به لجعل زوجته الجديدة مقبولة من الناس ومن أولاده بالدرجة الأولى. اشترى لها ثياباً جديدة، وحجاباً جديداً، وجزداناً حملته بفرح لأول مرّة. لم يسمح لها بارتداء أية قطعة من ثياب المرحومة التي بقيت معلقة في الخزانة للذكرى والبركة. حتى أختها أم كامل طلبت منه يوماً إعطاءها بعض الفساتين الخاصة بالمرحومة، لكنه رفض رفضاً قاطعاً.

أمضى الحاج ساعات ولياليَ يحاول إفهام صبحية كيفية التصرف أمام الناس وأمام أولاده، وكيف ترتدي الحجاب بطريقة مضبوطة. فهي زوجة الحاج "السيّد" وعليها أن تكون على قدر المقام. "شوفي يا صبحية، لما بيجوا الأولاد لعندي، بدي منك تقومي بالواجب وما تقلبي خلقتك فيهم أبداً. خلّي وجهك بشوش". عانى الحاج من الإحساس بالذنب تجاه أولاده لجلبه امرأة "غريبة" إلى منزل العائلة، منزل أمهم المرحومة. فعل كل ما كان عليه فعله. أخذها معه في زيارات اجتماعية إلى منازل أولاده وبناته، بهدف ترطيب العلاقة معهم. ابتلع أولاده المسألة على مضض، فهم لم يرغبوا في إغضابه، وفي الوقت نفسه لم يكونوا قادرين على زيارته والاهتمام به كما يجب. "يا عمّي مَرْت البيّ ما بتنحبّ"، كانت بناته يقلن ذلك في جلساتهنّ الخاصّة.

لم تثمر جهود الحاج أبو ناصر. بقيت صبحية غير مقبولة بنظر أولاده، الذكور بالدرجة الأولى. فالمستوى العقلي البسيط والمحدود لصبحية كان سبباً أساسياً في انتقادها وعدم تقبّلها في أوساط العائلة. ناصر وعلي غضبا على والدهما لنسيانه عشرة المرحومة والدتهما بسهولة. "جاب مرا غريبة عالبيت... كلّو من شان هيديك الشغلة". عزّ عليهما رؤية بيت أمهما، الذي طالما كان نظيفاً، مرتباً، يتحول إلى بيت يشبه زريبة، وتعمّ في أرجائه الفوضى والوساخة. ذلك البيت الذي حفظ في زواياه ذكرى أمهما الغالية. كان طيفها لا يزال هناك. ناصر لم يتقبل الموضوع بسهولة. كان المفضّل لدى أمه، التي طالما دافعت عنه أمام انتقادات أبيه له. لذلك، عندما دخلت صبحية إلى البيت، شيءٌ ما انكسر بين ناصر وأبيه. أمر يصعب إصلاحه.

الفوضى وقلّة النظافة اللتان جلبتهما صبحية إلى البيت تسبّبتا بانتقادات لاذعة وعنيفة من بنات الحاج، غالية وندوة. كثرت ملاحظاتهما لها. "يا صبحية ليش البيت مش نظيف؟... ليش ثياب الحاج مش مكويين منيح؟... وليش عم تنسي تعطيه الأدوية؟" لائحة الأدوية طويلة: أدوية الضغط، والسكري، والقلب وغيرها. وكان يصعب على صبحية الأمية حفظها كلها. صعب على الابنتين أن تريا أباهما في حالة مزرية كهذه. ففي أيام الحاجة أمّ ناصر، كانت حياة أبيهما منظمة: الطعام يأتيه حاضراً شهياً، يأخذ أدويته بانتظام، والبيت كان مرتباً ونظيفاً كل الوقت. وأهم شيء أنه لم يكن يقوم بالواجبات المنزلية. كل شيء كان من اهتمام ومسؤولية المرحومة. واليوم وجد الحاج نفسه

مضطراً لمساعدة صبحية وتوجيهها في أعمال البيت، من التنظيم وحتى الطبخ. أسوأ شيء عانى منه كان الطعام السيئ الذي حضرته صبحية. تألمت البنتان لرؤيته واقفاً أمام المجلى وهن تعودن عليه عزيزاً مكرماً في بيته. كثرت ملاحظاتهن لصبحية مما ترك أثره على معنويات الحاج الذي وجد نفسه في موقف حــرج، وراح بــدوره يكيــل الملاحظــات والانتقادات.

حاولت صبحية المستحيل لإرضائه. كانت سعيدة لقبولهــا فــي مجتمع "الحيّ". فلديها كل الشروط: مقطوعــة مــن شــجرة، فقيــرة، مشحّرة، وما إلها حدا. رويداً، تقبّلها الناس على أساس أنهــا "صــبحية المعترة البسيطة". نسوا أنها الزوجة الجديدة للحاج أبو ناصر وتقبّلوهــا كعضو كامل العضوية في "الحيّ". وهي، ببســاطتها، انضــمّت إلــى الجلسات الاجتماعية بين نسوة الحيّ وتمتعــت بــالثرثرة والأحاديــث اليومية. اكتسبت مع الوقت المفردات والنكات المتبادلــة بــين النــاس، وصارت تعطي رأيها في المسائل المطروحة علناً، دون أن يُطلب منها ذلك. صارت تعرف الجميع: وطّدت علاقاتها بأمّ علي بهية وعالية، ابنة أبو ناصر وكانت تساعدها بالاهتمام بأولادها الكثر. حتى أنهــا أقنعــت الحاج بفتح "محلّ" لبيع الشوكولا والبيبسي تحــت درج منزلــه. لكــن مشروعها التجاري لم يعمّر طويلاً بسبب انتقادات بناته.

وقعت مشاكل وخناقات كثيرة بين الحاج أبو ناصر وصبحية. لم يعد يتحمّل وجود امرأة تزعجه في البيت. لم يكن معتاداً على العيش مع

امرأة "تجاوبه" وتتحدّاه وجهاً لوجه. المرحومة ولا مرّة جاوبته، كانت تفهم مزاجه وتتجنّب مواجهته مباشرة. المرحومة كانت تنتظر حتى تروق أعصابه ثم تحدّثه بهدوء. أما صبحية، بالإضافة لتقصيرها في واجبات البيت، فقد تجرّأت وعلّت صوتها عليه. صرخ بها يوماً: "روحي من هون. ما بدي ياكي بالبيت. روحي لعند أهلك بالشيّاح". تركت صبحية بيتها الزوجي في ذلك اليوم، لكنها عادت في اليوم التالي. لم يكن لديها مكان آخر تذهب إليه. وكان الحاج يسامحها في اليوم التالي. قلبه طيب ولم يعتد العيش وحده بين أربعة حيطان.

كثرت الخناقات بينهما، وفي كل مرّة كان الحاج "يزعبها"، كانت صبحية تعود في اليوم التالي. هي كانت تذكّره عن غير قصد بعجزه كزوج. حاول كثيراً معها، لكنه لم ينجح. وفي كل مرّة كان يفشل فيها، كان يكرهها ويبغضها أكثر. أصبحت مصدر إزعاج وعزّزت إحساسه بالعجز والضعف.

لم يعد يحتمل. أرسل وراء أولاده جميعاً لعقد اجتماع عائلي. وكانت الصدمة. "بدي طلّق صبحية".

تمّت إجراءات الطلاق في المحكمة ودفع الحاج لصبحية حقّها: 5 ملايين ليرة كاملة. مبلغ كبير بالنسبة له. لكنه حرص على أن يدفع لها حقّها. أخيراً غادرت منزله بعد أن أخذت معها التلفزيون الذي كانت قد اشترته من مالها الخاص.

استراح وأراح. لكنه كان بحاجة لمن يهتمّ به ويطبخ له. حاولت بنتاه غالية وندوة تأمين حاجته قدر المستطاع. كانتا تجلبان له "صحن أكل" من وقت لآخر، وترتبان البيت. لم يكن بالإمكان الاتكال على كنّتيه، زوجتي ناصر وعلي، لأن الحاج لم يكن يحب "طبخهما" ولا حتى معاملتهما له. "كلو الحق عالمرا" كان يردد أمام أولاده وهو العارف بموقفهما السلبي منه. قال علي مرة: "والله صبحية كانت تونّسو عالأقل!" وقعت الأزمة الكبرى عندما احتاج الحاج لإجراء عملية قلب مفتوح عاجلة. "مين بدّو يقعد حدي بالمستشفى ويهتمّ فيّي بالبيت؟"

أرسلوا وراء صبحية التي بقيت تتردّد على "حي الملطقات" وتسأل عن الحاج وتطمئن عن أخباره. "والله صبحية قلبها طيب... وحنونة رغم كل شيء" قالها مرة. رجعت صبحيّة هذه المرّة مرفوعة الرأس إلى منزله بعد أن ألحّ عليها أولاده ووعدوها بأنها سوف تعيش معه معزّزة مكرّمة. عادت، لكنها لم تجلب معها الخمسة ملايين وأبقتها مع أقاربها في الشياح.

تعافى الحاج من العملية وبقيت صبحية إلى جانبه في المستشفى كل الوقت واهتمّت به عندما عاد إلى المنزل. وجد أولاد الحاج أن أباهما أصبح سعيداً أكثر بوجود صبحية حوله وارتفعت معنوياته. وحسنت صبحية أداءها فكانت مساعدته وممرضته وزوجته في الوقت نفسه. قلّت المشاكل بينهما وكبرت صبحية في نظر الحاج بعد أن رأى اهتمامها وإخلاصها له خلال مرضه. كانت تحمل معها كيس الأدوية

الخاص بالحاج أينما ذهبا في زياراتهما المحدودة إلى بيوت أولاده. كانت سعيدة لنجاحها بالاهتمام به وإعطائه الأدوية في الوقت المحدد. أخيراً، حصلت على رضى وقبول العائلة وحظيت بالثناء والشكر من بناته.

المسكينة كان عمرها قصيراً. أدخلت يوماً إلى مستشفى الرسول الأعظم بعد إصابتها بضعف مفاجئ، ونقلت لاحقاً إلى "وحدة العناية الفائقة". قال الأطباء إن السرطان منتشر في جسدها. لم تمض أيام قليلة حتى ماتت صبحية وإلى جانبها أولاد الحاج، ناصر وعلي...

لم يذهب الحاج أبو ناصر إلى الدفن. بقي في البيت يردّد "الله يرحمك يا صبحية شو كنتِ معتّرة... الله يرحمك". قامّ ناصر وعلي بواجباتهما واهتمّا بمراسم الدفن وأقاما لها مجالس العزاء في "الحيّ" في الأسبوع والأربعين.

تعوّد الحاجّ على الوحدة والعيش بين أربعة حيطان. أصبح يمضي نهاره بين الجلوس على الشرفة ومراقبة الناس يدخلون ويخرجون من الحي، والجلوس أمام جهاز التلفزيون. كان يلجأ لقراءة القرآن، مستخدماً نظارات قديمة كان وجدها متروكة في إحدى الطائرات. قراءة القرآن كانت تريحه وتشعره بالطمأنينة وراحة نفسية كان بأمسّ الحاجة لها.

تعلّم الطبخ وخدمة نفسه بنفسه. لم يعد يجد في العمل المنزلي إهانة أو انتقاصاً من قيمته. بنتاه، غالية وندوة، تجلبان له صحون الطبخ من وقت لآخر واكتشفتا أن أباهما أصبح طباخاً ماهراً ويتلذذ بتحضير الطعام لنفسه. كان يثني على طبخهما من وقت لآخر، واستمر ينتقد أمامهما تقصير أولاده، ناصر وعلي، وعدم اهتمامهما به كما يجب. "بستحلي شي مرّة حدا منن يقلي تفضّل يا بيّي تعشّا معنا... مجرد عزيمة... المتل بيقول: لاقيني ولا تعشيني". وأحياناً كانت انتقاداته تصل إلى بناته أيضاً: "ليش ما عم تزوروا قبر إمّكن... قبرها وسخ وعليه تراب... ما بتستحوا على حالكن". وفي كل عام، كان يطلب من أولاده إقامة مجلس عزاء عن روح أمّهم في ذكرى وفاتها.

"قبر الثانية وبِدو يقبر الثالثة" كانت النساء المتقدمات في السنّ يعلقن على رغبة الحاج أبو ناصر بالزواج للمرة الثالثة. بقيت تهديداته مجرّد كلام، ورغبات كان يلجأ لها عندما يشعر أن أولاده مقصرّون معه.

بعد الغزو الأميركي للعراق واندلاع الحرب الطائفية بين المسلمين السنة والشيعة هناك، وتفجير مقامي الإمامين العسكريين في سامرّاء، وما تبع ذلك من تفجيرات انتحارية وهجمات على الجوامع والحسينيات، وسقوط آلاف الضحايا من الجانبين، دخل العالم الإسلامي في أجواء الفتنة التي كانت "نائمة". أصبحت صفتا "سنّة" و"شيعة" متداولتين بين الناس، وانتشرت مشاعر الكره والبغض بين الطرفين حتى تحوّل الصراع إلى حرب علنية بعد أن نامت كالنار تحت الرماد. عدة عوامل تجمّعت وأفلتت الفتنة "السنّية – الشيعية" من عقالها: سقوط نظام البعث الحاكم في العراق، صعود تنظيم القاعدة" المعروف بعدائه للشيعة، قيام نظام إسلامي شيعي في إيران يعتمد مبدأ تصدير الثورة ودعم المسلمين الشيعة في كل أنحاء العالم، وأخيراً، اغتيال الرئيس رفيق الحريري في بيروت في 14 شباط سنة 2005.

كل هذه العوامل أعادت الناس إلى الوراء، وفُتحت كتب التاريخ فجأة في محاولة لإحيائه من جديد. تراجع الوعي والهوية الإسلامية الجامعة عن الساحة. فإما أن تكون سنّياً أو شيعياً. وتابع الناس على شاشات التلفزة المجازر والاغتيالات والمعارك والاعتداءات الوحشية

التي كانت تقع بين السنّة والشيعية في العراق، وتناقلوا الصور الفظيعة الحيّة عبر هواتفهم النقّالة مباشرة من أرض الحدث. كل طرف كان يعتقد أنه على صواب أو أنه "الفئة الناجية"، وأن من حقه أن يقتل الآخر. "حرب النواصب والروافض!" قتل الآلاف من العراقيين من السنّة والشيعة بسبب هويتهم الدينية والمذهبية. الجميع كان يحارب "لدخول الجنة" والكل كان يحرق الأرض والوطن. أُحرق العديد من الجوامع، وقتل المئات من الجانبين، واغتيل العديد من رجال الدين المعروفين. بدا المشهد في العراق وكأن المسلمين قد فقدوا عقولهم. كانت الفتنة تقرع كل باب، حتى راح البعض يترحم على أيام الدكتاتور صدام حسين!

في "حيّ المطلّقات"، كما كانت الحال في كل البلد، انطلقت العدوى المذهبية بسرعة بين الناس. فجأة تغير مزاج أهل "الحيّ" وتبدّلت الأجواء. طافت الهويات المذهبية على السطح. فجأة اكتشف الناس أنهم مختلفون مذهبياً. أصبح السكّان الشيعة أكثر وعياً لهويتهم الشيعية، وكذلك فعل السكّان السنّة. تراجع الانتماء الإسلامي وصار المذهب هو الأهمّ. نسي الناس أن الإسلام هو الأساس والمذاهب هي الفروع. لحقوا الفروع وتركوا الأصول. ففي "الحيّ"، صار الناس ينظرون إلى البرجاوي "كسنّي". وكذلك كان سكّان بناية الدقماق، وأمّ علي بهية، وأولاد أم أحمد، علي وسامية، وزكريّا زوج غالية وغيرهم. كل هؤلاء كانوا متزوجين من شيعة. أمّ علي بهية كان زوجها شيعياً، والبرجاوي زوجته شيعية، والحاج الدقماق أيضاً زوجته كانت شيعية.

أصبح الانشقاق "السنّي – الشيعي" مسيطراً على وعي أهل "الحيّ" رغماً عن إرادتهم. حتى أنهم نسوا الانقسام الذي ساد "الحيّ" لسنوات طويلة بين أبو ناصر وأبو كامل. استبدلوا الانقسام العائلي بآخر مذهبي أسوأ منه. وفي الجانب الآخر، تمثّلت العائلات الشيعية بأبو ناصر وأولاده وأبو كامل وأولاده.

على الرغم من الأجواء المذهبية الحادة والمتطرّفة، والنقل اليومي للحرب الدائرة في العراق ومتابعة الناس لتفاصيلها عبر شاشات التلفزيون، حافظ سكّان "الحيّ" على علاقات الجيرة الطيبة بينهم. كانت الأجواء المسمومة الآتية من الخارج أقوى منهم وغيرت في وعيهم وآرائهم السياسية، وعلى الرغم من تحدثهم عن الأمور المذهبية في الجلسات العائلية، بقوا جيران يجمعهم المصير الواحد: الفقر والحرمان. فالظروف الصعبة التي عاشوها واختبروها عبر السنين أبقتهم سوياً ولم ينقطع حبل الأخوّة والعشرة الطيبة رغم كل شيء. الحرمان من المياه، ومن الكهرباء، والمجرور الذي كان يطوف من وقت إلى آخر – كل ذلك – جمعهم في بوتقة واحدة و"ما كان حدا أحسن من حدا".

استمر البرجاوي يؤمن المياه للحي كله، وفي مناسبات العزاء، كان أهل الحيّ يشترون المعمول من محله. وهو بدوره أعطى إحدى بناته لشابّ شيعي. وكذلك فعل أبو ناصر. استمرت المصاهرة بين المذهبين في "الحيّ" رغم كل شيء. وبرزت بعض الشخصيات المتطرفة مذهبياً مثل أبو كامل الذي لم يقف على سجّادة صلاة يوماً!

وأمّ علي بهية التي كانت تتشاجر مع زوجها ويسمع الناس ما يتبادلانه في سباب وشتائم. هي تسبّ مذهبه وهو يسبّ مذهبها. هي تسبّ له أهل البيت، وهو يسبّ لها الصحابة. هي لم تعرف يوماً من هم أهل البيت وهو لم يكن يعرف من هم الصحابة! أساس المشكل بينهما لم يكن مذهبياً، كانت العلاقة بينهما سيئة جداً قبل الغزو الأميركي للعراق بكثير! وستبقى كذلك!

من عادة أهل "الحيّ" أن يتعاونوا في ما بينهم ويتساعدوا عند الحاجة. فالسنّة منهم كانوا يشاركون في المجالس العاشورائية وكانوا يقومون بخدمة الناس، متعاطفين مع جيرانهم في ذكرى أحزانهم.

في أحد الأيام، قطع البرجاوي المياه عن الحيّ وقام بفك الحنفية التي كانت تنقل المياه إلى منازل الجيران. كان غاضباً لسرقة كابل الكهرباء من محلّه وتوقّفه عن العمل. وتبين لاحقاً أن علي، ابن عالية، ومعه شلّة من الحيّ قاموا بالسرقة. كان علي ضحية المعاملة السيئة من أبيه نور فتحول إلى صحبة السوء. اكتشف الحاج أبو ناصر يوماً أن مبالغ من المال تختفي من خزانته. اتهم يومها زوجته صبحية. ثم تبين أن علي قام بصب نسخة عن مفتاح بيت جده، وكان يستغل غيابه عن البيت، فيدخل ويأخذ ما يريد. صُدم الحاج، ولام أبو نور الذي لم يحسن تربيته.

انقطعت المياه عن "الحيّ" وارتفعت الصرخة. غضب الحاج أبو ناصر يومها ووقف على شرفته المقابلة لمنزل البرجاوي وراح يصرخ:

"إنتو يلّي حرمتوا الحسين من الميّ ومات عطشان... جايين اليوم بدكن تقطعوا عنّا الميّ... يا كفّار... ما بتخافوا الله".

أعاد البرجاوي الحنفية إلى مكانها بعدما دُفع له مبلغ من المـــال كتعويض على السرقة. وعادت المياه إلى "الحيّ" بعــد تــدخل ناصــر وكامل مع البرجاوي وتطييب خاطره.

-25-

أصبح ناصر الآن شاباً واعياً، وأباً لثلاثة أولاد والرابع على الطريق. "المعلّم ناصر" كانوا ينادونه لشطارته في مهنة حدادة السيارات. أشطر معلم حدادة في برج البراجنة، يقصده الزبائن من كل أنحاء الضاحية والمدينة.

وُلد بعد غالية وعالية. الذكر الأول في العائلة الذي سوف يحميها. كانت أمه فخورة به، ولم تكن تتردد بكيل المديح أمام الجيران لطلّته البهية ولجماله. وفي المقابل، اتهمها الحاج أبو ناصر "بإفساده": "يا حجة عم تنزعي الصبي. وما بيسوى كل هالدلال. ما سمعتي الرسول الكريم شو قال: اخشوشنوا، إن النعم لا تدوم".

عامل الحاج أبو ناصر ابنه البكر بشدّة. كان يريده أن يكون الأفضل بين شباب "الحيّ"، وأن يعمل بكدّ وجدية، وأن يكسب الكثير من المال. "شوف ابن فلان" كان يقول له باستمرار، "عمل كذا وكذا وصار معو مصاري كتير". ملّ ناصر من عظات أبيه المتكررة وأصبحت العلاقة متوترة وأصابها عدم التفاهم. أراد أن يعيش شبابه

ويتمتع بالحياة الحلوة على غرار أبناء جيله، بعدما عانى كثيراً كعامل مساعد في كاراج الحدادة عند معلّمين ظالمين وقساة. اختلف الزمن الآن، وهو أصبح ينتمي إلى جيل مختلف عن جيل أبيه. "الجيل الثاني" في "الحيّ". جيل أحبّ المظاهر والثياب الجميلة وقيادة السيارات السريعة مثل أبطال الأفلام الأجنبية، والسهر خارج البيت حتى وقت متأخر مع شلّة الأصحاب. كل ذلك لم يكن ضمن ثقافة ومفردات الحاج أبو ناصر الذي كان لا يزال يحتفظ بثقافة وعادات "الجيل الأول" الذي جاء من بعلبك للعمل والإنتاج. في زمنه كان الشابّ يخاف أباه ويحترمه، حتى لو تزوج الابن وأصبح ربّ عائلة. كانت كلمة الأب مقدسة ولا يمكن تجاوزها أو تحدّيها. ألم يتعرض هو للضرب على يديّ أبيه عندما كان شاباً وبعد زواجه. لم يجرؤ على تحدّي سلطة أبيه أو مواجهته، مهما كان السبب. "بهالإيام ما عاد في احترام أبداً... كلو بسبب هالتلفزيون العكروت" كان يردّد.

ناصر هو ابن جيل جديد. جيل أكثر جرأة، يحاول رسم مستقبله، ولا يتردد في إبداء رأيه في أمور العائلة. جيل ضاع بين عادات الريف وحياة المدينة المليئة بالتحديات والفرص وأحياناً التهور. تأثر، كأبناء جيله، بأفلام المغامرات والعنف التي كان يشاهدها على شاشة التلفزيون. كان معجباً بسلفستر ستالون وآرنولد شوارزنجر بدل فريد شوقي وحسين فهمي وغيرهما من أبطال الأفلام العربية التي كان والداه يتابعاهانها. أحب أفلام "الأكشن" التي كانت تأخذه إلى عالم آخر يستطيع البطل القضاء على أعدائه وينتقم منهم في النهاية. أعجبته فكرة

العدل عن طريق العنف، أعجبته فكرة الانتقام. ألم يكن "حيّ المطلّقات" حياً تسوده أجواء العنف والتحدّي و"ما بياخذ الواحد حقّو إلا بإيدو".

لم يطق المدرسة يوماً. أُرسل إلى المدارس الرسمية المكتظة في برج البراجنة حيث المعاملة قاسية. وأغلب المعلّمين غير راغبين بالتعليم، ولا يأخذون عملهم على محمل الجد. تعرّض للضرب من قبل أساتذته وبعض التلاميذ الأكبر منه سناً. كره المدرسة وفشل فشلاً ذريعاً في المواد كلّها. "أنا بكره المدرسة" قال لأمه باكياً، "بكره المدرسة وما بدي أتعلم". حاولت مساعدته وكثرت زياراتها إلى المدرسة للتحدث مع الناظر اللامبالي، دون جدوى.

"شو فييّ أعملّو" صرخ أبو ناصر بها يوماً، "بيّي ما بعتني عالمدرسة. ما بحياتي قرأت كتاب. شو بدو ابنك بعد. أنا بعتّو عالمدرسة وهوّي ما بدو يتعلم متل باقي الأولاد... والله لو صح لجدي ما كان مات".

ترك المدرسة باكراً. كان الأمي الوحيد في العائلة. اشتغل منذ نعومة أظافره في حدادة السيارات وعانى كثيراً وجدّ كي يتمكن من التقاط وتعلم المهنة. لم يكن سهلاً عليه اكتساب لقب "معلم". دفع من أجل ذلك من دمه وعرقه وشبابه والكثير من كبريائه كي يقال له: "المعلّم ناصر".

عشق سباق السيارات السريعة والراليات. وكان دائماً يتشاجر مع أخواته البنات كي يشاهد سباق السيارات السريعة على التلفزيون. وما إن وفّر مبلغاً من المال من عمله اليومي، اشترى سيارة BMW برتقالية كان يركنها إلى جانب سيارة أبيه المرسيدس البيضاء تحت شجرة الصنوبر قرب محل البرجاوي. أن يمتلك شاب في ذلك الوقت سيارة BMW يعني القوة والعزّ والتفوّق. أصبحت سيارته البرتقالية هوسه الخاص، وكان يمضي ساعات كل يوم في صيانتها وتلميعها كي تبدو نظيفة وجديدة.

لم يفهم الحاج أبو ناصر هوس وولع ابنه بسيارة الـBMW. "يا عمّي ليش هالصبي عم يصرف كل مصرياته عالسيارة؟" كان يقول لزوجته موبخاً. "لازم يفكر كيف بدو يتزوج ويعمل عيلة ويعمّر بيت. لشو السيارات؟"

كان اقتناء السيارات السريعة بالنسبة لناصر ولأبناء جيله تعويضاً عن الحرمان والفقر الذي عانوا منه صغاراً ومراهقين. لم يسمح له أبوه يوماً بقيادة سيارته المرسيدس البيضاء التي كان يتركها مركونة أمام البيت، ويخاف عليها من السرقة بعد كثرة حوادث سرقة السيارات في المنطقة. كان حلماً يتحقّق، أن يقود سيارته الـBMW على الطرقات الواسعة ويراه الناس. كان يشعر كواحد من أبناء العائلات الغنية. مجرد جلوسه خلف المقود وقيادته بسرعة فائقة كان يشعره بالحرية والتفوق، تماماً مثل أبطال السينما.

أخيراً، وبعد محاولات عديدة فاشلة، استسلم لفكرة الزواج. المنزل الذي عمّره له أبوه كان جاهزاً ولا ينقصه إلا اللمسات الأخيرة. من كان يمتلك منزلاً في تلك الأيام كان كمن يحتل القلعة. بإمكانه قرع أي باب وطلب يد "البنت اللي بدّو ياها". اختارت له أمه صبية من عائلة متواضعة تسكن في حي السلّم. "يلّي متلنا تعا لعنّا"، كانت الحاجة أمّ ناصر تقول. فالانتقال من حي السلّم إلى "الحيّ" في برج البراجنة بالنسبة للفتاة كان مثل الانتقال من القاهرة إلى باريس!

أصبح أباً وكبرت عائلته: ثلاثة أولاد والرابع على الطريق. كان أهل الحيّ يمزحون فيما بينهم: "كل ما الدولة بتقطع الكهربا كل ما بيكتروا الأولاد والنسوان بتخلف!"

كثرت هموم ناصر وازدادت عليه الأثقال والمتطلبات العائلية. ثياب للأولاد، وأقساط مدرسية، وطبابة خاصة في فصل الشتاء، والكراج مدخوله محدود، بعد أن كثرت الكاراجات في المنطقة. اشترى "نمرة حمراء" ووضعها على سيارته كي يدخل عائلته في الضمان الاجتماعي كما كان يفعل معظم سكّان الحي. أخيراً أصبح أولاده وزوجته مضمونين. "يا ابني روح واشتغل عالنمرة بعد الظهر وطلعلك قرشين" كان أبوه ينصحه، بعدما صار عامر صهر أبو كامل يعمل سائق سيارة أجرة. لم يحب ناصر العمل كسائق أجرة، كانت لديه أفكار وخطط أخرى.

على عكس والده، لم يعرف "الدولة" يوماً ولم يؤمن بها على الإطلاق. كل ما كان يعرفه أن "الدولة" فاسدة. والدرك بنظره كانوا أسوأ

الناس "وكان بإمكانك شراء الدركي بعشرة دولارات". وعاشت في مخيلته ذكرياته الأليمة عندما اعتُقل وسُجن وضُرب في ثكنة الحلو في بيروت. لم ينسَ كيف ضربه رجال الدرك يومها بلا رحمة وكيف انهالوا عليه بالسباب. كان مقتنعاً أن "الدولة" لا تحترم شعبها وأنها تفهم فقط لغة المال والرشوة. رائحة المجرور وأكوام الزبالة المحروقة استوطنت أنفه منذ الطفولة. التعليق على كابل الكهرباء التحتاني وجلب المياه من حنفية البرجاوي كلها أمور عاشها ولا يزال. "أية دولة يتكلمون عنها؟" ضحك كثيراً عندما عاد أولاده الصغار من المدرسة إلى البيت في عيد الاستقلال وهم يحملون العلم اللبناني فرحين. "أية كذبة هذه؟" أمسك بالعلم يومها ثم رماه من الشباك دون إحساس بالذنب.

أُعجب كثيراً "بالحزب" ووجد فيه منقذاً ومركب نجاة. أحبّ بصدق قائده، "السيد حسن" ووجد فيه القائد الذي سوف يقودهم إلى حياة أفضل ومستقبل واعد. كمثل شباب "الحيّ"، كان ينتظر، متحمّساً، ظهور "السيد" على التلفزيون ليستمع إلى خطابه. يفرض السكوت على أولاده كي يسمع كل كلمة يقولها "السيد". "كل شيء بيقولو صحيح" كان يقول لزوجته، "السيد ما بيقول شي مش صحيح". أحبه أكثر من أي شخص في العالم، حتى أكثر من رئيس الجمهورية نفسه. ألم يرسل "السيد" ابنه هادي للقتال إلى جانب المقاومين في مواجهة العدو الإسرائيلي في الجنوب المحتل؟ ألم يستشهد ابنه كباقي الشهداء؟ في حين كان الزعماء والسياسيون يرسلون أبناءهم إلى أوروبا وأميركا خوفاً عليهم من الحرب والموت.

"إذا إجانا صبي، بدي سميه هادي" كان يقول لزوجته، تأكيداً على تعلّقه "بالسيّد" واحتراماً لابنه الشهيد.

نجح "الحزب" في بناء علاقة قائمة على الثقة والمحبة مع الناس. استمع للفقراء والناس العاديين وتفهّم معاناتهم. كان "الحزب" يأخذ على محمل الجد العلاقة مع عامة الناس. فإذا خسر ثقتهم عندها يكون خاسراً. كما فعلت الأحزاب الوطنية والمنظمات الفلسطينية من قبل. تعلّم الحزب من أخطاء هؤلاء وكان شعاره: "نخدمكم بأشفار عيوننا". وكان صادقاً في ذلك.

لم يبع "الحزب" كلاماً فارغاً للناس. اهتم بمشاكلهم ومعاناتهم اليومية. وقامت "جهاد البناء" التابعة للحزب بوضع خزانات لمياه الشرب وحافظت على نظافتها كي يتمكن الفقراء والعطشى من الحصول على مياه شرب نظيفة. وأنشأ الحزب هيئات ومنظمات اجتماعية لمساعدة الفقراء والمحتاجين. وفي حال استشهاد أحد المقاومين، كان "الحزب" يتكفل عائلة الشهيد ويؤمن تعليم أولاده، المدرسي والجامعي. كان "الحزب" وراء تحرير الجنوب المحتل بعد 22 عاماً من ذلّ الاحتلال الإسرائيلي. ونجح والمقاومة بإذلال إسرائيل وعملائها وإجبارهم على الانسحاب. ارتفعت أسهمه بين الناس واستعادوا الثقة بأنفسهم بعد فترة طويلة من المعاناة والعذاب وانعدام الثقة. فبعدما تركتهم "الدولة" جاء "الحزب" ليملأ الفراغ ويحتضنهم ويبلسم جروحهم.

صار ناصر يحضر المجالس والدروس الدينية. أرخى لحيته والتزم الصلاة، وطلب من زوجته أن ترتدي الحجاب واللباس الشرعي. حتى ابنته الصغيرة عندما بلغت سنّ التكليف الشرعي، قام بإلباسها الحجاب. صار يتردد كثيراً إلى المسجد ويستمع إلى خطب المشايخ وعظاتهم. شعر لأول مرّة في حياته أنه على الطريق الصواب. وخضع لعدة دورات عسكرية في البقاع وفي إيران. ازدادت ثقته بنفسه وإخوته في "الحزب". تغير ناصر كثيراً منذ التزامه وبدا سلوكه أكثر جدية وصرامة، وصار يغيب كثيراً عن "الحيّ".

نادراً ما كان يزور بيروت إلا إلى المستشفى!!! تلك المدينة التي لم يزرها إلا إلى المستشفى أو السجن! تلك المدينة التي طالما شعر هو وشلّته بالغرابة والضعف وهم يمشون في شوارعها والناس تنظر إليهم باستغراب. كانوا يلجأون للمبالغة بإشهار شجاعتهم وقوّتهم كي يتغلبوا على ذلك الإحساس، وهو إحساس لم يشعروا به في مناطقهم وأحيائهم في الضاحية الجنوبية.

في إحدى المرّات تمشّى ناصر وأصحابه ليلاً في شوارع المدينة. بدت له بيروت يومها كأنّها مدينة لا تعرف النوم بعجقتها وضجيجها وناسها. أحس بشعور غريب. هذه المرة يدخل المدينة "كمقاوم" وليس "كمتّهم" أو "مطلوب". مشى في الشوارع ورأى السيارات الحديثة المركونة على جانبي الطريق، والمحلات والمطاعم والأبنية الحديثة الشاهقة ودور السينما. الشوارع نظيفة ومرتبة. كل شيء في

مكانه "الحياة مختلفة هنا والناس مختلفون. لا مجارير، ولا انقطاع للكهرباء، ولا زبالة على الطرقات. والناس تعيش بسعادة وبحبوحة؟" هذه المرة كانت المدينة له ولرفاقه، وكان بإمكانهم فعل ما يريدون.

عندما عاد إلى بيته في تلك الليلة، لم يستطع النوم. ترددت في رأسه أسئلة صعبة وقاسية لم يطرحها على نفسه من قبل. لم يستطع مقاومة أن يقارن بين ما شاهده في شوارع بيروت وبين زواريب "الحيّ" الذي عاش فيه أهله، ويعيش هو فيه، وربما سوف يعيش فيه أولاده في المستقبل. سحرته تلك المدينة التي تبعد بضعة كيلومترات عن حيّه. "ليش نحنا عايشين بكل هالقرف والوسخ؟ ليش شوارعنا وسخة ومهملة؟ ليش كل هالحرمان والإهمال؟ ليش...."

من عادة الحاج أبو ناصر الجلوس على الحافّة المقابلة لمنزله قرب محلات البرجاوي. جلس يومها يدخن سيجارة- رغم نصيحة الطبيب له بعدم التدخين – وراح يتأمل الحيّ من حوله. تعجّب لبقاء كل شيء في مكانه. عادت به الذاكرة إلى تموز 2006.

راح الحاج أبو ناصر يتذكر كيف أنّ إسرائيل، خلال عدوان تموز، حاولت تهديم البنى التحتية للبلد بهدف خلق بيئة معادية للمقاومة وإثارة نقمة شعبية ضدها. قامت الطائرات الإسرائيلية بقصف كافة الجسور الرئيسية التي تربط أجزاء البلد بعضها ببعض من الجنوب إلى الدامور. تسعة جسور دُمرت خلال العدوان. يومها عقد "السيد حسن" مؤتمراً صحافياً أعلن فيه "أن الجنديين الإسرائيليين سوف يعودان إلى بلدهما فقط عبر التفاوض غير المباشر والتبادل... نحن لا نريد التصعيد في الجنوب ولا نريد أن نأخذ لبنان إلى الحرب. لكن إذا أراد العدو الإسرائيلي التصعيد، فنحن مستعدون للمواجهة وإلى أبعد نقطة ممكن أن يتخيلها".

"حدثت موجات تهجير ضخمة من الضاحية والجنوب والبقاع".
قال في سرّه "ترك الناس منازلهم وهرعوا إلى الجبال، وبيروت، وبعضهم توجه إلى سوريا. وحدثت موجة هروب أخرى عندما أعلنت إسرائيل بأنها سوف تقصف الضاحية. قصفت الطائرات الحربية مطار بيروت الدولي وتوقفت حركة الملاحة فيه. كما قصفت الطائرات مطاري القليعات في عكار ورياق. وقصفت المزيد من الجسور، منها جسر صوفر الشهير. بالمقابل، قام مقاتلو "الحزب" بقصف المستعمرات الشمالية في إسرائيل، وسقطت الصواريخ على صفد. صاروخ آخر سقط على حيفا. وأعلن الجيش الإسرائيلي أن نصف مليون من الإسرائيليين أمضوا ليلتهم في الملاجئ. كان الإسرائيليون في حالة صدمة ورعب وأصبحوا يصدقون بيانات "الحزب" أكثر من قيادتهم".

"عندها أعلن "السيد حسن" "أننا نتّجه نحو الحرب المفتوحة ونحن مستعدون لها... إلى حيفا، وصدقوني، إلى ما بعد حيفا، وما بعد ما بعد حيفا". وأعلن أن البارجة التي قصفت الضاحية والمطار "هي الآن تتعرض للقصف".

"والله السيد حسن طلع قدّها وقدود" فكّر أبو ناصر.

وهذا ما حصل بالفعل. شاهد الناس على المحطات التلفزيونية كيف انطلق صاروخ من الساحل ليضرب البارجة الإسرائيلية "ساعر". كانت البارجة على بعد 9 أميال من الساحل اللبناني وكانت تشارك في الحصار البحري. أصيبت إصابة مباشرة بصاروخ "فيتز" واشتعلت فيها

النيران وأصيب عدد من بحارتها. لاحقاً اعترف الجيش الإسرائيلي بإصابة البارجة وقال إنها أصيبت بأضرار كبيرة. اعتبر أربعة جنود في عداد المفقودين. في تلك الليلة، تصاعدت الغارات على الضاحية والمناطق الأخرى. وأصيب معمل الجية الحراري.

في 15 تموز ارتكب الجيش الإسرائيلي مجزرة في قرية مروحين. قتل 23 مدنياً، معظمهم من الأطفال. قتلوا جميعاً وهم يحاولون الهرب من القصف. ازدادت وتيرة الغارات الجوية على الضاحية ودُمر المزيد من الأبنية التي تحولت إلى مجرد ركام. ووصلت الغارات إلى بعلبك وشتورة وتعنايل. صعّد "الحزب" وسقط 15 صاروخاً على حيفا. وتساقطت الصواريخ على العفولة وضواحي الناصرة والتي تقع على بعد 50 كيلومتراً من الجنوب اللبناني.

بدأت الدول الغربية والعربية بإجلاء رعاياها من البلد عبر مرفأ بيروت، وقُدّر عدد المغادرين بنصف مليون وسط محاولات إسرائيلية لإحراز تقدم على الأرض، دون جدوى".

"حتى أنهم ضربوا برج البراجنة"، تذكر أبو ناصر محدقاً في شجرة الصنوبر.

يومها أغارت الطائرات الحربية الإسرائيلية على مبنى على أساس أن قادة المقاومة كانوا يعقدون اجتماعاً. دُمّر المبنى بالكامل، وكانت معلومات الإسرائيليين خاطئة. كانوا يحاربون عدواً غير مرئي ولا يعرفون مواقعه. وبين الـ 20 والـ 24 تموز، شهدت قرية مارون

الراس الإستراتيجية معارك ضارية بين الجانبين. دَمرت ثلاثة دبابات إسرائيلية وفقد الجيش الإسرائيلي أكثر من عشرين جندياً وضابطاً.

وفي بنت جبيل وقعت اشتباكات ومعارك عنيفة بين الإسرائيليين ورجال المقاومة. كانت خسائر الإسرائيليين كبيرة والأسوأ منذ بداية العدوان. خسروا أكثر من 9 جنود، بينهم ضابط، وجرح 25 من قوات "غولاني" النخبوية. كانت بنت جبيل تمثل للمقاومة رمزاً هاماً حيث وقف "السيد" عام 2000 خطيباً بعد تحرير الجنوب. مثلت لهم قيمة معنوية كبرى، فاستبسلوا في الدفاع عنها.

"الله يلعن إسرائيل"، قال في سرّه حين تذكر ما فعلته في قانا حيث ارتكبت إسرائيل مجزرة أخرى، وللمرة الثانية، إذ قُتل العشرات من الأطفال والأولاد تحت الردم. قتل 62 مدنياً، بينهم 42 طفلاً، 15 منهم يعانون من أمراض عقلية. ولم يكن هناك أي مقاتل للحزب داخل الأبنية التي تعرضت للقصف.

يومها هدّد السيّد حسن بقصف تل أبيب "إذا قصفتم بيروت، ستقوم المقاومة الإسلامية بقصف تل أبيب وهي قادرة على ذلك". أصيب المجتمع الإسرائيلي بالرعب. أصبح المجتمع الإسرائيلي بأسره جزءاً من المعركة لأول مرة. وفي المناطق الشمالية من إسرائيل، حدثت موجات تهجير واسعة باتجاه المناطق الأكثر أماناً.

لاحقاً قامت الطائرات الإسرائيلية بإلقاء المناشير فوق أحياء ماضي، والرويس وبير العبد في الضاحية تدعو الناس إلى المغادرة. وفي تصعيد للعمليات العسكرية، أغارت الطائرات على الجسور الأربعة التي تربط كسروان وجبيل. قُصفت جسور غزير، المعاملتين، الفيدار، والمدفون. وفي ردّ سريع، قصفت المقاومة بصواريخ "خيبر" الخضيرة في إسرائيل والتي تضم محطة ضخمة للطاقة وتبعد 80 كيلومتراً عن الحدود اللبنانية – الإسرائيلية. وفي الشياح، أغارت الطائرات على مبنى سكني. قُتل أكثر من 20 مدنياً وأصيب أكثر من 50. وألقت الطائرات الإسرائيلية المزيد من المناشير فوق برج البراجنة، وحي السلم، والشياح، تدعو الناس إلى مغادرة هذه المناطق.

تذكر الحاج أبو ناصر أكبر وأضخم غارة جوية استهدفت الضاحية منذ بدء الحرب. "ألقت الطائرات الإسرائيلية أكثر من 20 صاروخاً على مجمع الإمام الحسن ومجمع صفي الدين في المريجة. ثماني أبنية سكنية دُمرت بالكامل وسويت بالأرض، ومات الكثير من الناس تحت الأنقاض. اعتقد الإسرائيليون أن "السيد حسن" كان موجوداً في المجمع وكانوا يريدون اغتياله بسلاح الطيران. فشلت محاولة الاغتيال. جاء رد "الحزب" بقصف مدينة حيفا بأكثر من 250 صاروخاً ضربت شمالي الأرض المحتلّة.

"صباح 14 آب"، تذكر أبو ناصر، "انتهت الحرب. كان مشهد ما بيتصدق. لمّا سمع الناس بخبر وقف إطلاق النار، أسرعوا بالعودة إلى بيوتهم في الضاحية والجنوب. كان ذلك تحدياً لإسرائيل وعدوانها

الوحشي. توجّه مئات الآلاف بسياراتهم عائدين إلى قراهم وبيوتهم في الضاحية بعد أن تركوها لثلاثة وثلاثين يوماً. عادت الضاحية تعج وتضج بناسها وأهلها بعد أن تحولت إلى مدينة غير مأهولة خلال العدوان. يومها أعلن "السيد" "أننا اليوم نشهد نصراً استراتيجياً وتاريخياً لكل لبنان ولكل الأمة". "وأن إسرائيل اليوم أوهن من بيت العنكبوت".

كان نصراً بالفعل، لكنه كان مكلفاً جداً. الدمار كان هائلاً وأصبحت الضاحية، خاصة في مناطق "الحزب"، أشبه بمدينة ستالينغراد في الحرب العالمية الثانية. عانت البلاد من خسائر في البنية التحتية قُدرت بملايين الدولارات. رغم كل الأذى والدمار والخسائر المادية والبشرية، فشلت إسرائيل في تحقيق أهدافها. حدثت أزمة في إسرائيل واستقال وزير الدفاع الإسرائيلي وقادة الجيش الكبار. كانت إسرائيل في أزمة لأول مرّة بعد حرب تشنها – أزمة ثقة بالنفس، وبقدراتها العسكرية. لم يحقق سلاح الجو الإسرائيلي سوى الدمار. استمر "الحزب" يطلق الصواريخ على إسرائيل حتى آخر لحظة. ولم يحقق الجيش الإسرائيلي شيئاً على الأرض.

عادت حركة الملاحة الجوية إلى مطار بيروت بعد 7 أيام وظهرت الطائرات من جديد في سماء بيروت.

شخص واحد لم يتحرك من "الحيّ" خلال عدوان تموز: أبو كامل. تلك كانت عادته خلال الحروب، لا يترك بيته على الإطلاق. ففي اجتياح عام 1982، ظلّ أبو كامل قابعاً في بيته مع قلة قليلة من رجال "الحيّ". بعلبكي عنيد ولا يخاف الموت. "لا يصيبكم إلا ما كتب

الله لكم" كان يقول أمام سكّان "الحيّ" الذين عادوا فرحين إلى بيوتهم بعد انتهاء العدوان. لم يصدقوا أن منازلهم كانت لا تزال في مكانها. كره أبو كامل التهجير والبهدلة التي تصيب الإنسان حين يترك حيه وبيته ويذهب بعيداً طلباً للأمان. الحاجة للناس فيها مذلة.

فرح أبو كامل لعودة الناس السريعة إلى "الحيّ". كان فخوراً لكونه لم يغادر كما فعل الآخرون ولقد قدّر له الناس والجيران صموده ووقفته تلك. وفرح الناس "بالانتصار" الذي تحقق، فحسابهم طويل مع إسرائيل. فهي منذ قيامها، تقصف قراهم، وتقتل أبنائهم، وتحرق محاصيلهم وتهجّر عائلاتهم. "إسرائيل شر مطلق" لم ينسوا وصية الإمام الصدر. والآن صار لديهم "الحزب" و"السيد حسن" الذي وقف في وجه إسرائيل وتحداها.

-27-

بعد حرب تموز 2006 جاء دور مراجعة الحسابات والنقد الذاتي. في "إسرائيل" (فلسطين المحتلة)، بدأ الرأي العام بمحاسبة الحكومة والقيادات، وكرّت سبحة الاستقالات وسقطت رؤوس كبيرة، خاصة في صفوف الجيش والأجهزة العسكرية، ونُشر تقرير "لجنة ڤينوغراد" الذي أدان القيادة العسكرية الإسرائيلية في تلك الحرب واعترف بفشلها العسكري والاستخباراتي.

أما في لبنان، فراحت الطوائف تحاسب بعضها بعضاً، ووضعت الطائفة الشيعية تحت المجهر. انقسم البلد كعادته أمام الأزمات الوطنية بين معارضة عُرفت بـــ "8 آذار" وموالاة بـــ "14 آذار". الخلاف الأساسي كان حول سلاح المقاومة وقرار الحرب والسلم. كثرت المظاهرات والحوادث الأمنية واهتز البلد. تراجعت هيبة "الدولة" وسادت الفوضى في بلدٍ محكوم بالانقسام بين "شعوب" وطوائف أدمنت الحروب والأزمات ولم تبلغ مرحلة النضج بعد. وعادت عيون الخارج على البلد وعيون أهله على الخارج!

استغل الناس في الضاحية تراجع هيبة الدولة وتفكّكها وضعف أجهزتها وشرعوا يبنون طوابق فوق منازلهم بصورة غير شرعية ومن دون تراخيص. ففي الرمل العالي وبرج البراجنة راح الناس يبنون بصورة عشوائية ويعمّرون طوابق إضافية لأولادهم فوق بيوتهم. كثرت مشاهد المباني الحجرية المشيدة عشوائياً في كل مكان. وحاولت القوى الأمنية إيقاف تلك الموجة من العمران اللاشرعي والعشوائي دون جدوى. وأحياناً تعرضت دوريات الدرك للتعديات والضرب من قبل المواطنين. "فلت الملقّ" وانكسرت هيبة الدولة.

أبو كامل كان أول من استغل الوضع وراح يعمر طابقين إضافيين فوق منزل ابنه كامل. وكذلك فعل علي، ابن جميلة، الذي شرع يبني طابقاً إضافياً فوق منزله من أجل تزويج ابنه وتسكينه فوقه. "قرش العمار مسهّل". كانت شاحنات الحجارة والرمل والبحص تدخل إلى "الحيّ" محمّلة وتخرج فارغة. أبو كامل مشغول بالبناء كل يوم ويساعده في عمله بعض الجيران. وعلي بدوره قام بالعمل بنفسه دون الاستعانة بأحد، فمهنته في الأصل معلّم عمار. ارتفعت الطوابق الحجرية الإضافية في سماء "الحيّ". كل ذلك تحت أنظار الحاج أبو ناصر ومراقبته اليومية. فمن شباكه المطل على "الحيّ" كان يراقب أعمال البناء والطوابق تعلو فوق منزل أبو كامل وعلى بعد متر واحد من منزله فوق منزل علي "حتى علي الأجدب، كما كانوا يلقبونه، كان عم بيعّمر". شعر بالغيرة. لماذا لا يعمر هو أيضاً؟ ولماذا لا يقوم أولاده

أيضاً مثل غيرهم ببناء طابق إضافي فوق منازلهم، فالفرصة لن تتكرر مرتين.

من لم يكن يملك المال اللازم للعمار استدان من أحد المصارف أو من أحد الأقارب. المهم تأمين المبلغ المطلوب لشراء مواد العمار والباقي على الله. معظم سكّان "الحيّ" كانوا يملكون الخبرة الكافية في مجال البناء، وهم كانوا يجدون لذة في عمل البناء والعمار. وكأن في الأمر مسحة قداسة.

لم يسكت الحاج أبو ناصر على الموضوع طويلاً، خاصة عندما شاهد أبو كامل وقد بدأ بمرحلة التوريق. كان يغار منه عندما يلمحه يعمل في المنزل الجديد وهو القاعد في بيته يراقب ما يدور حوله على مضض. أبو كامل كان بلا عملة ولا شغلة!

"يا ابني" قال مرّة لابنه ناصر، "بكرا ولادك بيكبروا وبيصير بدهن يتزوجوا. روح دبر مصاري وعمّر شي طابق. الناس كلها عم بتعمّر". بداية لم يتحمس ناصر للفكرة. لكنه في النهاية سمع كلمة والده، استحصل على قرض من أحد المصارف، وشرع في عملية البناء. أكوام من الحجارة وأكياس الباطون والرمل تكومت أمام منزله. كان الحاج أبو ناصر في غاية السعادة. يستيقظ كل يوم باكراً وينزل إلى الشغل للمساعدة والإشراف على العمال السوريين في الورشة. أصبح "شاباً" من جديد حتى أنه نسي أوجاعه ومشاكله الصحية. لا شيء كالشغل، خاصة في البناء، كان يجعله أكثر فرحةً ورضىً. راح يحمل

الحجارة إلى الطابق العلوي. غبار الشغل اليومي والإحساس بالتعب أعادا إليه الإحساس بأنه قادر على العمل والإنتاج، وأن أولاده بحاجة له من جديد وبأنه موجود. لم يعد يزعجه منظر أبو كامل يعمل في ورشته. فهو أصبح لديه ورشته الخاصة.

"أنا بكرهك... بكرهك" صرخ أبو كامل وهو يهجم على الحاج أبو ناصر ويضربه بعصا خشبية. وقع المشكل الكبير يومها. لم يتجرأ أبو كامل على ضرب عديله اللدود من قبل، لكنه هذه المرة فعلها. فقد صوابه بعد أن حصلت المشادة بين عالية، ابنة أبو ناصر، وسامية، العائدة حديثاً إلى "الحيّ" والراغبة في فرض كلمتها واستعادة هيبتها. سبب المشكل كان "تربيج" مياه ممدوداً من حنفية البرجاوي ويمرّ فوق الممر الضيق إلى سطح منزل عالية. اعترضت سامية على وجود "التربيج" وطلبت إزالته. رفضت عالية وحصلت الخناقة وتطورت إلى مدّ الأيادي.

عندما رأت عالية أباها يتعرض للضرب، جنّ جنونها وهجمت على أبو كامل كالنمرة المفترسة. ضربته بأي شيء وقعت يداها عليها. حتى الكراسي البلاستيكية انهالت عليه. شلّوفة عالية ومشكلجية وقت المشاكل. وتشليفها أتى من فقرها وسوء أحوالها.

تدخل المصلحون والجيران وفرّقوا بين الطرفين. انتهى المشكل ببعض السباب واللعنات وانسحاب كل طرف إلى منزله. تكهرب الجو

في "الحيّ" يومها، وتناهى الخبر إلى ناصر الذي أتى مسرعاً من الكاراج ليجد أباه في حالة صحية مزرية. ارتفع ضغطه ومال وجهه إلى الاحمرار وكان يلهث. المشاكل لم تعد تناسبه، فهو يأخذ 11 حبة دواء وأبو كامل مثل "الجاموس ما بياخد ولا حبة دوا".

"يا ريت بيضل من عمري يوم" قالها أمام أولاده داعياً، "لشوف هالكلب ميت".

ناصر وكامل يمثّلان الجيل الثاني في "حيّ المطلّقات". كانا أكثر وعياً وعقلانية من والديهما. كانا يعتبران أن المشاكل بين الأقارب والجيران ليس لها ضرورة على الإطلاق. قرّرا وضع خلافات أبيهما خلف ظهرهما. وحرصا على إرسال أولادهما إلى مدارس خاصة كي يتلقوا تعليماً جيداً وتفتح لهم الأبواب في المستقبل. فهما كانا قد تعلما في مدارس سيئة لا تعلم سوى الزعرنة والمسبات والتدخين وعادات الشوارع. أصبحا أكثر التزاماً من الناحية الدينية والأخلاقية. فكثرة المشاكل التي سادت بين أبناء الحيّ من الجيل الأول لم تعد تناسبهما. كان لا بد من تغيير الأوضاع وتناسي الخلافات والتطلع إلى الغد.

تغير "حيّ المطلّقات" وتبدّلت أحواله مع تقلّب الزمن والأجيال. غاب جيل، وكبر جيل أكثر جرأة وتعلماً وطموحاً. كبرت الهوّة بين الجيل القديم الذي بقي يحن لأيام الضيعة والبركة والأيام الخوالي، والجيل الجديد الذي اكتسب عادات المدينة، وحرية الحياة الحديثة. وتُرك كبار "الحيّ" مع ذكرياتهم وسجائرهم يدخنونها لكسر الملل وتزجية الوقت. ذلك الوقت الذي راح يمضي عليهم كالسلحفاة. بقي أبو كامل مسمراً على كنبته المهترئة سعيداً بحديقته التي استولى عليها بقوة الأمر الواقع، وزرع فيها كل أنواع الزهور والشتول، وكان يطرد الأولاد ويشتمهم إذا اقتربوا منها. البرجاوي بقي يعمل في محله يساعده أولاده الذين افتتحوا فروعاً أخرى في الضاحية. والحاج أبو ناصر اخترع من الملل عادة المشي إلى طريق المطار كل مساء للمحافظة على لياقته وتمشياً مع نصيحة الطبيب. تحسنت علاقته بأصهرته في آخر أيامه. "فالصهر مسند ظهر". نور مدّ له شريط كهرباء كي ينعم بنور موتور كهرباء صغير اشتراه في ظل انقطاع الكهرباء لفترات طويلة. وعندما أخذه في نزهة في إحدى المرات إلى الروشة والرملة البيضاء، لم ينس الحاج أبو ناصر تلك الرحلة واستمر يتحدث عنه بإيجابية لفترة طويل.

"كلّو الحق عالمرا". وحتى صهره زكريّا، البعيد عنه "جغرافياً"، جلب له خط تلفون إلى البيت كي يتمكن من التحدث مع بناته والاطمئنان عليهن.

لم يكن الجيل القديم في "الحيّ" راضياً عن الجيل الجديد. كثرت انتقاداتهم لهذا الجيل "الفاسد ويلّي ما بيحترم حدا". أما بنات "الحيّ" من الجيل الثالث، أي بنات أولاد الجيل الأول، فكان لهن النصيب الأكبر من التعليقات والتحفظات. "بنات هالأيام ما عندهن أخلاق... عأيامنا البنت ما كانت تسترجي تطلّع بوجه أبوها... اليوم بدن يحملوا سيلوليرات ويحكو مع أصحابهن وهني ماشيين عالطرقات... شو هالمحن؟".

كان الجيل الثالث من أبناء "الحيّ" وبناته أكثر تعلماً وثقافة ووصل إلى الجامعات. أصبح الناس يصرفون أموالهم ومداخيلهم على التعليم، ويرسلون أبناءهم وبناتهم إلى المدارس الخاصة حيث التعليم أفضل. لم يعد أحد يؤمن بالمدرسة الرسمية سوى الذي لم يكن لديه المال الكافي لتعليم أولاده. أصبحت شهادة البكالوريا والشهادة الجامعية مصدر فخر وسعادة للأهل. حتى عالية، ابنة الحاج أبو ناصر، المعترة والمشحرة، وصّلت بناتها إلى الجامعة ورفعت رأسها. كان الجميع ينتقم من حرمانه من التعليم الجيد بتعليم أولاده. فالمخرج الوحيد للتخلّص من الفقر والحرمان كان العلم والتعلم. ودخل الكومبيوتر ومحلات الأنترنت إلى "الحيّ" والجوار.

الذين تركوا "حيّ المطلّقات"، خاصة الفتيات اللواتي تزوّجن وانطلقن للعيش في الخارج، كن الأكثر عرضة للتغيير. لكنهنّ بقين

وفيّات "للحي" وأجواءه وأهله. وعندما كن يقمن بزيارة "الحيّ" يبدون مختلفات قالباً وقولاً. صرن يتحدثن بشكلٍ مختلف ويرتدين ثياباً مختلفة، أكثر أناقة وكلفة. كن يأتين إلى "الحيّ" بسياراتهن الحديثة فيكسبن إعجاب جمهور السكّان. في البداية، كنّ يتمتعن بلعبة "المشاوفة" تلك. متعة أن يراك الناس وأنت قد دست على الفقر وعدت منتصراً. فهؤلاء كنّ، بعيون أهل "الحيّ"، المنتصرات اللواتي طعنّ الفقر والحرمان بسكين الحياة المريحة والرغيدة.

منهن ندوة، البنت الصغيرة والمدللة للحاج أبو ناصر. تزوجت من تاجر غني أنساها الفقر ومرّه. كانت تأتي إلى "الحيّ" وتركن سيارة الرانج تحت شجرة الصنوبر. يركض صبية "الحيّ" ليعلنوا أن "ندوة الغنية والمرتاحة" جاءت لتزورهم. أصبحت ندوة ترتدي أغلى الثياب التي كانت تعلن أنها اشترتها من سوق مار الياس في بيروت. تحمل السليولير خاصتها، وتتبعها سيريلانكيتها وكأنها أميرة تدخل "الحيّ" لأول مرة.

قلت زيارات ندوة إلى "الحيّ" بعد أن ملت "لعبة المشاوفة" تلك، وأصبحت زياراتها تستقطب اهتماماً أقل. أصبحت تجد "الحيّ" مكاناً مملاً وبائساً. خاصة بعد وفاة أمها الحاجة أمّ ناصر. كانت تأتي إلى "الحيّ" وتجد أن شيئاً أساسياً كان ناقصاً. وعندما كانت تزور أخوتها وأختها عالية، لم تكن تسمع إلا النق والتذمر. أصبح الأمر كثيراً عليها مقارنة مع حياتها المريحة والقليلة المشاكل. أبوها يتذمر كل الوقت من

إهمال أولاده له، وأخواها يتذمران من ضيق الأحوال، وأختها عالية الأكثر فقراً، والتي ورثت لقب "المرأة الأكثر تعتيراً وشحاراً" من المرحومة أمّ علي بهية. فقد كان لا بد لأهل "الحيّ" من وجود شخص يستحق الشفقة وكلمة "يا حرام". شخص يرتاحون عندما يقارنون أنفسهم به من كثرة التعتير والفقر، ويشعرون بحسن حالهم. وعالية كانت هذا الشخص المناسب بعد وفاة أمّ علي بهية.

قلّت زيارات ندوة لأختها عالية. وعندما كانت تفعل، كانت تنتقدها بصورة مستمرة لإهمالها لأولادها الحفاة ولعدم اهتمامها بنظافة بيتها وترتيبه. "يا عمي ليش ولادك حافيين برا؟ وليش بيتك مش مرتب؟ وليش... وليش؟" اتسعت الهوة الطبقية بين الشقيقتين وهما كانتا تعيشان في عالمين مختلفين، مما زاد من توتر العلاقة بينهما. في إحدى الزيارات، لم تعد عالية تحتمل وانفجرت بأختها صارخة: "إذا ما بيعجبك بيتي، يا عمي، ما تجي لعندي... عندي تمن أولاد وبدي طعميهن وأبعتن عالمدرسة ولبسهن... وإنتِ عندك ولد واحد وزوجك غني ومش عايزين حدا...".

تركت ندوة منزل أختها زعلانة ولم تعد لزيارتها إلا بعد مرور فترة طويلة مكنتها من النسيان. على كل حال "الدم ما بيصير ميّ".

شيئاً ما انكسر بين الذين تركوا "حيّ المطلّقات" والذين بقوا. بقيت تربطهم شعرة القرابة والعشرة القديمة. ندوة، وغالية، وحلا –

صيّادة الرجال – كنّ من المغادرات الفائزات. مع تقلب الأيام أصبحن من أهل "الخارج". يأتين في زيارات متقطعة ومتباعدة، يشاركن نسوة وفتيات "الحيّ" الحديث على فنجان قهوة. يستمعن إلى القصص الجديدة -- القديمة. "مين تزوج ومين تطلق؟ مين عاش ومين مات؟" وعندما يغادرن "الحيّ" يجرجرن خلفهن التعليقات والانتقادات التي لا تخلو من السخرية أحياناً.

وحدهم أهل "حيّ المطلّقات" بقوا وعاشوا معاً كعائلة واحدة في ما يشبه القرية الصغيرة. شيء ما خفي أبقاهم معاً صابرين موحدين على بقعة أرض بحجم ملعب كرة السلة. شيء يصعب تفسيره ولا يفهمه إلا من عاش بينهم. وحدّتهم وصهرتهم رائحة النفايات المحترقة، وشحّ المياه، وانقطاع الكهرباء المتواصل، وطوفان المجرور المتكرر. هم عاشوا الحياة كما قُدِمت لهم.

الضاحية بعد سنوات من "عدوان تموز" هي غير الضاحية قبل العدوان.

"هدية من بلدية طهران إلى الشعب اللبناني الشريف والمقاوم". كانت هذه العبارة تُكتب على إشارات حديدية توضع وسط حدائق صغيرة الحجم أقامتها بلدية طهران في أنحاء الضاحية، تقديراً لصمود أهلها ومقاومتهم وعرفاناً لهم بالجميل. لم يعد خافياً على أحد الحضور الإيراني المباشر في الضاحية والمناطق التي سيطر عليها "الحزب". فالمال والسلاح والتدريب، كل ذلك جاء من إيران.

ارتفعت في كل مناطق الضاحية صور ضخمة للإمام الخميني وللإمام الخامنئي أكثر من طهران نفسها! كما وضعت صور عملاقة "للسيد حسن" والرئيس نبيه بري. بالإضافة لصورة كبيرة لشهداء المقاومة التي عُلقت على أعمدة الكهرباء. وُضعت هذه الصور لتبقى ولتذكر الناس بالشهداء والتضحيات الغالية التي قُدّمت. صور ضخمة لشهداء كلهم من طائفة واحدة! وساد اللون الأصفر – وهو شعار

المقاومة – في كافة أنحاء الضاحية. أعلام صفراء وشعارات صفراء وثقافة صفراء من لون واحد.

قال عنها الإمام موسى الصدر إنها "ضاحية المحرومين" وسماها اليسار بـــ "ضاحية البؤس". و"الحزب" قال إنها: "ضاحية المستضعفين". وسمّاها طلال سلمان، رئيس تحرير جريدة "السفير" "الضاحية النوّارة".

الضاحية هي "أم الفقراء" وهي "وعاء تجريبي" لناس أتوا إلى المدينة من الأرياف. مدينة "ريفية" بامتياز، قامت على أنقاض حروب متتالية وموجات تهجير لطائفة لم تُفتح لها أبواب المدينة، فأقامت مدينتها الخاصة حتى قيل عنها بأنها "غيتو شيعي".

عجقة سير يومية خانقة. فوضى في كل شيء: في البناء، في المعيشة، في الطرقات والناس تعودوا غياب النظام والقانون. السيارات مركونة على الأرصفة والناس تمشي على الطرقات! ورجال "الانضباط" التابعون "للحزب" يحاولون تنظيم السير إلى جانب رجال الشرطة اللامبالين. سائقو الفانات ضرورة لا يمكن التخلي عنها في ظل الأزمة الاقتصادية وحاجة الناس للتوفير في تنقلاتهم. وراكبو الدراجات النارية لا تسري عليهم قوانين السير. يقودون دراجاتهم بأعداد كبيرة بين السيارات وبعشوائية، دون غطاء الرأس أو رخصة سواقة أو دفتر سير. واللافت هو المشهد المتكرر لسائق دراجة نارية وخلفه شاب يحمل أركيلة في يد وكانوناً مشتعلاً في يد أخرى. طريقة فعّالة ومبتكرة

لإشعال الفحم بسرعة للذين يعملون في مجال توصيل الأراكيل إلى المنازل.

بعد عدوان تموز 2006 انطلقت في الضاحية ورشة بناء ضخمة للمباني المهدمة قامت بها مؤسسة "وعد" التابعة "للحزب". افتتحت مؤسسات عديدة ومطاعم وبنوك ونوادٍ رياضية ومستشفيات. كما انتشرت محال تكرير وبيع مياه الشرب، والسنترالات الخاصة، ومحال تقديم الأركيلة. في كل مكان على الأرصفة مجموعة من الشبان يدخنون الأراكيل ويتسامرون.

أصبحت الضاحية مدينة قائمة بذاتها، مستقلة ولم تعد بحاجة لبيروت. لكنها افتقدت التنوع الطائفي. بقيت من لون طائفي واحد وتسودها ثقافة واحدة. بعد العدوان، بدت الضاحية وكأنها تفكر بطريقة واحدة وتتبنى موقفاً فكرياً وسياسياً واحداً. ففي حين ساد في بيروت جو فكري وطائفي وثقافي متعدد ومتنوع، ساد الضاحية مزاج واحد. غابت المسارح ودور السينما والنشاطات الثقافية والفنية. وكان "للحزب"، المدعوم من إيران، دور أساسي في ذلك. تمكن "الحزب" من كسب تأييد أهل الضاحية كونه تحدث بلغتهم وبالدين الذي كان المكون الأساسي لثقافتهم. ففي حين كانت "الأحزاب العلمانية" تسوق أفكاراً غريبة ومستوردة بين الناس، جاء "الحزب" ليتحدث معهم باللغة التي يفهمونها: لغة الدين والإيمان العزيز على قلوبهم. اكتظت الجوامع بالمصلين، كباراً وصغاراً، والبنايات غطتها الستائر وكأن الضاحية كانت كلها محجبة. ووُضعت في كل مكان علب حديدية مكتوب عليها: "استنزلوا الرزق بالصدقة" أو "داووا مرضاكم بالصدقة...".

خلف كل هذا المشهد انتشرت وقويت "مقاومة" غير مرئية. "فالحزب" منع المظاهر المسلحة وحاسب العناصر غير المنضبطة بقسوة. "مقاومة" أقلقت إسرائيل وحرمت جنرالاتها النوم الهنيء.

آخر طائفة ركبت الموجة الطائفية في هذا البلد كانت الطائفة الشيعية. فهي قاتلت وناضلت في كافة الأحزاب الوطنية، وإلى جانب طوائف أخرى خلال الحرب. وكانت أكثر الطوائف دفعاً لضريبة الدم. وعندما أسست "حزبها" وخطها الخاص، بدا المشهد غير مألوفاً، وكانت له تداعياته لدى الطوائف الأخرى. إذ لم يسبق لطائفة في هذا البلد أن استدعت دعماً خارجياً مكشوفاً كما فعلت الطائفة الشيعية وجمهورها بعد عدوان تموز.

عاش المسلمون الشيعة في هذا البلد على فتات الموائد، إلى أن أصبحت لهم مدينتهم الخاصة ومشروعهم الخاصّ، مما أقلق الطوائف الأخرى. مدينة صفراء زحف أهلها من الريف لتحكم البلد كله. طائفة سُلطت عليها كل الأضواء في الداخل والخارج بعد أن قُمعت وهُمشت لقرون.

بدا المشهد عند مستديرة شاتيلا لافتاً ومعبراً: جامع الخاشقجي السني مقابل جامع شمس الدين الشيعي. كأنهما رأسا حربة لمدينتين تتنافسان: بيروت والضاحية!

-30-

في صبيحة ذلك اليوم كان "حيّ المطلّقات" هادئاً على غير عادة. ذهب الجميع إلى طريق المطار للمشاركة في المظاهرات وحرق دواليب السيارات، في محاولة من المعارضة لقطع الطريق والضغط على الحكومة لإجبارها على الاستقالة. وحدهما الحاج أبو ناصر والبرجاوي بقيا في "الحيّ" وجلسا على الحافّة يدخنان ويتبادلان الهموم. كان بإمكانهما رؤية أعمدة الدخان الأسود ترتفع في السماء لجهة طريق المطار.

كانت هناك قصة قديمة يتبادلها أهل "الحيّ" تقول بأن "الدولة" كانت تخطط لشق طريق دولية تمتدّ من طريق المطار لتصل إلى "الحيّ". وكان أهل "الحيّ" يتوقعون أن يحصلوا على تعويضات مالية لا بأس بها بسبب مرور تلك الطريق في حيهم. وبأنهم سوف يضطرون إلى ترك "الحيّ" يوماً ما. كانت قصة الطريق تلك تُنقل من جيل إلى جيل، لكنها بقيت مجرد قصة لم تتحقق.

"سمعت شي عن مشروع الطريق يا حاج" سأل البرجاوي.

"لا والله" أجاب الحاج أبو ناصر. "هيدي قصة قديمة كتير، من عأيام بيّي وبيك! بس سمعت قصة المسكين أبو محمود، جارنا".

"خير إن شاء الله".

"مسكين أبو محمود" أضاف الحاج أبو ناصر. "بعد ما ماتت مرتو، زعل كتير. بلع علبة دوا وحاول ينتحر".

"ومات!!!"

"لأ ما مات: أخدوه عالمستشفى وعملولو غسيل معدة ومشي الحال. شفتو مبارح وكان كل الوقت عم بيبكي ع مرتو".

"لمن الواحد بتموت مرتو" قال البرجاوي، "بيصير متل الكلب لحالو".

"إيه... ما تذكّرني. لما ماتت رقية، صارت حياتي بلا قيمة وبلا معنى". ثم أشار إلى منزله المقابل أمامهما: "شوف هالبيت. أنا عمرتو مع رقية من البداية. حجر ع حجر. عشنا فيه وصار عنا ولاد. اطلّع عليه اليوم، صار فاضي. حتى ولادي ما بيزوروني إلا إذا كنت مريض أو عم بموت. شو عملت، قلّي؟ يا ريت سمعت كلام بيي وما عمرت هالبيت... نيالك يا رقية... نيالك ارتحتي".

"رزق الله ع أيام زمان" قال البرجاوي في محاولة منه لتغيير الموضوع. "بتذّكر إنّو زمان ما كان في برادات. كان في معمل تلج في الغبيري ومعامل تانية في بيروت. وكان جدي يشتري ألواح التلج المجمد من محلة قرانوح في الغبيري ويحفظها في أكياس "الجنفيص" أو في طنجرة كبيرة أو صحّارة خشبية. وكان يحفظ التلج لتلات وسبع ساعات. وكان في سيارات خاصة تبيع التلج في كل مناطق الضاحية".

"إيه رزق الله ع هيديك الأيام" قال الحاج أبو ناصر مستسلماً لذاكرته البعيدة. بتعرف يا حاج إنو أيام الحرب العالمية، حتى الجنرال غورو ما قدر يفوت عالضاحية".

"شو عم بتقول؟"

"كان في واحد من الزعما الشيعة في الضاحية دعا الجنرال غورو لحفلة تكريم في ساحة المنشية. وزين له المنطقة بالأعلام الفرنسية والنخل والزهور من محلة الرويس إلى باحة الاحتفال. بس الناس ما كانوا حابين الأجنبي ومتمسكين بعروبتهم. كان في شاب قبضاي اسموا سليمان فرحات. حمل سلاحو واقتحم مكان الاحتفال وراح بدو يمزق الأعلام الفرنسية، لكن منظمين الاحتفال قدرو يبعدوه. ثم أفلت منهم وراح مع صاحبو لقبه ملحم قاسم...".

"مين هيدا ملحم قاسم؟"

"ملحم قاسم كان لقبه أبو علي. وهوي زعيم شيعي وقبضاي من حور تعلا في البقاع الشرقي. قاوم الجنود الأتراك وسيطر على مستودعات القمح في رياق. وراح يوزع القمح على الأهالي الجوعانين دون أجر مادي. بقي مسيطر على قسم كبير من البقاع الشرقي والأوسط. كانت الناس تحبّو وتخاف منو بنفس الوقت".

أخذ الحاج أبو ناصر مجة من سيكارته وهو يتأمل أعمدة الدخان الأسود لجهة طريق المطار وقال: "المهم... ما هي إلا دقائق، حتى طل ابن فرحات وملحم قاسم من أعلى مئذنة الجامع. ناطرين لحتى يجي الجنرال غورو ليقوّصوا عليه من فوق. بهاللحظة، وصلت سيارة فورد أبو دعسة ونزل منها شاب أنيق بلباس مدني ومعه عسكريان. بعدين عرفنا إنّو أمين سرّ المفوضية الفرنسية العليا وإنو إجا ليستطلع الوضع. ولما شاف الحديدة حامية وسمع رصاصة واحدة أُطلقت في الهواء إرهاباً، عاد إلى بيروت ليخبر سيده الجنرال بالخطر الذي ينتظره في برج البراجنة... وهيك ألغي الاحتفال وما دخل الجنرال غورو إلى الضاحية".

"سمعت شي يا حاج عن الأوضاع بالعراق؟" سأله البرجاوي. "إي والله... مساكين أهل العراق. والله عم بيتعذبوا أكتر منّا" قال الحاج أبو ناصر بتأثر.

"الحق عالأمريكان" أضاف البرجاوي. "غزوا البلد واحتلوا ودمروا الدولة. والله في ناس عم بتترحّم عأيام صدام!"

"لأ يا حاج. لأ، الحق ع صدام كمان" أجاب الحاج أبو ناصر دون تردد. "أنا رحت عالعراق وزرت كربلاء والنجف. صدام كان داعس بصباطو عالشعب العراقي. هم عاشوا في الأزقة والأكواخ وهوي كان عايش بالقصور. كانوا يخافو من المخابرات كتير".

"أنا معك. بس شوف هلق شو صار. شوف كيف السنة والشيعة عمالي يذبحوا ببعضهم بعض. صار في حمام دم وحرب أهلية. الناس رجعت 1400 سنة لورا".

"مضبوط... بس السنّة هنّي يلّي بلّشوا وصارو يبعتو سيارات مفخخة وانتحاريين ليقتلوا النسوان والأطفال".

"بسّ يا حاجّ، الشيعة كمان عمبيقتلوا السنّة وبيفجروا جوامعهم وبيقتلو زعماءهم وشيوخهم".

"لا... لا... السنّة هني يلّي عم يفجرو الحسينيات. وآخر مرّة فجروا مقامي الإمامين العسكريين". رد الحاج أبو ناصر بعصبية.

"بسّ الشيعة كمان ردو بمجازر ضد السنّة" قال البرجاوي.

"لا... السنّة هنّي يلّي بلّشو".

"لا... الشيعة هنّي يلّي بدأوا بالقتل".

"لا... الحق عالسنّة!"

"لا... الحق عالشيعة!"

"السنّة..."

"الشيعة..."

في تلك اللحظات المتوترة بين الجارين، مرت سيارة مسرعة قربهما، وغسّلتهما بمياه المجرور الراكدة في الشارع. وقف أبو ناصر والبرجاوي معاً وراحا يكيلان السباب واللعنات على السائق الذي ما إن لاحظ فعلته حتى أسرع بعيداً.

وقفا وجهاً لوجه وعلى وجهيهما علامة الصدمة. ساد الصمت للحظات. ثم قال البرجاوي بحسرة: "بتعرف يا حاج... كان لازم نصلح هالمجرور من زمان".

"إي والله" قال الحاجِ أبو ناصر موافقاً، "كان لازم نصلّح هالمجرور من زمان".

هذا الكتاب

ليست هذه قصة «الشيعة» في هذا البلد، بل هي قصة «شيعة» من المنسيين والمهمّشين الذين لم تَطَلْهُم نعمة التغيير وموائد الزعامات.

عاشوا في حيّ من أحياء الضاحية الجنوبية يلحسون مبرد الحرمان والتخلف، وشظف العيش على أبواب مدينة أدارت لهم ظهرها. ولم تفتح لهم الأبواب إلا إلى المستشفى أو إلى السجون.

عشتُ في هذا الحيّ لأربع سنوات أصبت خلالها بصدمة ثقافية كانت لي «نقمة ونعمة». النقمة أني أتيت إلى الحيّ من رأس بيروت لأكتشف بيئة ريفية منغلقة يسودها العنف والبؤس والجهل والحرمان، لم تكتسب من ثقافة المدينة شيئاً، وفي ظل غياب كامل للدولة، وأهلها يُستخدمون وقوداً في حروب مستوردة.

وكانت النعمة في اكتشاف أنسنة «الآخر» من خلال العيش معه والإحساس بوجعه، وإحباطه، فسقطت الصورة النمطية عنه... صورة مبالغ فيها ومشغول عليها.

وكان الاكتشاف المذهل لحقيقة أننا «كشعوب وطوائف وقبائل» لا نزال نعيش بعضنا مع البعض الآخر غرباء متحصنين وراء أسوار عالية من الآراء المسبقة النمطية المنمذجة وأوهام الطوائف.

بعد مغادرتي الحيّ شعرت بالذنب تجاه أهله وسكانه. لماذا عشت غريباً بينهم؟ لماذا لم أتمكن من فهمهم؟ لماذا مارست عليهم تعجرفي المديني والثقافي؟

قصرت المسافة بيننا وكان لا بد من مدّ بساط العتب والمصالحة وجردة حساب.

هذا الحيّ ليس حكراً على الضاحية وحدها فهو موجود في كل مدينة وكل بلد. كل همّي كان نقل وجع هؤلاء الناس وعيشهم في ظل إهمال الدولة لهم واستغلالهم من قبل زعامات للسيطرة والنفوذ والمناصب.

تحية من القلب إلى الذين عاشوا **الحياة كما قُدِّمت لهم.**

زياد كاج، روائي وشاعر من لبنان له في الرواية «أولاد الناطور السابق»، في الشعر «كان عليك أن تقلب السلم» و«أميركا أحبك، أميركا أنا لا أحبك»



دار نلسن